

الْجَوَابُ الْكَافِي

لِمَنْ سَأَلَ عَنْ الدَّاءِ وَالسَّانِي

أَوْ

الدَّاءِ وَالذَّوَاءِ

لِلإمام المحدث والفقهاء المفسر

محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي الحنبلي

المعروف بـ «ابن قيم الجوزية»

خرج أحاديثه وحقها

عمر وعبد المنعم سليم

توزيع

مكتبة العلم بحجة

حي الشرفهاتفه ٠١٨٧٧٠٦

الناشر

مكتبة ابن تيمية

القاهرة
هاتف ٠١٤٤٤٨٦



الجواب الكافي

أو
الداء والدواء

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

«وبعد» :

فكتاب « الداء والدواء » للإمام الكبير ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر - رحمه الله - من أنفع الكتب التي تناولت ذكر كثير من أدواء القلوب ، وأدويتها ، وهو يمتاز عن غيره من الكتب المصنفة في هذا الباب بما يمتاز به مصنفه عن مصنفى تلك الكتب من الاتباع الصحيح للكتاب والسنة ، والاعتقاد السليم والفهم المستقيم لنصوص الشرع الحنيف .

فليس فيه من تخريفات الصوفية ، ولا خطرات الموسوسة ، ولا شطحات المبتدعة شيء ، بل هو كتاب قوامه الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح لهما .

ولذا فقد حاز إعجاب العلماء وطلاب العلم وعوام المسلمين على حد سواء ، فنزل منهم مكاناً عظيماً ، وبلغ عندهم شأنًا جليلاً ، وكان لهم عوناً ودليلاً .

وقد حققَ هذا الكتاب أكثر من تحقيق ، ولا أكون مبالغاً إذا زعمت

أنها كلها تحقيقات تجارية ، لا تنهض أن توسم بالتحقيق أو حتى بالتحشية ، بل هى إلى تشويه العلم أقرب بالوصف ، وبالسرقة المخلة بالأمانة وبالمعنى من كتب المحققين من أهل العلم كالألبانى - حفظه الله - أجدر بالوسم .

وقد كان من من الله على وحسن توفيقه أن جمعنى أثناء عمرتى الأخيرة بأحد أصحاب دور النشر الحريصين على نشر التراث المحقق تحقيقاً علمياً صحيحاً ، فاقترح على تحقيق هذا الكتاب النافع ، وحبب إلى الاشتغال بتخريج أحاديثه من حيث الصحة والضعف ، إتماماً لفائدة الكتاب الأصل ، فنزلت منى هذه الرغبة بمكان ، فاستخرت الله فى إنجازها والسعى لتحقيقها ، فانشرح صدرى لذلك ، وكان من الله سبحانه وتعالى التيسير ، علامة للتوفيق .

فالحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وهذا الكتاب فى هذه الحلة الجديد ، مضافاً إليه هذا التخريج الوسط هو فيما أحسب عوناً طيباً لطالب العلم عموماً ، وطالب الحديث خصوصاً ، فكما أنه عوناً لطالب العلم فى معرفة درجة الحديث المحتج به فى الباب ، فهو لا يخلو من فائدة ينشرح لها صدر طالب الحديث .

هذا ، ومما ينبغى التنبيه عليه أنى اعتمدت فى مراجعة متن الكتاب على أكثر من طبعة ، منها الطبعة السلفية لمحققها وناشرها محب الدين الخطيب ، وطبعة دار الحديث ، وعنهما طبعة دار الخلفاء الصادرة مؤخراً .

وأصل الكتاب لم يكن مبوباً ، كما هو الحال فى هذه الطبعة ، وإنما هذه العناوين والتبويبات من وضع بعض من تصدى لتحقيق هذا الكتاب من قبل ، وهى فى جملتها منقولة من كلام ابن القيم نفسه ، فأثرت الإبقاء

عليها ، دفعاً للرتابة والملل ، وتسهيلاً على القارئ في نيل بغيته من موضوعات الكتاب .

وأخيراً : فهذا جهد المقل ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت فيما تصديت له ، وأخلصت النية ، ولم أضن بالجهد أو بالعلم ، ولم أخالف ما هو معلوم من هذا العلم بالضرورة ، وأسأله سبحانه وتعالى أن ينفعني به وناشره وسائر المسلمين .

إنه ولي ذلك .

والقادر عليه .

والحمد لله رب العالمين .

وكتب

عمرو عبد المنعم سليم

طنطا : ليلة الأحد الموافق التاسع من ذى القعدة ١٤١٥ هـ .

ترجمة المصنف

(نبذة مختصرة) (*)

* اسمه ونسبه :

هو شمس الدين ، أبو عبد الله ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد
ابن حريز الزرعى ، الدمشقى ، الحنبلى .
المعروف بـ « ابن قيم الجوزية » .

مولده :

قال ابن رجب الحنبلى - وهو من تلاميذ المصنف - فى « ذيل طبقات
الحنابلة » :

« ولد سنة إحدى وتسعين وست مائة »

* طلبه العلم وتحصيله :

وكان - رحمه الله - عالى الهمة فى الطلب ، كتب بخطه مالا
يوصف ، وتفقه فى المذهب الحنبلى ، وعنى بالحديث ومتونه ، وسمع من
الشهاب النابلسى ، والقاضى تقى الدين سليمان ، وعيسى المطعم ، وأبى
بكر بن عبد الدائم ، وجماعة .

ولازم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وأخذ عنه ، واستفاد
منه كثيراً ، وكثيراً ما ينقل عنه فى مصنفاته مالا ينقله عن غيره .

(*) مصادر ترجمته :

« البداية والنهاية » لابن كثير (٢٣٤/١٤) ، « ذيل طبقات الحنابلة » لابن رجب
الحنبلى (٤٤٧/٤) ، « الدارس فى تاريخ المدارس » للنعيمى (٩٠/٢) ، « شذرات الذهب »
لابن العماد (١٦٨/٦) .

واستفاد من أبي الحجاج المزى ، وله عنه نقولات فى مصنفاته .

*** تلاميذه :**

قال ابن رجب : « أخذ عنه العلم خلق كثير ، ... كابن عبد الهادى » .

قلت : وممن تلقى عنه ، وانتفع به :

ابن رجب الحنبلى ، وابن كثير صاحب « التفسير » حتى قال فى « البداية والنهاية » : « كنت من أصحاب الناس له ، وأحب الناس إليه » .

*** عبادته وتهجده :**

وكان - رحمه الله - راسخ القدم فى العبادة ، جليل الشأن فى التأله ، عظيم القدر فى الإقبال على الطاعات ، حتى قال تلميذه أبو الفداء بن كثير - رحمه الله - :

« لا أعرف فى هذا العالم فى زماننا أكثر عبادة منه ، وكانت له طريقة فى الصلاة ، يطيلها جداً ، ويمد ركوعها وسجودها ، ويلومه كثير من أصحابه فى بعض الأحيان ، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله » .

وقال ابن رجب - رحمه الله - :

« وكان رحمه الله ذا عبادة ، وتهجد ، وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتأله ولهج بالذكر ، وشغف بالمحبة ، والإنابة ، والاستغفار ، والافتقار إلى الله ، والانكسار له ، والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله فى ذلك » .

وقال : « وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة ، وكثرة الطواف أمراً يتعجب منه » .

* محتته مع شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمهما الله تعالى :-
وقد امتحن الإمام ابن القيم - رحمه الله - مرات ، وأودى ،
والسبب الرئيسى فى ذلك موافقته لشيخ الإسلام ابن تيمية فى مسائل:
الطلاق ثلاثاً ، والنهى عن شد الرحال إلى المشاهد وقبور الصالحين ، حتى
حبس معه فى المرة الأخير بالقلعة ، منفرداً عن شيخ الإسلام ، ولم يفرج عنه
إلا بعد موت الشيخ الصالح - رحمهما الله تعالى - .

قال ابن رجب - رحمه الله-:

« وكان فى مدة حبسه مشغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر ، ففتح
عليه من ذلك خير كثير ، وحصل له جانب عظيم من الأدواق والمواجيد
الصحيحة ، وتسلبت بسبب ذلك على الكلام فى علوم أهل المعارف ،
والدخول فى غوامضهم ، وتصانيفه ممتلئة بذلك » .

* ثناء أهل العلم عليه :

وأما ثناء أهل العلم عليه ، فكثير جداً ، مما يدل على رسوخ قدمه فى
العلم ، وعلو شأنه فى الطاعة ، وأقوالهم شاهدة على ذلك .

قال الحافظ الذهبي - رحمه الله - : « عنى بالحديث ومتونه وبعض
رجاله ، وكان يشتغل فى الفقه ، ويجيد تقريره وتدريسه ، وفى
الأصلين ، ، وتصدى للإشغال ، وإقراء العلم ونشره » .

وقال القاضى برهان الدين الزرعى : « ما تحت أديم السماء أوسع
علماً منه ، ودرس بالصدرية ، وأمّ بالجوزية مدة طويلة ، وكتب بخطه مالا
يوصف كثرة » .

وقال الحافظ ابن رجب : « لا رأيت أوسع منه علماً ، ولا أعرف
بمعانى القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه ، وليس هو المعصوم ، ولكن لم أر

فى معناه مثله».

وقال الحافظ ابن كثير : « سمع الحديث ، واشتغل بالعلم ، وبرع فى علوم متعددة ، ولا سيما علم التفسير ، والحديث ، والأصلين ، ولما عاد الشيخ تقى الدين ابن تيمية من الديار المصرية فى سنة ثنتى عشرة وسبع مائة لازمه إلى أن مات الشيخ ، فأخذ عنه علماً جماً ، مع ما سلف له من الاشتغال ، فصار فريداً فى بابه فى فنون كثيرة ، مع كثرة الطلب ليلاً ونهاراً وكثرة الابتغال ، وكان حسن القراءة والخلق ، كثير التودد ، لا يحسد أحداً ولا يؤذيه ، ولا يستعيبه ، ولا يحقد على أحد » .

وقال ابن العماد : « المجتهد المطلق ، المفسر ، النحوى ، الأصولى ، المتكلم » .

* مصنفاته :

وكان من حسن توفيق الله له ، ومباركته فى علمه ، أن من عليه بحسن التصنيف وكثرته ، وقد سرد ابن رجب مجموعة كبيرة من مصنفاته فى « ذيل الطبقات » .

* وفاته وعلامة حسن الخاتمة :

وبعد أن قضى - رحمه الله - ستين عاماً من العمر فى التعليم والعمل ، وافاه الأجل فى ليلة الخميس ثالث عشر رجب وقت أذان العشاء من سنة (٧٥١) هـ ، وصلى عليه من الغد بعد صلاة الظهر بالجامع الأموى ، ودفن عند والدته بمقابر الباب الصغير ، ورثت له منامات كثيرة .

ومن علامات حسن خاتمته - رحمه الله - :

أنه رأى قبل موته بمدة الشيخ تقى الدين ابن تيمية - رحمه الله - فى النوم ، فسأله عن منزلته ؟ فأشار إلى علوها فوق بعض الأكابر ، ثم قال له : وأنت كدت تلحق بنا ، ولكن أنت الآن فى طبقة ابن خزيمة - رحمه الله - .

فرحمة الله عليه ، وجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء .



الْجَوَابُ الْكَافِي

لِمَنْ سَأَلَ عَنِ الدَّاءِ وَالِشَّافِي

أَوْ

الدَّاءُ وَالِدَّوَاءُ

للإمام المحدث والفقير المفسر
محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي الحنبلي
المعروف بـ «ابن قيم الجوزية»

خرج أحاديثه وحققها
عمر وعبد المنعم سليم

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

ما تقول السادة العلماء ، أئمة الدين ، رضى الله عنهم أجمعين ،
فى رجل ابتلى ببلىة ، وعلم أنها إن استمرت فيه أفسدت عليه دنياه
وآخرته ، وقد اجتهد فى دفعها عن نفسه بكل طريق ، فما يزداد إلا
توقداً وشدة ، فما الحيلة فى دفعها ؟ وما الطريق إلى كشفها ؟
فرحم الله من أعان مبتلى ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى
عون أخيه ، أفتونا مأجورين رحمكم الله تعالى.

* فأجاب الشيخ ، الإمام ، العالم ، شيخ الإسلام ، مفتى المسلمين ،
شمس الدين ، أبو عبد الله بن أبى بكر أيوب إمام المدرسة الجوزية - رحمه
الله تعالى :-

□ لكل داء دواء.

الحمد لله.

أما بعد :

فقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ،
عن النبى ﷺ أنه قال : « ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء » . (١)

[١] ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء.

حديث صحيح .

رواه البخارى (٨/٤) ، والنسائى فى «الكبرى» (تحفة: ٢٦٦/١٠) ، وابن ماجة

(٣٤٣٩) من طريق :

عمر بن سعيد بن أبى حسين ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن أبى هريرة به.

وفى «صحيح مسلم» من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل داء دواء : فإذا أصيب دواء الداء برأ يأذن الله » (٢).

وفى مسند الإمام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبي ﷺ قال : « إن الله لم ينزل داءً إلا أنزل له شفاءً ، عِلْمُهُ من عِلْمِهِ ، وجهله من جهله » وفى لفظ : « إن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً - أو دواءً - إلا داءً واحداً » ، قالوا : يا رسول الله ما هو ؟ قال : « الهرم » (٣) .

قال الترمذى : « هذا حديث صحيح » .

[٢] لكل داء دواء..

حديث صحيح.

رواه الإمام أحمد (٣٣٥/٣) ، ومسلم (١٧٢٩/٤) ، والنسائى فى « الكبرى » (تحفة : ٣١٠/٢) من طريق : ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن عبد ربه بن سعيد ، عن أبى الزبير ، عن جابر به .

[٣] إن الله لم ينزل داءً إلا ..

صحيح من حديث أسامة بن شريك باللفظ الثانى .

أخرجه الإمام أحمد (٢٧٨/٤) ، وابن أبى شعبة (٣١/٥) ، وابن أبى عاصم فى « الأحاد والمثنائى » (٢٦٦٨) ، وأبو داود (٣٨٥٥) ، والترمذى (٢٠٣٨) ، وابن ماجه (٣٤٣٦/٢) ، والحاكم (٣٩٩/٤) ، والطبرانى فى « الكبير » (١٨١ و ٧٩/١) من طرق عن زياد بن علاقة ، عن أسامة بن شريك باللفظ الثانى .

قال الحاكم : « هذا حديث صحيح الإسناد ، فقد رواه عشرة من أئمة المسلمين وثقاتهم عن زياد بن علاقة ، فمنهم مسعر بن كدام ، .. ، ومنهم مالك بن مغول البجلي » . ووافقه الذهبى .

وأما الحديث باللفظ الأول فأخرجه الإمام أحمد (٢٧٨/٤) : حدثنا مصعب بن سلام ، حدثنا الأجلح ، عن زياد بن علاقة ، عن أسامة بن شريك به .

قلت : والحديث غير محفوظ بهذا اللفظ عن أسامة بن شريك ، وإنما هو محفوظ باللفظ الثانى لاتفاق الجماعة عليه ، والحمل فى هذا الخبر على شيخ الإمام أحمد مصعب ابن سلام ، وهو لين الحديث صاحب أخطاء ومناكير ، وقد خولف ، فقد أخرجه الطبرانى فى « الكبير » من طريق : محمد بن فضيل ، عن الأجلح به باللفظ الثانى . =

❏ دواء العي السؤال .

* وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها ، وقد جعل النبي ﷺ الجهل داء ، وجعل دواءه سؤال العلماء.

فروى أبو داود في «سننه» من حديث جابر بن عبد الله قال : خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر ، فشجّه في رأسه ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا ما نجد لك رخصة ، وأنت تقدر على الماء.

فاغتسل فمات ، فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك ، فقال : «قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر- أو يعصب- على جرحه خرقة ثم يمسح

= ولكن هذا اللفظ صحيح من حديث ابن مسعود - رضى الله عنه -.

فقد رواه ابن أبي شيبه (٣١/٥) عن وكيع ، وابن ماجه (٣٤٣٨) من طريق : ابن مهدي كلاهما عن الثوري ، عن عطاء بن السائب ، عن أبي عبد الرحمن ، عن ابن مسعود به.

ورواية ابن مهدي مختصرة بلفظ : « ما أنزل الله داءً إلا أنزل له دواء ».

ورواه الإمام أحمد (٤١٣ و ٣٧٧/١) من طريق : ابن عيينة ، عن عطاء به .

قلت : عطاء اختلط بأخرة ، ولكن سماع الثوري منه قديم ، وسماع ابن عيينة جيد فإنه سمعه بعد الاختلاط فاتقاه .

قال الأبناسي - فيما نقله ابن الكيال في «الكواكب النيرات» (ص: ٦٣) -:

«ينبغي أن يستثنى أيضاً سفيان بن عيينة ، فقد روى الحميدى عنه ، قال : (كنت سمعت من عطاء بن السائب قديماً ، ثم قدم علينا قدمة ، فسمعت يحدث ببعض ما كنت سمعت فخلط فيه ، فاتقيته واعتزلته) فينبغي أن يكون روايته عنه صحيحة».

عليها ، ويغسل سائر جسده»^(٤).

[٤] قتلوه قتلهم الله ..

حديث ضعيف.

أخرجه أبو داود (٣٣٦) من طريق : محمد بن سلمة الحراني ، عن الزبير بن خريق ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن جابر به .

قال ابن حجر في « بلوغ المرام » (ص: ٤٣):

« فيه ضعف ، وفيه اختلاف على رواته ».

قلت : وهو كما قال ، فإن الزبير بن خريق ضعيف ، قال أبو داود والدارقطني : « ليس بالقوى ».

وأما الاختلاف :

فقد رواه الأوزاعي عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس به .

أخرجه ابن ماجه (٥٧٢) ، والدارقطني (١٩٠/١-١٩١) ، والبيهقي (٢٢٦/١) من طرق عن الأوزاعي به .

وقد اختلف في وصله وإرساله على الأوزاعي .

فرواه عبد الرزاق (٢٢٣/١) عن الأوزاعي ، عن رجل ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس به .

ورواه أبو داود (٣٣٧) من طريق : محمد بن شعيب ، أخبرني الأوزاعي ، أنه بلغه عن عطاء بن أبي رباح بسنده .

ورواه الإمام أحمد (٣٨٠/١) ، والدارمي (٧٥٢) : عن أبي المغيرة ، حدثنا الأوزاعي ، قال : بلغني عن عطاء ، قال إنه سمع ابن عباس .

وقد رجح الدارقطني هذا الوجه ، وهو الصواب .

وله طريق آخر :

عن عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبي ، أنبأني الوليد بن عبيد الله بن أبي رباح ، أن عطاء حدثه ، عن ابن عباس به .

أخرجه ابن خزيمة (٢٧٣) ، ومن طريقه ابن حبان (موارد : ٢٠١) - وابن الجارود (١٢٨) وليس فيه « أولم يكن شفاء العي السؤال ».

وفيه الوليد بن عبيد الله بن أبي رباح ، وقد ضعفه الدارقطني .

فالحديث ضعيف والله أعلم .

فأخبر أن الجهل داء ، وأن شفاؤه السؤال .

❏ القرآن شفاء .

وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء ، فقال تعالى :

﴿ ولو جعلناه قرآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِي وَعَرَبِي
قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ﴾ (فصلت: ٤٤) .

وقال :

﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ (الإسراء: ٨٣) .

و«من» هنا لبيان الجنس لا للتبعض ، فإن القرآن كله شفاء ، كما قال
في الآية المتقدمة ، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب ، فلم
ينزل الله سبحانه وتعالى من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا
أنجح في إزالة الداء من القرآن .

وقد ثبت في « الصحيحين » من حديث أبي سعيد قال : انطلق نفر من
أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها ، حتى نزلوا على حيٍّ من أحياء
العرب فاستضافوهم ، فأبوا أن يضيفوهم ، فلدغ سيد ذلك الحي ، فسعوا له
بكل شيء لا ينفعه شيء ، فقال بعضهم : لو أتيتهم هؤلاء الرهط الذين نزلوا ،
لعله أن يكون عند بعضهم شيء ، فأتوهم ، فقالوا : يا أيها الرهط ، إن
سيدنا لدغ ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه شيء ، فهل عند أحد منكم من
شيء ؟ فقال بعضهم : والله إني لأرقى ، ولكن والله لقد استضيفناكم فلم
تضيفونا ، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لي جعلاً ، فصالحوهم على قطيع
من الغنم ، فانطلق يتفل عليه ويقرأ ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فكأنما نشط
من عقال ، فانطلق يمشي ، وما به قَلْبَةٌ ، فأوفوهم جُعْلَهُم الذي صالحوهم

عليه، فقال بعضهم : اقتسموا ، فقال الذى رقى : لا نفعل حتى نأتى
النبي ﷺ فنذكر له الذى كان ، فننظر ما يأمرنا ، فقدموا على رسول الله
ﷺ فذكروا له ذلك فقال : « وما يدريك أنها رقية؟ ثم قال : قد أصبتم،
اقتسموا ، واضربوا لى معكم سهماً»^(٥).

فقد أثر هذا الدواء فى هذا الداء وأزاله حتى كأنه لم يكن ، وهو
أسهل دواء وأيسره ، ولو أحسن العبد التداوى بالفاتحة لرأى لها تأثيراً
عجيباً فى الشفاء.

ومكثت بمكة مدة يعترينى أدواء ولا أجد طبيباً ولا دواء ، فكنت
أعالج نفسى بالفاتحة ، فأرى لها تأثيراً عجيباً ، فكنت أصِفُ ذلك لمن
يشتكى ألماً ، فكان كثير منهم يبرأ سريعاً.

ولكن ههنا أمر ينبغى التفطن له : وهو أن الأذكار والآيات أو الأدعية
التي يستشفى بها ويرقى بها هى فى نفسها نافعة شافية ، ولكن تستدعى
قبول المحل ، وقوة همة الفاعل ، وتأثيره ، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف
تأثير الفاعل ، أو لعدم قبول المنفعل ، أو لمانع قوى فيه يمنع أن ينجع فيه
الدواء ، كما يكون ذلك فى الأدوية والأدواء الحسية ، فإن عدم تأثيرها قد

[٥] وما يدريك أنها رقية؟...

حديث صحيح.

رواه الإمام أحمد (٤٤/٣) ، والبخارى (١٦/٤) ، ومسلم (١٧٢٧/٤) ، وأبو داود
(٣٩٠٠) ، والترمذى (٢٠٦٣) ، والنسائى فى « الكبرى » (تحفة: ٤٢٧/٣) ، وابن ماجه
(٢١٥٦) من طريق :

أبى بشر جعفر بن أبى وحشية ، عن أبى المتوكل الناجى على بن داود ، عن أبى سعيد
الخدري - رضى الله عنه - به.

يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء ، وقد يكون لمانع قوى يمنع من اقتضائه أثره ، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتقاع البدن به بحسب ذلك القبول ، فكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام ، وكان للراقى نفس فعالة وهمة مؤثرة فى إزالة الداء.

❑ الدعاء يدفع المكروه.

* وكذلك الدعاء ، فإنه من أقوى الأسباب فى دفع المكروه وحصول المطلوب ، ولكن قد يتخلف أثره عنه ، إما لضعفه فى نفسه ، بأن يكون دعاء لا يحبه الله ، لما فيه من العدوان .

وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجميعته عليه وقت الدعاء ، فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً ، فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً ، وإما لحصول المانع من الإجابة : من أكل الحرام ، ورين الذنوب على القلوب ، واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليها.

❑ دعاء الغافل .

كما فى مستدرک الحاكم من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال :
« ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه » (٦) .

فهذا دواء نافع مزيل للداء ، ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته ، وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها .

[٦] ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ..

حديث منكر .

رواه الترمذى (٣٤٧٩) ، والحاكم (٤٩٣/١) ، وابن حبان فى « المجروحين » (٣٧٢/١) ، وابن عدى فى « الكامل » (١٣٨٠/٤) ، والخطيب فى « تاريخ بغداد » (٣٥٦/٤) من طريق : صالح المرى ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - به .

كما فى « صحيح مسلم » من حديث أبى هريرة ، قال :
قال رسول الله ﷺ :

« يا أيها الناس ، إن الله طيب ، لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر
المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال :

﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون
عليم ﴾ (المؤمنون: ٥١).

وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾
(البقرة: ١٧٢).

= قال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .
يشير إلى تفرد صالح بن بشير المرى به .
وقال الحاكم : « هذا حديث مستقيم الإسناد ، تفرد به صالح المرى ، وهو أحد زهاد
أهل البصرة ، ولم يخرجاه » .
وتعقبه الذهبى بقوله : « صالح متروك » .
قلت : وهو الصحيح ، وقد تفرد برواية هذا الخبر ، وقد استنكره الحفاظ ، وحملوا فيه
عليه .

وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو - رضى الله عنه - مرفوعاً :
« القلوب أوعى وبعضها أوعى من بعض فإذا سألتم الله عز وجل أيها الناس
فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة ، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل » .
أخرجه الإمام أحمد (١٧٧/٢) : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا بكر بن
عمرو ، عن أبى عبد الرحمن الحبلى ، عن عبد الله به .

قال الهيثمى فى « المجمع » (١٤٨/١٠) : « إسناده حسن » .
قلت : سماع الحسن بن موسى الأثيب من ابن لهيعة بعد الاختلاط .
قال ابن كثير فى « مسند الفاروق » (٦٤٩/٢) :
« قال الإمام على بن المدينى : الحسن بن موسى إنما سمع من ابن لهيعة بآخره » .
وبكر بن عمرو هو المعافى المصرى ، فيه جهالة .

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء ،
 ياربّ يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى
 بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك؟» (٧).

وذكر عبد الله بن الإمام أحمد فى كتاب «الزهد» لأبيه:

أصاب بنى إسرائيل بلاء ، فخرجوا مخرجاً ، فأوحى الله عز وجل
 إلى نبيهم أن أخبرهم: أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة ، وترفعون
 إلى أكفأ سفكتكم بها الدماء ، وملأتم بها بيوتكم من الحرام ، الآن حين اشتد
 غضبى عليكم ؟ ولن تزدادوا منى إلا بعداً (٨).

وقال أبو ذر : يكفى من الدعاء مع البر ، ما يكفى الطعام من

الملح (٩).



[٧] يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا..

حديث صحيح .

رواه الإمام أحمد (٣٢٨/٢) ، ومسلم (٧٠٣/٢) ، والترمذى (٢٩٨٩) من طريق:
 فضيل بن مرزوق ، عن عدى بن ثابت ، عن أبى حازم ، عن أبى هريرة به.

[٨] أَصَابَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَلَاءٌ.....

أثر ضعيف.

رواه أبو داود فى «الزهد» (١٣)، والبيهقى فى «شعب الإيمان» (٣٤٩/٣) من طريق:
 سيار بن حاتم ، عن جعفر بن سليمان ، عن مالك بن دينار به.

وسنده ضعيف لضعف سيار ، وجعفر فيه لين.

[٩] يكفى من الدعاء مع البر..

أثر ضعيف ، وهو حسن بنحوه عن محمد بن واسع.

رواه الإمام أحمد فى «الزهد» (ص: ١٤٦) ، ومن طريقه أبو نعيم فى «الحلية»
 (١/١٦٤) ، وابن المبارك فى «الزهد» (٣١٩) من طريق : عبيد الرحمن بن فضالة ، عن

=

بكر بن عبد الله ، عن أبى ذر - رضى الله عنه - به.

فصل

الدعاء من أنفع الأدوية

والدعاء من أنفع الأدوية ، وهو عدو البلاء ، يدفعه ويعالجه ، ويمنع نزوله ، ويرفعه ، أو يخففه إذا نزل ، وهو سلاح المؤمن .

كما روى الحاكم في « صحيحه » من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

«الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين، ونور السماوات والأرض» (١٠)

=قلت : عبيد الرحمن - (وتصحف عند بعضهم إلى عبد الرحمن) - بن فضالة ذكره ابن حبان في « الثقات » (٩٢/٧) ، وهو متساهل ، فالأقرب أنه مجهول الحال ، وكذلك فرواية بكر بن عبد الله وهو المزني عن أبي ذر مرسلة ، وهو قول أبي حاتم .
وقد روى نحوه عن محمد بن واسع أنه قال :

يكفي من الدعاء مع الورع اليسير كما يكفى القدر من الملح .

أخرجه الفسوى في « المعرفة » (٢٥٣/٢) ، ومن طريقه البيهقي في « الشعب » (١١٠٩) :
حدثني سعيد بن أسد ، حدثنا ضمرة ، عن ابن شوذب ، قال : قال محمد بن واسع .
قلت : سعيد بن أسد هو ابن موسى المعروف بـ « أسد السنة » ذكره ابن حبان في « ثقاته » ، وأورده ابن أبي حاتم في « الجرح والتعديل » ، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً ، إلا رواية أبي زرعة عنه .

ولكن رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٥٣/٢) من طريق : هارون بن معروف ، قال :
حدثنا ضمرة ، عن ابن شوذب ، قال : سمعت محمد بن واسع يقول : رأيت يكفى من الدعاء من الورع اليسير .

وسنده حسن .

[١٠] الدعاء سلاح المؤمن ..

حديث موضوع .

أخرجه ابن عدى (٢١٨١/٦) ، والحاكم (٤٩٢/١) ، والقضاعي في « الشهاب » (١٤٣) ، وعبد الغنى المقدسى في « الترغيب فى الدعاء » (ق : ٨١/ب) =

□ للدعاء مع البلاء مقامات.

* وله مع البلاء ثلاثة مقامات:

أحدها : أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني : أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء ، فيصاب به العبد ولكن قد يخففه ، وإن كان ضعيفاً.

الثالث : أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه.

وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ :

« لا يغنى حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة » (١١).

= (رقم: ١٠ منسوختي) من طريق : الحسن بن حماد الكوفى ، عن محمد بن الحسين بن أبى يزيد ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده ، عن على بن أبى طالب به . وفيه محمد بن الحسن بن أبى يزيد الهمداني ، قال ابن معين : « قد سمعنا منه ، ولم يكن بثقة » ، وقال مرة : « يكذب » ، وقال النسائي : « متروك » ، وكذبه أبو داود . ورواية على بن الحسين عن على بن أبى طالب - رضي الله عنه - مرسل . وقد اختلف في رواية هذا الحديث ، وقد ذكرت ذلك الاختلاف وبيان الراجح منه في تحقيقى لأحاديث كتاب « الترغيب فى الدعاء » لعبد الغنى المقدسى .

[١١] لا يغنى حذر من قدر..

حديث ضعيف جداً.

رواه البزار فى « مسنده » (زوائد : ٢٦٤) ، والطبرانى فى « الأوسط » (مجمع : ١٠٤٦/١) ، وفى « الدعاء » (٣٣) ، والحاكم (٤٩٢/١) من طريق : عبد الله بن عبد الوهاب الحجبى ، عن زكريا بن منظور ، عن عطاء الشامى ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة به .

=

وفيه أيضاً من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ ، قال :

« الدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل ، فعليكم عباد الله بالدعاء » (١٢).

وفيه أيضاً من حديث ثوبان عن النبي ﷺ :

« لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل لَيُحْرَمَ الرزق بالذنب يصيبه » (١٣).



= قلت : وهذا سند ضعيف جداً ، فزكريا بن منظور متروك واهى الحديث ، وعطاف الشامي مجهول كما وصفه الذهبي في الميزان ، وروايته عن هشام بن عروة منكرة ، فإن باقى أصحاب هشام لم يشاركوه فى هذا الخبر .
وقد توسعت فى الكلام على هذا الحديث وذكر شواهده فى تحقيقى لأحاديث «الترغيب فى الدعاء» (٥).

[١٢] الدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل..
حديث ضعيف جداً .

رواه الترمذى (٣٥٤٨) ، والحاكم (٤٩٣/١) من طريق :
يزيد بن هارون ، عن عبد الرحمن بن أبى بكر القرشى الملىكى ، عن موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر به .
قال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر القرشى ، وهو ضعيف فى الحديث ضعفه بعض أهل العلم من قبل حفظه » .
قلت : يشير بذلك إلى نكاته لتفرد عبد الرحمن بن أبى بكر به ، وعبارة الترمذى لطيفة فى ترجيح الرواة شأنه شأن شيخه البخارى - رحمه الله - .
وعبد الرحمن هذا واهى الحديث ، قال النسائى : « ليس بثقة » ، وقال مرة : « متروك » ، وقال أحمد : « منكر الحديث » ، وقد تعقب الذهبي الحاكم فى سكوته على هذا الحديث بقوله : « قلت : عبد الرحمن واه » .

[١٣] لا يرد القدر إلا الدعاء..
حديث ضعيف .

رواه الإمام أحمد (٢٧٧/٥ و ٢٨٠ و ٢٨٢) ، والنسائى فى « الكبرى » (تحفة: ٣٣/٢) مختصراً ، وابن ماجه (٤٠٢٢ و ٩٠) ، وابن حبان فى « صحيحه » (موارد: ١٠٩٠) =

فصل

الإلحاح فى الدعاء

ومن أنفع الأدوية : الإلحاح فى الدعاء.

وقد روى ابن ماجة فى «سننه» من حديث أبى هريرة قال :

قال رسول الله ﷺ :

« من لم يسأل الله يغضب عليه » (١٤).

= والطحاوى فى « مشكل الآثار » (١٦٩/٤) ، والحاكم (٤٩٣/١) ، وأبو نعيم فى « أخبار أصبهان » (٤٣٤/١-٤٣٥) من طريق : سفيان الثورى ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الله بن أبى الجعد ، عن ثوبان به .

قلت : عبد الله بن أبى الجعد ذكره ابن حبان فى « الثقات » ، وقال الذهبى فى « الميزان » متعقباً ابن حبان « وإن كان قد وثق ففيه جهالة » .

قلت : وهو على ما ذكر ، وروايته عن ثوبان معنعة ، فالله أعلم بحال هذا السند من حيث الاتصال ، وللحديث طرق أخرى واختلاف فى روايته ذكرتها فى تحقيقى لأحاديث « الترغيب فى الدعاء » (١٢) .

[١٤] من لم يسأل الله يغضب عليه .

حديث حسن .

رواه الإمام أحمد (٤٤٣/٢ و ٤٧٧) ، والترمذى (٣٣٧٣) ، وابن ماجة (٣٨٢٧) ، وابن عدى فى « الكامل » (٢٧٥٠/٧) من طريق : أبى المليح ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة به .

قلت : أبو صالح هو الخوزى ضعفه ابن معين ، وقال أبو زرعة : « ليس به بأس » ، والتعديل مقدم على الجرح المبهم ، والله أعلم .

وفى « صحيح الحاكم » من حديث أنس، عن النبي ﷺ :

« لا تعجزوا في الدعاء ، فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد » (١٥).

وذكر الأوزاعي ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ : « إن الله يحب الملحين في الدعاء » (١٦).

[١٥] لا تعجزوا في الدعاء..

حديث ضعيف جداً.

رواه ابن حبان (موارد: ٢٣٩٨) من طريق : هوزة بن خليفة ، حدثنا عمرو - أو عمر - ابن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، عن ثابت ، عن أنس به .
ورواه الحاكم (٤٩٣/١) من طريق : معلى بن أسد العمى ، حدثني عمرو بن محمد الأسلمى ، عن ثابت البناني ، عن أنس به .

قال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه ».

فتعقبه الذهبي بقوله : « لا أعرف عمراً ، تعبت عليه ».

قلت : إنما هو عمر بن محمد بن صهيبان الأسلمى ، ومن سماه عمراً خطأ ، ومن نسبه إلى زيد بن عبد الله خطأ كذلك .

فقد أخرج هذا الحديث العقيلي في « الضعفاء » (١٨٨/٣) عن جده ، قال : حدثنا معلى بن أسد ، فذكره ، وسماه « عمر بن محمد ».

وكذا رواه ابن عدى في « الكامل » (١٦٧٤/٥) من طريق : يعلى بن راشد عنه .

قلت : وعمر بن محمد الأسلمى هذا ضعيف جداً ، وتفرد به هذا الخبر عن ثابت منكر ، ولا يحتمل منه .

قال البخارى : « منكر الحديث » ، وقال أحمد : « لم يكن بشيء » ، أدركته فلم أسمع منه ، وقال النسائي : « متروك » ، وقال العقيلي فى خبره هذا : « لا يتابع عليه ، ولا يعرف إلا به ».

[١٦] إن الله يحب الملحين في الدعاء.

حديث موضوع.

رواه ابن عدى (٢٦٢١/٧) ، والعقيلي فى « الضعفاء » (٤٥٢/٤) من طريق :

بقية بن الوليد ، حدثنا يوسف بن السفر ، عن الأوزاعي ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة به .

=

وفى كتاب « الزهد » للإمام أحمد عن قتادة ، قال : قال مورك :
ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجلاً فى البحر على خشبة ، فهو يدعو :
يارب .. يارب ، لعل الله عزوجل أن ينجيه (١٧).



فصل

من آفات الدعاء

* ومن الآفات التى تمنع ترتب أثر الدعاء عليه :

أن يستعجل العبد ، ويستبطئ الإجابة ، فيستحسر ويدع الدعاء ،
وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً ، فجعل يتعاهده ويسقيه ، فلما
استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله.

= قلت : وهذا سند تالف ، والحديث موضوع ، والمتهم به يوسف بن السفر ، قال
فيه الدارقطنى : « متروك يكذب » ، وقال النسائى : « ليس بثقة » ، وقال أبو زرعة : « متروك » ،
وقال البيهقى : « هو فى عداد من يضع الحديث ».

وأما بقية فهو صدوق صاحب تدليس وتسوية ، وكان يروى هذا الحديث - كما ذكر
ابن عدى والعقلى - فى بعض الأحايين مدلساً عن الأوزاعى .

وقد اختلف فى سند هذا الخبر ، فرواه عيسى بن يونس ، عن الأوزاعى قال :
كان يقال : أفضل الدعاء الإلحاح على الله - تبارك وتعالى - والتضرع إليه .
رواه العقلى من طريق : سنيذ بن داود ، حدثنا عيسى به .

وقال : « حديث عيسى بن يونس أولى ».

قلت : سنيذ بن داود ضعيف الحديث ، ولكنه توبع عند البيهقى فى « الشعب »
(١٠٧٢).

[١٧] ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا ..

صحيح إلى قتادة بن دعامة.

رواه أحمد فى « الزهد » (٣٠٥) ، ومن طريقه البيهقى فى « الشعب » (١٠٧٤) بسند

صحيح إلى قتادة ، ولا أعرف هل يصح لقتادة سماع من مورك أم لا ؟

وفى «صحيح البخارى» من حديث أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال :
 «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول دعوت فلم يُستجب لى» (١٨)
 وفى «صحيح مسلم» عنه : « لا يزال يُستجاب للعبد ، ما لم يدعْ
 بإثم أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل ». قيل : يا رسول الله وما
 الاستعجال؟ قال : « يقول قد دعوت وقد دعوت ، فلم أر يستجاب لى ،
 فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء» (١٩).

وفى «مسند أحمد» من حديث أنس، قال : قال رسول الله ﷺ :
 « لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل » ، قالوا : يا رسول الله ، كيف
 يستعجل ؟ قال : « يقول : قد دعوت ربى فلم يستجب لى » (٢٠).

[١٨] يستجاب لأحدكم ما لم يعجل..

حديث صحيح.

أخرجه الإمام مالك فى «الموطأ» (٢١٣/١) عن الزهرى ، عن أبى عبيد مولى ابن
 أزهر، عن أبى هريرة به.
 ومن طريقه : الإمام أحمد (٤٨٧/٢) ، والبخارى (١٠٤/٤) ، ومسلم (٢٠٩٥/٤) ، وأبو
 داود (١٤٨٤) ، والترمذى (٣٣٨٧) ، وابن ماجه (٣٨٥٣) ، والطبرانى فى «الدعاء» (٨٣).
 [١٩] لا يزال يُستجاب للعبد...

حديث صحيح.

رواه البخارى فى «الأدب المفرد» (٦٥٥) ، ومسلم (٢٠٩٦/٤) من طريق : أبى
 إدريس الخولانى ، عن أبى هريرة به.

[٢٠] لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل ..

ضعيف من هذا الوجه.

رواه الإمام أحمد (٢١٠ و ١٩٣/٣) ، وابن عدى (٢٢١٩/٦) ، والطبرانى فى
 «الدعاء» (٨١) من طريق : أبى هلال الراسى ، عن قتادة ، عن أنس به.
 وأبو هلال هو محمد بن سليم ، صدوق فيه لين ، ويخالف فى قتادة ، وقد تفرد بهذا
 الخبر عن قتادة ، فروايته هذه منكرة ، ولكن يشهد للحديث ما تقدم.

فصل

أوقات الإجابة

* وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب ،
وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة ، وهي :

الثلاث الأخير من الليل ، وعند الأذان ، وبين الأذان والإقامة ، وأدبار
الصلوات المكتوبات ، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى
ال صلاة من ذلك اليوم ، وآخر ساعة بعد العصر .

وصادف خشوعاً فى القلب ، وانكساراً بين يدى الرب ، وذلك له
وتضرعاً ورقة .

واستقبل الداعى القبلة ، وكان على طهارة ، ورفع يديه إلى الله ، وبدأ
بحمد الله والثناء عليه ، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ ، ثم
قدم بين يدى حاجته التوبة والاستغفار ، ثم دخل على الله ، وألح عليه فى
المسألة ، وتملقه ، ودعاه رغبة ورهبة ، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده .
وقدم بين يدى دعائه صدقة : فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبداً ، ولا
سيما إن صادف الأدعية التى أخبر النبى ﷺ أنها مظنة الإجابة ، أو أنها
متضمنة للاسم الأعظم .

□ أدعية مأثورة

* فمنها ما فى «السنن» وفى «صحيح ابن حبان» من حديث عبد الله
بن بريدة، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : اللهم إنى أسألك
بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم
يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فقال : «لقد سأل الله بالاسم الذى إذا سئل

به أعطى ، وإذا دُعى به أجاب».

وفى لفظ: «لقد سألت الله باسمه الأعظم» (٢١).

وفى «السنن» و«صحيح ابن حبان» - أيضاً - من حديث أنس بن مالك، أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً ورجل يصلى ، ثم دعا فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ : «لقد دعا الله باسمه العظيم ، الذى إذا دُعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى» (٢٢).

[٢١] لقد سأل الله بالاسم الذى ..

حديث صحيح.

رواه ابن أبى شيبه (٤٧/٦)، والإمام أحمد (٣٦٠ و ٣٤٩/٥)، وأبو داود (١٤٩٣ و ١٤٩٤)، والترمذى (٣٤٧٥)، والنسائى فى «الكبرى» (تحفة: ٩٠/٢)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وابن حبان (موارد: ٢٣٨٣)، والحاكم (٥٠٤/١)، والطبرانى فى «الدعاء» (١١٤)، وعبد الغنى المقدسى فى «الترغيب فى الدعاء» (٥٤: منسوختى) من طريق : مالك بن مغول ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه به.

وصححه الحاكم على شرطهما ، ووافقه الذهبى .

قلت : وهو صحيح ، وقد اختلف فيه على عبد الله بن بريدة ، وانظر تفصيل ذلك فى تحقيقنا على كتاب «الترغيب فى الدعاء».

[٢٢] لقد دعا الله باسمه العظيم..

حديث حسن.

وله طرق عن أنس - ذكرتها فى «الترغيب فى الدعاء» - أجودها:

ما رواه ابن أبى شيبه (٤٧/٦)، وابن ماجه (٣٨٥٨) من طريق:

وكيع ، حدثنا أبو خزيمة ، عن أنس بن سيرين ، عن أنس بن مالك به.

وأبو خزيمة صدوق حسن الحديث ، قال أبو حاتم : «لا بأس به» ، وذكره ابن حبان فى

«الثقات».

وأخرج الحديثين الإمام أحمد في « مسنده » .

وفي « جامع الترمذى » من حديث أسماء بنت يزيد:

أن النبي ﷺ ، قال:

« اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين:

﴿واللهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ (البقرة: ١٦٣).

وفاتحه آل عمران : ﴿ألم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾ «

قال الترمذى : « هذا حديث صحيح » (٢٣).

وفى « مسند الإمام أحمد » و « صحيح الحاكم » من حديث أبى هريرة،

وأنس بن مالك، وربيعة بن عامر، عن النبي ﷺ أنه قال : «أظفوا بياذا

الجلال والإكرام» (٢٤)، يعنى تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها.

[٢٣] اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين..

حديث ضعيف من هذا الوجه.

رواه ابن أبى شيبة (٤٧/٦) ، وأحمد (٤٦١/٦) ، وأبو داود (١٤٩٦) ، والترمذى

(٣٤٧٨) ، وابن ماجه (٣٨٥٥) ، والدارمى (٣٣٨٩) ، والطبرانى فى « الكبير »

(١٧٤/٢٤-١٧٥) ، وفى « الدعاء » (١١٣) من طرق عن : عبيد الله بن أبى زياد ، عن

شهر بن حوشب، عن أسماء به.

قال الترمذى : « حسن صحيح ».

قلت : باعتبار العمل لثبوت ما يؤيد ذلك ، أما هذا الإسناد فضعيف لضعف عبيد الله

ابن أبى زياد ، فإنه صاحب مناكير ، لا يحتج به إذا تفرد.

[٢٤] أظفوا بياذا الجلال والإكرام .

صحيح من حديث ربيعة بن عامر بن بجاد.

رواه الإمام أحمد (١٧٧/٤) ، والبخارى فى « التاريخ الكبير » (٢٨٠/١/٢) ، والنسائى

فى « الكبير » (تحفة: ١٦٧/٣) ، والطبرانى فى « الكبير » (٦٤/٥) ، وفى « الدعاء » (٩٢) ،

والحاكم (٤٩٨/١) من طرق عن : عبد الله بن المبارك ، عن يحيى بن حسان ، عن ربيعة

=

وفى «جامع الترمذى» من حديث أبى هريرة رضى الله عنه :
أن النبى ﷺ كان إذا أهمه الأمر رفع رأسه إلى السماء ، وإذا اجتهد
فى الدعاء قال : «يا حى يا قيوم» (٢٥).

وفيه أيضاً من حديث أنس بن مالك ، قال : كان النبى ﷺ إذا حزبه
أمر قال : «يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث» (٢٦).

= وسنده صحيح.

وأما حديث أبى هريرة وحديث أنس - رضى الله عنهما - فضعيفان ، وقد توسعت فى
الكلام عليهما فى «الترغيب فى الدعاء» (٦٤).

[٢٥] يا حى يا قيوم.

حديث ضعيف جداً .

رواه الترمذى (٣٤٣٦) من طريق : إبراهيم بن الفضل الخزومى ، عن سعيد المقبرى ،
عن أبى هريرة به .

ولكن لفظه ، كان إذا أهمه الأمر رفع رأسه إلى السماء ، فقال : «سبحان الله العظيم» ،
وإذا اجتهد فى الدعاء ، قال : «يا حى يا قيوم» .

قال الترمذى : «هذا حديث غريب» .

كذا فى «تحفة الأشراف» ، وفى «المطبوعة» : «حسن غريب» ، والأول أصح ، فهذا
الجزء من المطبوعة فيه تصحيفات وتحريفات وسقط كثير .

قلت : وفى سند الترمذى إبراهيم بن الفضل الخزومى ، وهو واه ، قال ابن معين : «ليس
حديثه بشيء» ، وقال البخارى : «منكر الحديث» ، ومثله عن النسائى وغيره ، وقال
الدارقطنى : «متروك» .

[٢٦] يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث .

منكر بهذا السياق .

رواه الترمذى (٣٥٢٤) من طريق : يزيد الرقاشى ، عن أنس به .

وقال الترمذى : «هذا حديث غريب» .

قلت : قد تفرد به يزيد عن أنس بهذا اللفظ ، ويزيد ضعيف .

ولكن أخرجه الطبرانى فى «الدعاء» (٩١) بسند حسن ، عن قتادة ، عن أنس ، قال :

= كان النبى ﷺ يدعو : «يا حى يا قيوم» .

وفى «صحيح الحاكم» من حديث أبى أمامة، عن النبى ﷺ ، أنه قال :
«اسم الله الأعظم فى ثلاث سور من القرآن : البقرة ، وآل
عمران ، وطه» (٢٧) وقال القاسم : فالتستها فإذا هى آية ﴿الحى القيوم﴾ .
وفى «جامع الترمذى» و«صحيح الحاكم» من حديث سعد بن أبى
وقاص، عن النبى ﷺ قال : « دعوة ذى النون ، إذ دعا وهو فى بطن
الحوت ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ (الأنبياء: ٨٧) .
إنه لم يدع بها مسلم فى شئ قط إلا استجاب الله له » (٢٨) .

قال الترمذى : «حديث صحيح» .

= وله شاهد من حديث ابن مسعود:

أن النبى ﷺ إذا نزل به كرب ، قال : يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث .
أخرجه البيهقى فى « الشعب » (١٠٢٣١/٢٥٨/٧) - دار الكتب العلمية -
وفيه عبد الرحمن بن إسحاق بن سعد ، وهو ضعيف ، وقد اضطرب فى روايته ،
فأرسله تارة ، ووصله تارة أخرى ورجح البيهقى إرساله ، والله أعلم .
[٢٧] اسم الله الأعظم فى ثلاث سور ..

منكر

رواه ابن معين فى « التاريخ » برواية الدورى (٤/٤٢٠) ، وابن ماجه (٣٨٥٦) ،
والفريابى فى « فضائل القرآن » (٤٧) ، والطحاوى فى « المشكل » (٦٣/١) ، وتام فى
« الفوائد » (الروض : ١٥٦٨) ، والطبرانى فى « الكبير » (٢٨٢/٨) ، وفى « مسند
الشاميين » (٧٧٨) ، والحاكم (٥٠٥/١) من طرق : عن العلاء بن عبد الله بن زبر ، عن
القاسم أبى عبد الرحمن ، عن أبى أمامة به .

قلت : وهذا سند منكر ، فإن القاسم هذا لين صاحب مناكير ، الحمل فيها عليه .
وقد اختلف فى هذا الحديث على الرفع والقطع على القاسم ، والأصح الرفع لشواهد
ليس هذا محل بسطها .

[٢٨] دعوة ذى النون ...

حديث صحيح .

= رواه الإمام أحمد (١٧٠/١) - وفى أوله قصة - حدثنا إسماعيل بن عمر .

وفى « مستدرک الحاکم » أيضاً من حديث سعد عن النبى ﷺ :
« ألا أخبركم بشىء إذا نزل برجل منكم أمر مهم فدعا به يفرج
الله عنه ، دعاء ذى النون » (٢٩).

= ورواه الترمذى (٣٥٠٥) ، والنسائى فى « اليوم والليلة » (٦٦١) ، والحاکم
(١/٥٠٥/٢/٣٨٢) من طريق : محمد بن يوسف الفريابى .

وكذلك الحاکم (٥٨٣/٢) من طريق : محمد بن عبيد الطنافسى .
كلهم عن : يونس بن أبى إسحاق ، عن إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبى وقاص ، عن
أبيه - (وفى بعض الروايات التصريح بالسماح من أبيه) ، عن سعد به .
وصححه الحاکم ، ووافقه الذهبى .
وهو كما قال .

ولكن قال الترمذى : « وقد روى غير واحد هذا الحديث عن يونس بن أبى إسحاق ،
عن إبراهيم بن محمد بن سعد ، عن سعد ، ولم يذكر فيه أبيه .
وروى بعضهم عن يونس بن أبى إسحاق فقالوا : عن إبراهيم بن محمد بن سعد ، عن
أبيه ، عن سعد ، وكان يونس بن أبى إسحاق ربما ذكر فى هذا الحديث عن أبيه ، وربما لم
يذكره » .

قلت المحفوظ الوصل ، لأنه رواية الأكثر ، وفى بعض الروايات تصريح إبراهيم بن
محمد بالسماح من أبيه .

[٢٩] ألا أخبركم بشىء إذا نزل برجل منكم
سنده ضعيف ، والحديث صحيح بما قبله .

أخرجه النسائى فى « اليوم والليلة » (٦٦٠) ، والحاکم (١/٥٠٥) من طريق : محمد بن
مهاجر القرشى ، عن إبراهيم بن محمد بن سعد بالسند الذى قبله .

قلت : محمد بن مهاجر ضعيف الحديث ، قال البخارى : « لا يتابع على حديثه » .
ولكن المتن صحيح بالأسانيد السابق ذكرها .

وفى « صحيحه » أيضاً عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول :
 « هل أدلكم على اسم الله الأعظم؟ دعاء يونس » ، قال رجل : يا
 رسول الله هل كانت ليونس خاصة؟ فقال : « ألا تسمع قوله تعالى :
 ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾
 (الأنبياء: ٨٨)

فأيما مسلم دعا بها فى مرضه أربعين مرة فمات فى مرضه ذلك
 أعطى أجر شهيد ، وإن برئ برئ مغفوراً له» (٣٠).

وفى « الصحيحين » من حديث ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ كان
 يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب
 العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض ورب
 العرش الكريم » (٣١).

[٣٠] هل أدلكم على اسم الله الأعظم.....

حديث موضوع.

أخرجه الحاكم فى « المستدرک » (١/٥٠٥-٥٠٦) من طريق : أحمد بن عمرو بن بكر
 السكسكى ، عن أبيه ، عن محمد بن زيد (وتصحفت إلى يزيد) وهو ابن المهاجر ، عن
 ابن المسيب ، عن سعد بن مالك وهو سعد بن أبى وقاص به.

قلت : وهذا حديث منكر موضوع ، آفته عمرو بن بكر السكسكى ، قال ابن حبان :
 « يروى عن الثقات الأوابد والطامات التى لا يشك من هذا الشأن صناعته أنها معمولة أو
 مقلوبة ، لا يحل الاحتجاج به » ، وقال ابن عدى : « له أحاديث مناكير عن الثقات » ،
 وقال الذهبى : « واه » ، وقال : « أحاديثه شبه موضوعة ».

[٣١] لا إله إلا الله العظيم الحليم..

حديث صحيح.

رواه الإمام أحمد (١/٢٢٨ و ٢٥٩ و ٢٨٤ و ٣٣٩) ، والبخارى (٤/١٠٥) ، ومسلم
 (٤/٢٠٩٢) ، والترمذى (٣٤٣٥) ، والنسائى فى « الكبرى » (تحفة: ٤/٣٨٥) ، وفى « عمل
 اليوم والليلة » (٦٥٨) ، وابن ماجه (٣٨٨٣) من طريق : قتادة ، عن أبى العالية ، عن ابن
 عباس به.

وفى «مسند الإمام أحمد» من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : علمنى رسول الله ﷺ إذا نزل بى كرب أن أقول :

« لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين » (٣٢).

وفى «مسنده» أيضاً من حديث عبد الله بن مسعود، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن ، فقال : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهب همى إلا أذهب الله عز وجل همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحاً » فقيل : يا رسول الله ، ألا نتعلمها ؟ قال : « بلى ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » (٣٣).

[٣٢] لا إله إلا الله الحليم الكريم..

حديث صحيح.

رواه الإمام أحمد (٩٤ و ٩١/١) ، والنسائى فى « اليوم والليلة » (٦٣٦ و ٦٣٧) ، وابن حبان (موارد : ٢٣٧١) ، والحاكم (٥٠٨/١) من طريق : محمد بن عجلان ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن عبد الله بن شداد ، عن عبد الله بن جعفر ، عن على بن أبى طالب به.

وسنده صحيح ، وله طريق آخر عند النسائى فى « اليوم والليلة ».

[٣٣] ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن..

حديث منكر.

رواه ابن أبى شيبه (٤٠/٦) ، والإمام أحمد (٤٥٢ و ٣٩١/١) ، والحاثر بن أبى أسامة فى « مسنده » (بغية الباحث : ١٠٦٣) ، وابن حبان (موارد : ٢٣٧٢) ، والحاكم =

.....
= (٥٠٩/١) ، والطبراني في « الكبير » (٢١٠/١٠) ، وفي « الدعاء » (١٠٣٥) من طرق :
عن فضيل بن مرزوق ، حدثنا أبو سلمة الجهني ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ،
عن ابن مسعود به .

قال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله
عن أبيه ، فإنه مختلف في سماعه عن أبيه » .

فتعقبه الذهبي بقوله : « وأبو سلمة لا يدري من هو ، ولا رواية له في الكتب الستة » .
قلت : وهو كما قال ، ولكن رجح العلامة أحمد شاكر الوصل ، وذهب إلى أن أبا
سلمة هذا هو موسى بن عبد الله الجهني ، وتبعه على ذلك العلامة الألباني - حفظه الله -
وفيه نظر ، فثمة فرق بين مجرد اللقاء ، أو السماع العري عن سماع الحديث ، وبين ثبوت
سماع الحديث من الشيخ ، وقد بينا ذلك في « الاصطلاح بين المتقدمين والمتأخرين » من
كتابنا « تقريب جامع الترمذي » ، هذا من جهة الاتصال .

وأما من جهة تعيين اسم أبي سلمة الجهني فالتصريح في أحد الأحاديث بأنه موسى
الجهني ليس بدليل كافٍ على أنه موسى بن عبد الله الجهني .

وخصوصاً أن الحديث الذي احتج به الألباني على ذلك في « الصحيحة » (٣٣٥/١)
من طريق : عمر بن علي المقدمي ، قال : سمعت موسى الجهني يقول : أخبرني القاسم
بالسند السابق وبحديث : من نسي أن يذكر الله في أول طعامه .. الحديث .

فهو لم يصرح باسمه وكنيته معاً وإنما سمي الراوي عن القاسم ، ولا يلزم أن يكون هو
نفسه الذي روى عنه فضيل بن مرزوق حديث ابن مسعود هذا .

وثمة علة أخرى في هذا الحديث وهي : تفرد فضيل بن مرزوق به ، وهو إن وثقه
بعض أهل العلم ، إلا أن البعض الآخر جرحه بما يدل على أن حاله لا تحتمل التفرد بمثل
هذا الحديث ، ولا يقدح في تفرده ما روى ابن السني في « اليوم والليلة » (٣٤٢) من طريق :

عبد الرحمن بن إسحاق بن سعد ، عن القاسم به .
فإن عبد الرحمن هذا واه ، قال ابن معين « ليس بشيء » ، وقال البخاري : « فيه نظر »
أي أنه متهم ، وقال أبو حاتم : « ضعيف الحديث ، منكر الحديث ، يكتب حديثه ولا يحتج
به » .

قال ابن مسعود : ما كرب نبي من الأنبياء ، إلا استغاث بالتسبيح .
وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب «المجاين» ، وفي «الدعاء» عن الحسن ،
قال :

كان رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار يكنى أبا معلق ، وكان
تاجراً يتجر بمال له ولغيره ، ويضرب به في الآفاق ، وكان ناسكاً ورعاً
فخرج مرة فلقية لص مقنع في السلاح ، فقال له : ضع ما معك ، فيأني
قاتلك ، قال : ما تريد من دمي ؟ شأئك بالمال ، قال : أما المال فلي ،
ولست أريد إلا دمك ، قال : أما إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات ،
قال : صل ما بدا لك ، فتوضأ ثم صلى أربع ركعات ، فكان من دعائه في
آخر سجوده أن قال : ياودود ياودود ، ياذا العرش المجيد يافعالا لما تريد ،
أسألك بعزك الذي لا يرام ، وبملكك الذي لا يضام ، وبنورك الذي ملأ
أركان عرشك : أن تكفيني شر هذا اللص ، يامغيث أغثنى ، ثلاث مرات ،
فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه ، فلما بصر به
اللص أقبل نحوه ، فطعنه فقتله ثم أقبل إليه ، فقال : قم ، فقال : من أنت
بأبي أنت وأمي ؟ فقد أغاثني الله بك اليوم ، فقال : أنا ملك من أهل السماء
الرابعة دعوت بدعائك الأول فسمعت لأبواب السماء قعقعة ، ثم دعوت
بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجة ، ثم دعوت بدعائك الثالث ،
فقل لي دعاء مكروب ، فسألت الله أن يوليني قتله ، قال الحسن : فمن
توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروباً كان أو
غير مكروب» (٣٤).

□ □ □

[٣٤] كان رجل من أصحاب النبي ﷺ ..

أثر منكر .

=

رواه ابن أبي الدنيا في «مجاوب الدعوة» (٢٣):

فصل ظروف الدعاء

وكثيراً ما تجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم ، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه ، وإقباله على الله ، أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنه ، أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك فأجيب دعوته ، فيظن الظان أن السر في لفظ ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي ، وهذا كما إذا استعمل رجل دواءً نافعاً في الوقت الذي ينبغي استعماله على الوجه الذي ينبغي ، فانتفع به ، فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرد كافي في حصول المطلوب ، كان غلطاً ، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس .

ومن هذا أنه قد يتفق دعاؤه باضطراب عند قبر فيظن الجاهل ، أن السر للقبر ، ولم يعلم أن السر للاضطراب وصدق اللجأ إلى الله ، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله ، كان أفضل وأحب إلى الله .



= حدثنا عيسى بن عبد الله التميمي ، أخبرني فهير بن زياد الأسدي ، عن موسى بن وردان ، عن الكلبي وليس بصاحب التفسير ، عن الحسن ، عن أنس به .
ومن طريقه عبد الغني المقدسي في « الترغيب في الدعاء » (٦١ : منسوخة) .
قلت : وهذا سند ضعيف ، موسى بن وردان ضعيف على التحقيق ، وفي الإسناد من لم أعرفه .

فصل

شروط الدعاء المستجاب

* والأدعية والتعوذات : بمنزلة السلاح ، والسلاح بضاربه ، لا بحدده فقط ، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به ، والساعد ساعد قوى ، والمانع مفقود حصلت به النكاية فى العدو ، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة ، تخلف التأثير ، فإذا كان الدعاء فى نفسه غير صالح ، والداعى لم يجمع بين قلبه ولسانه فى الدعاء ، أو كان ثم مانع من الإجابة ، لم يحصل الأثر .



فصل

الدعاء والقدر

* وههنا سؤال مشهور ، وهو :

أن المدعو به إن كان قد قدر لم يكن بد من وقوعه ، دعا به العبد أو لم يدع ، وإن لم يكن قد قدر لم يقع ، سواء سأله العبد أو لم يسأله .

فظنت طائفة صحة هذا السؤال ، فتركت الدعاء ، وقالت : لا فائدة فيه ، وهؤلاء مع فرط جهلهم وضلالهم متناقضون ، فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب ، فيقال لأحدهم :

إن كان الشبع والرى قد قدرا لك فلا بد من وقوعهما ، أكلت أو لم تأكل ، وإن لم يقدر لم يقعا أكلت أو لم تأكل .

وإن كان الولد قد قدر لك فلا بد منه ، وطئت الزوجة أو الأمة أو لم تطأ ، وإن لم يقدر ذلك لم يكن ، فلا حاجة إلى التزوج والتسرى ، وهلم جرا .

فهل يقول هذا عاقل أو آدمي؟! بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته ، فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً.

* وتكاييس بعضهم ، وقال : الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب الله عليه الداعي ، من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما، ولا فرق عند هذا المتكيس بين الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب ، وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ، ولا فرق.

* وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء : بل الدعاء علامة نصبها الله سبحانه وتعالى أمانة على قضاء الحاجة ، فمتى وفق الله العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمانة على أن حاجته قد انقضت ، وهذا كما إذا رأيت غيماً أسوداً بارداً في زمن الشتاء ، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر.

قالوا : وهكذا حكم الطاعات مع الثواب والكفر والمعاصي مع العقاب ، هي أمارات محضة لوقوع الثواب ، والعقاب ، لا أنها أسباب له . وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار ، والحرق مع الإحراق ، والإزهاق مع القتل ، ليس شيء من ذلك سبباً ألبته ، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه ، إلا مجرد الاقتران العادي ، لا التأثير السببي ، وخالفوا بذلك الحس والعقل ، والشرع والفطرة ، وسائر طوائف العقلاء ، بل أضحكوا عليهم العقلاء.

* والصواب : أن ههنا قسمًا ثالثاً ، غير ما ذكره السائل ، وهو أن هذا المقدور قدر بأسباب ، ومن أسبابه الدعاء ، فلم يقدر مجرداً عن سببه ،

ولكن قدر سببه ، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور ، وهذا كما قدر الشبع والرى بالأكل والشرب ، وقدر الولد بالوطء ، وقدر حصول الزرع بالبذر ، وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه ، وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال ، ودخول النار بالأعمال ، وهذا القسم هو الحق ، وهذا الذى حُرِّمَ السائل ولم يوفق له .

❑ الدعاء من أقوى الأسباب .

وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب ، فإذا قُدِّرَ وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال : لا فائدة فى الدعاء ، كما لا يقال : لا فائدة فى الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال ، وليس شئ من الأسباب أنفع من الدعاء ، ولا أبلغ فى حصول المطلوب .

❑ عمر يستنصر بالدعاء .

ولما كان الصحابة رضى الله عنهم أعلم الأمة بالله ورسوله ﷺ وأفقههم فى دينه كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستنصر به على عدوه ، وكان أعظم جنديه ، وكان يقول لأصحابه : لستم تنصرون بكثرة ، وإنما تنصرون من السماء .

وكان يقول : إني لا أحمل همَّ الإجابة ولكن همَّ الدعاء ، فإذا ألهمتم الدعاء فإن الإجابة معه .

وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه ، فقال :

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه من جود كفيك ما دعوتنى الطالب

فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة ، فإن الله سبحانه يقول :

﴿ادعونى أستجب لكم﴾ (غافر: ٦) .

وقال : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فىانى قريب أجيب دعوة الداع
إذا دعان ﴾ (البقرة: ١٨٦).

وفى «سنن ابن ماجه» من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:
« من لم يسأل الله يغضب عليه »^(*).

وهذا يدل على أن رضاه فى سؤاله وطاعته ، وإذا رضى الرب تبارك
وتعالى فكل خير فى رضاه ، كما أن كل بلاء ومنصبة فى غضبه.
وقد ذكر الإمام أحمد فى كتاب «الزهد» أثراً :

أنا الله ، لا إله إلا أنا ، إذا رضيت باركت ، وليس لبركتى منتهى ،
وإذا غضبت لعنت ، ولعنتى تبلغ السابع من الولد^(٣٥).

وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها
وملئها ونحلها على أن التقرب إلى رب العالمين ، وطلب مرضاته ، والبر
والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير ، وأضدادها من
أكبر الأسباب الجالبة لكل شر ، فما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت
نقمته بمثل طاعته والتقرب إليه ، والإحسان إلى خلقه.

(*) سبق تخريجه برقم (١٤).

[٣٥] أنا الله لا إله إلا أنا...

صحيح .

رواه الإمام أحمد فى «الزهد» (ص: ٦٩) : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا بكار ، قال:
سمعت وهباً يقول : إن الرب تبارك وتعالى قال فى بعض ما يقول لبنى إسرائيل ، إني إذا
أطعت رضيت ، وإذا رضيت باركت ، وليس لبركتى نهاية ، وإني إذا عصيت غضبت ،
وإذا غضبت لعنت ، ولعنتى تبلغ السابع من الولد.

قلت : وهذا سند صحيح ، وشيخ عبد الرزاق هو بكار بن عبد الله اليماني ، ترجمه
ابن أبى حاتم فى «الجرح والتعديل» (٤٠٨/١/١) ، ونقل عن أبيه قوله : « هو ثقة » وكذا
عن ابن معين.

□ ارتباط الخير والشر بالعمل.

* وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات فى الدنيا والآخرة، وحصول الشرور فى الدنيا والآخرة فى كتابه على الأعمال ، ترتب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة ، والمسبب على السبب ، وهذا فى القرآن يزيد على ألف موضع.

فتارة يرتب الحكم الخبرى الكونى والأمر الشرعى على الوصف المناسب له ، كقوله تعالى : ﴿ فلما عتوا عما نُهوا عنه قلنا لهم كونوا قردةً خاسئين ﴾ (الأعراف : ١٦٦).

وقوله : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ (الزخرف : ٥٥).

وقوله : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا ﴾ (المائدة : ٣٨).

وقوله : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴾ (الأحزاب : ٣٥).

وهذا كثير جداً.

وتارة يرتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى :

﴿ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ﴾ (الأنفال : ٢٩).

وقوله تعالى : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى

الدين ﴿

(التوبة : ١١).

وقوله تعالى :

﴿وَأَلُّوا اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (الجن : ١٦).

ونظائره .

وتارة يأتي بلام التعليل كقوله :

﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (ص : ٢٩).

وقوله تعالى : ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

شَهِيدًا﴾

(البقرة : ١٤٣).

وتارة يأتي بأداة «كى» التى للتعليل ، كقوله تعالى :

﴿كى لَا يَكُونَ دَوْلَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ (الحشر : ٧).

وتارة يأتي بباء السببية ، كقوله تعالى :

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ (آل عمران : ١٨٢).

وقوله : ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة : ١٠٥).

وقوله : ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ .

وقوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (آل عمران : ١١٢).

وتارة يأتي بالمفعول لأجله ظاهراً أو محذوفاً ، كقوله تعالى :

﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا

(البقرة : ٢٨٢).

فَتَذَكَرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾

وقوله تعالى :

﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف : ١٧٢).

وقوله : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾
(الأنعام: ١٥٦).

وتارة يأتي بفاء السببية ، كقوله :

﴿ فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴾
(الشمس: ١٤)

وقوله : ﴿ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ (الحاقة: ١٠).

وقوله : ﴿ فكذبوهما فكانوا من المهلكين ﴾ (المؤمنون : ٤٨).

وتارة يأتي بأداة « لما » الدالة على الجزاء كقوله :

﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾
(الزخرف: ٥٥).
ونظائره.

وتارة يأتي بـ « إن » وما عملت فيه ، كقوله :

﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ﴾
(الأنبياء: ٩٠).
وقوله في ضد هؤلاء :

﴿ إنهم كانوا قوم سوء فأغرقتناهم أجمعين ﴾
(الأنبياء: ٧٧).

وتارة يأتي بأداة « لولا » الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها كقوله :

﴿ فقلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾
(الصافات: ١٤٣ و ١٤٤).

وتارة يأتي بـ « لو » الدالة على الشرط.

كقوله : ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم ﴾

(النساء: ٦٦)

وبالجملة : فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتيب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب ، بل ترتيب أحكام الدنيا

والآخرة ومصالحها ومفاسدها على الأسباب والأعمال.

* ومن تفقه فى هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ، ولم يتكل على القدر جهلاً منه ، وعجزاً وتفريطاً ، وإضاعة ، فيكون توكله عجزاً ، وعجزه توكلأً.

بل الفقيه كل الفقه الذى يرد القدر بالقدر ، ويدفع القدر بالقدر ، ويعارض القدر بالقدر ، بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك ، فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هى من القدر ، والخلق كلهم ساعون فى دفع هذا القدر بالقدر.

وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة ، فهذا وزان القدر المخوف فى الدنيا وما يضاده سواء ، قرب الدارين واحد ، وحكمته واحدة ، لا يناقض بعضها بعضاً ، ولا يبطل بعضها بعضاً ، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ، ورعاها حق رعايتها ، والله المستعان.

لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه.

■ التاريخ تفصيل لما جاء عن الله ورسوله فى أسباب الخير والشر

* أحدهما : يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير ، وتكون له بصيرة فى ذلك بما يشاهده فى العالم ، وما جربه فى نفسه وغيره ، وما سمعه فى أخبار الأمم قديماً وحديثاً.

* ومن أنفع ما فى ذلك تدبر القرآن ، فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه ، وفيه أسباب الخير والشر جميعاً مفصلة مبينة ، ثم السنة ، فإنها شقيقة القرآن ، وهى الوحى الثانى ، ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما ، وهما يُريَانك الخير والشر وأسبابهما ، حتى كأنك تعين ذلك

عياناً ، وبعد ذلك إذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة ، ورأيت بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به ، وعلمت من آياته في الآفاق ما يدل على أن القرآن حق ، وأن الرسول حق ، وأن الله ينجز وعده لا محالة ، فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر .

*** الأمر الثاني :** أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب ، وهذا من أهم الأمور ، فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولا بد ، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو ربه ومغفرته تارة ، وبالتسوية بالتوبة ، وبالاستغفار باللسان تارة ، وبفعل المندوبات تارة ، وبالعلم تارة ، وبالاحتجاج بالقدر تارة ، وبالاحتجاج بالأشباه والنظراء تارة ، وبالاقتداء بالأكابر تارة أخرى .



فصل

مغالطة النفس حول الانسباب

□ خطأ في فهم الاستغفار .

وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال : « أستغفر الله » زال الذنب ، وراح هذا بهذا ، وقال لى رجل من المنتسبين إلى الفقه : أنا أفعل ما أفعل ثم أقول : سبحان الله وبحمده مائة مرة ، وقد غفر ذلك أجمعه ، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال : « من قال في يوم سبحان الله وبحمده ، مائة مرة حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر » (٣٦) وقال لى آخر من أهل

[٣٦] من قال في يوم : سبحان الله وبحمده ..

حديث صحيح .

رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢٠٩/١) عن سمي ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة به =

مكة: نحن إذا فعل أحدنا ما فعل ، اغتسل وطاف بالبيت أسبوعاً وقد محى عنه ذلك ، وقال لى آخر : قد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « أذنب عبد ذنباً ، فقال : أى رب أصبت ذنباً فاغفر لى ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنباً آخر ، فقال : أى رب ، أذنبت ذنباً ، فاغفر لى ، فقال الله عز وجل : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ به ، قد غفرت لعبدى ، فليصنع ما شاء » (٣٧) قال : وأنا لا أشك أن لى رباً يغفر الذنب ويأخذ به .

وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء ، واتكل عليها وتعلق بكلتا يديه ، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمه الله ومغفرته ونصوص الرجاء ، وللجهال من هذا الضرب من الناس فى هذا الباب غرائب وعجائب ، كقول بعضهم:

وكثر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم
وقول الآخر : التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله.

وقول الآخر : ترك الذنوب جراءة على مغفرة الله.

وقال محمد بن حزم : رأيت بعض هؤلاء يقول فى دعائه : اللهم إنى أعوذ بك من العُصمة.

= ومن طريقه : الإمام أحمد (٣٠٢/٢ و ٥١٥) ، والبخارى (١١٤/٤) ، ومسلم (٢٠٧١/٤) ، والترمذى (٣٤٦٨) ، والنسائى فى « اليوم والليلة » (٨٣٢) - بنحوه - وابن ماجه (٣٨١٢) .

وبعضهم رواه مختصراً ، وبعضهم رواه مطولاً فى أوله حديث آخر.

[٣٧] أذنب عبد ذنباً ، فقال : ...

حديث صحيح.

رواه أحمد (٤٩٢/٢) ، والبخارى (٢٩٧/٤ - ٢٩٨) ، ومسلم (٢١١٢/٤) ، والنسائى فى « اليوم والليلة » (٤٢٢) من طريق : إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة ، عن عبد الرحمن بن أبى عمرة ، عن أبى هريرة به.

❑ التعلق بالجبر.

* ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبر ، وأن العبد لا فعل له ألبتة ولا اختيار ، وإنما هو مجبور على فعل المعاصي .

❑ التعلق بالإرجاء.

* ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الإرجاء ، وأن الإيمان هو مجرد التصديق ، والأعمال ليست من الإيمان ، وأن إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل .

❑ الغلو في الصالحين.

* ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين ، وكثرة التردد إلى قبورهم والتضرع إليهم ، والاستشفاع بهم ، والتوسل إلى الله بهم ، وسؤاله بحقهم عليه ، وحرمتهم عنده .

* ومنهم من يغتر بآبائه وأسلافه ، وأن لهم عند الله مكاناً وصلاًحاً ، فلا يدعوه أن يخلصوه كما يشاهد في حضرة الملوك ، فإن الملوك تهب لخواصهم ذنوب أبنائهم وأقاربهم ، وإذا وقع أحد منهم في أمر مفضعخلصه أبوه وجده بجاهه ومنزلته .

❑ الاغترار بالله.

* ومنهم من يغتر بأن الله عز وجل غنى عن عذابه ، وعذابه لا يزيد في ملكه شيئاً ، ورحمته لا تنقص من ملكه شيئاً ، فيقول : أنا مضطر إلى رحمته ، وهو أغنى الأغنياء ، ولو أن فقيراً مسكيناً مضطراً إلى شربة ماء عند من في داره شط يجري لما منعه منها ، فالله أكرم وأوسع ، والمغفرة لا تنقصه شيئاً ، والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئاً .

❏ الاغترار بالفهم الفاسد للقرآن والسنة.

* ومنهم من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة، فاتكلوا عليه كاتكال بعضهم على قوله تعالى :

﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ (الضحى: ٥).

وهو لا يرضى أن يكون فى النار ، وهذا من أقبح الجهل ، وأبين الكذب عليه ، فإنه يرضى بما يرضى به ربه عز وجل ، والله تعالى يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرين على الكبائر ، فحاشا برسوله أن لا يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى .

وكاتكال بعضهم على قوله تعالى :

﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ (الزمر: ٥٣).

وهذا أيضاً من أقبح الجهل ، فإن الشرك داخل فى هذه الآية ، فإنه رأس الذنوب وأساسها ، ولا خلاف أن هذه الآية فى حق التائبين ، فإنه يغفر ذنب كل تائب من أى ذنب كان ، ولو كانت الآية فى حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها ، وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة .

وهذا إنما أتى صاحبه من قلة علمه وفهمه ، فإنه سبحانه ههنا عمم وأطلق ، فعلم أنه أراد التائبين ، وفى سورة النساء خصص وقيد فقال :

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾

(النساء: ٤٨).

فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك ، وأخبر أنه يغفر ما دونه ، ولو كان هذا فى حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره .

* وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (الانفطار: ٦).

فيقول : كَرَّمَهُ ، وقد يقول بعضهم : إنه لقن المغتر حُجَّتَهُ ، وهذا جهل قبيح وإنما غره به الغرور ، وهو الشيطان ، ونفسه الأمانة بالسوء ، وجهله وهواه ، وأتى سبحانه بلفظ «الكريم» ، وهو السيد العظيم المطاع الذى لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقه ، فوضع هذا المغتر الغرور فى غير موضعه ، واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به .

* وكاغترار بعضهم بقوله تعالى فى النار :

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (الليل : ١٥ و ١٦).

وقوله : ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة : ٢٤) .
ولم يدر المغتر أن قوله :

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (الليل : ١٤) .

هى نار مخصوصة من جملة دركات جهنم ، ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل لا يدخلها ، بل قال : ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها ، فإن الصلى أخص من الدخول ، ونفى الأخص لا يستلزم نفى الأعم .

ثم إن هذا المغتر لو تأمل الآية التى بعدها لعلم أنه غير داخل فيها ، فلا يكون مضموناً له أن يجنبها .

وأما قوله فى النار : ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فقد قال فى الجنة : ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران : ١٣٣) .

ولا ينافى إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة ، ولا ينافى

إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من الإيمان ، ولم يعمل خيراً قط.

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم يوم عاشوراء ، أو يوم عرفة ، حتى يقول بعضهم : صوم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها ، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر ، ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء ، وهي إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر.

فرمضان إلى رمضان ، والجمعة إلى الجمعة لا يقويان في تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها ، فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر.

فكيف يكفر صوم يوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها ، غير تائب منها ؟ هذا محال على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفراً لجميع ذنوب العام على عموميه ، وتكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع ويكون إصراره على الكبائر مانعاً من التكفير ، فإذا لم يصر على الكبائر لتساعد الصوم وعدم الإصرار ، وتعاونهما على عموم التكفير ، كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر مع أنه سبحانه قد قال:

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نَهَوْا عَنْهُ نَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾

(النساء: ٣١).

فعلم أن جعل الشيء سبباً للتكفير لا يمتنع أن يتساعد هو وسبب آخر

على التكفير ، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما ، وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل.

□ حسن الظن بالله.

* وكاتكال بعضهم على قوله ﷺ حاكياً عن ربه : « أنا عند حسن ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء » (٣٨) يعنى ما كان فى ظنه فإنى فاعله به ، ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان ، فإن المحسن حسن الظن بربه أنه يجازيه على إحسانه ، ولا يخلف وعده ، ويقبل توبته.

وأما المسئى المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصى والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه ، وهذا موجود فى الشاهد ، فإن العبد الآبق الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به ، ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبداً ، فإن المسئى مستوحش بقدر إساءته ، وأحسن الناس ظناً بربه أطوعهم له.

كما قال الحسن البصرى : إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل (٣٩).

[٣٨] أنا عند حسن ظن عبدى بى..

حسن.

رواه الإمام أحمد (٣/٤٩١ و٤/١٠٦) ، وابن المبارك فى « الزهد » (٩٠٩) ، وابن أبى الدنيا فى « حسن الظن » (٢) ، وابن الأعرابى فى « القبل » (٣٧) ، والحاكم (٤/٢٤٠) من طريق : حيان أبى النضر ، عن وائلة بن الأسقع به.

قلت : وهذا سند حسن ، فحيان أبو النضر ترجمه ابن أبى حاتم فى « الجرح والتعديل » (٢/٢٤٤-٢٤٥) ، ونقل عن أبيه قوله : « صالح » ، وعن ابن معين ، قوله : « ثقة » فمثله لا ينزل حديثه عن درجة الحسن إذا لم يرو ما ينكر عليه.

[٣٩] إن المؤمن أحسن الظن بربه..

ضعيف.

وكيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه ، حال مرتحل في
مساخطه وما يغضبه ، متعرض للعتته ، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه ،
وهان نهيه عليه فارتكبه ، وأصر عليه ؟!

وكيف يحسن الظن بربه من بارزه بالمحاربة ، وعادى أوليائه ، ووالى
أعداءه ، وجحد صفات له ، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفه به
رسوله ﷺ ، وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر ؟!
وكيف يحسن الظن بمن يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا
يرضى ولا يغضب.

وقد قال الله تعالى في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات ،
وهو السر من القول : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (فصلت: ٢٣).

فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون كان هذا
إساءة لظنهم بربهم ، فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كل من جحد صفات
كمالهِ ونعوت جلالهِ، ووصفه بما لا يليق به، فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة
كان هذا غروراً وخداعاً من نفسه، وتسويلاً من الشيطان لا إحسان ظن
بربه.

= رواه أحمد في « الزهد » (ص: ٣٤٨) من طريق : سفيان ، عن رجل ، عن الحسن به.
وسنده ضعيف لجهالة راويه عن الحسن.

ولكن رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٤٤/٢):

حدثنا أحمد بن جعفر بن معدان ، قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان ، قال :
حدثنا محمد بن آدم المصيصي - وكان يقال إنه من الأبدال - قال : حدثنا مخلد بن
الحسين ، عن هشام ، عن الحسن به.

وهذا سند رجاله ثقات إلا شيخ أبي نعيم ، ترجمه في « أخبار أصبهان » (١٥٢/١) ولم
يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً وقد تصحف اسم جده في « الحلية » إلى « معبد ».

* فتأمل هذا الموضع ، وتأمل شدة الحاجة إليه ، وكيف يجتمع في قلب العبد يقينه بأنه ملاق الله ، وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه ، ويعلم سره وعلايته ، ولا يخفى عليه خافية من أمره ، وأنه موقوف بين يديه ، ومسئول عن كل ما عمل ، وهو مقيم على مساخطه ، مضيع لأوامره معطل لحقوقه ، وهو مع هذا يحسن الظن به ، وهل هذا إلا من خداع النفوس ، وغرور الأمانى ؟

وقد قال أبو أمامة سهل بن حنيف : دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضى الله عنها ، فقالت : لو رأيتم رسول الله ﷺ فى مرض له ، وكانت عنده ستة دنانير ، أو سبعة دنانير ، فأمرنى رسول الله ﷺ أن أفرقها ، فشغلنى وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله ، ثم سألتنى عنها ، فقال : « ما فعلت ؟ أكنت فرقت الستة الدنانير ؟ » فقلت : لا والله ، لقد كان شغلنى وجعك ، فدعا بها فوضعها فى كفه ، فقال : « ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده ؟ ».

وفى لفظ : « ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده » (٤٠).

[٤٠] ما فعلت ؟

حديث صحيح .

وقد ورد عن عائشة - رضى الله عنها - من طريقين :

الأول : عن محمد بن عمرو بن علقمة ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن عائشة .
رواه ابن أبي شيبة (٨٣/٧) ، وهناد فى « الزهد » (٦٢٢) ، والإمام أحمد (١٨٢/٦) ،
والحميدى (٢٨٣) ، وابن حبان فى « صحيحه » (موارد : ٢١٤٢) من طرق : عن محمد به .

قلت : وهذا سند صحيح ، لا سيما أن محمد قد توبع ، وفى رواية محمد عن أبي سلمة كلام يسير .
=

فيا لله ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم؟ فإن كان ينفعهم قولهم : حسنًا ظنوننا بك إنك لن تعذب ظالمًا ولا فاسقًا فليصنع العبد ما شاء ، وليرتكب كل ما نهاه الله عنه ، وليحسن ظنه بالله ، فإن النار لا تمسّه ، فسبحان الله ؟! ما يبلغ الغرور بالعبد ، وقد قال إبراهيم لقومه:

﴿أَنْفَكَ آلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
(الصفات: ٨٦ و ٨٧).

أى ما ظنكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره.

■ حسن الظن هو حسن العمل.

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه ، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أنه يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه ، فالذى حمله على حسن العمل حسن الظن ، فكلما حسن ظنه بربه حسن عمله ، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز ، كما فى حديث الترمذى و«المسند» من حديث شداد

= فقد رواه الإمام أحمد (٨٦/٦) : حدثنا على بن عياش ، قال : حدثنا محمد بن

مطرف أبو غسان ، قال : حدثنا أبو حازم ، عن أبى سلمة ، عن عائشة به.

وأبو حازم هو سلمة بن دينار.

الثانى : عن بكر بن مضر ، عن موسى بن جبير ، عن أبى أمامة بن سهل ، قال :

دخلت أنا وعروة فذكره.

أخرجه أحمد (١٠٤/٦) ، وابن حبان (٢١٤١) .

قلت : وهذا سند ضعيف ، فإن موسى بن جبير ذكره ابن حبان فى «الثقات» ، وقال :

« كان يخطئ ويخالف » ، وقال ابن القطان : « لا يعرف حاله ».

ابن أوس عن النبي ﷺ قال :

« الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله » (٤١).

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة ، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن.

[٤١] الكيس من دان نفسه...

حديث منكر.

رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٧١) ، والإمام أحمد (١٢٤/٤) ، والترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وابن عدى (٤٧٢/٢) ، والطبراني في « الكبير » (٣٤١/٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٦٧/١) ، والحاكم (٥٧/١) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٥٠/١٢) من طريق : أبي بكر بن أبي مریم ، عن ضمرة بن حبيب ، عن شداد بن أوس به.

قال الحاكم : « صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه » .

فتعقبه الذهبي بقوله : « لا والله ، أبو بكر واه » .

قلت : وهو كما قال الذهبي ، وإنما تخير البخارى من حديث ابن أبي مریم ما صح منه عنده.

وللحديث طريق آخر :

وهو ما رواه الطبراني في « الكبير » (٣٣٨/٧) ، وفي « الصغير » (الروض الداني : ٨٦٣) من طريق : عمرو بن بكر السكسكى ، عن ثور بن يزيد ، عن مكحول ، عن عبد الرحمن بن غنم ، عن شداد به.

وأخرجه من طريق الطبراني أبو نعيم في « الحلية » (٢٦٧/١).

قلت : وهذا سند منكر غير معروف ، آفته عمرو بن بكر السكسكى ، وهو واه ، وقد مر الكلام عليه ، والحديث معروف من رواية ابن أبي مریم.

❑ الفرق بين حسن الظن والغرور .

فإن قيل : بل يتأتى ذلك ، ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته ، وعفوه ، وجوده ، وأن رحمته سبقت غضبه ، وأنه لا تنفعه العقوبة ، ولا يضره العفو .

قيل : الأمر هكذا ، والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم ، ولكن إنما يوضع ذلك في محله اللائق به ، فإنه سبحانه موصوف بالحكمة ، والعزة والانتقام ، وشدة البطش ، وعقوبة من يستحق العقوبة ، فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لا شترك في ذلك البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، ووليه وعدوه ، فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته ، وقد باء بسخطه وغضبه ، وتعرض للعتة ، ووقع في محارمه ، وانتهك حرماته ، بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع ، وبدل السيئة بالحسنة ، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة ، ثم أحسن الظن بعدها ، فهذا هو حسن ظن ، والأول غرور ، والله المستعان .

ولا تستطل هذا الفصل ، فإن الحاجة إليه شديدة لكل أحد يفرق بين حسن الظن بالله وبين الغرور به قال الله تعالى :

﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ (البقرة: ٢١٨) .

فجعل هؤلاء أهل الرجاء ، لا البطالين والفاستقين .
وقال تعالى :

﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا
إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ (النحل : ١١٠) .

فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها.
فالعالم يضع الرجاء مواضعه ، والجاهل المغتر يضعه فى غير مواضعه.



فصل

الذين اعتمدوا على عفو الله

فضيعوا أمره ونهيه

* وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله، وعفوه ، وكرمه ،
فضيعوا أمره ونهيه ، ونسوا أنه شديد العقاب ، وأنه لا يُرد بأسه عن القوم
المجرمين ، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.
قال معروف : رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق.
وقال بعض العلماء : من قطع عضواً منك فى الدنيا بسرقة ثلاثة
دراهم ، لا تأمن أن تكون عقوبته فى الآخرة نحو هذا.
وقيل للحسن: أراك طويل البكاء ؟ فقال : أخاف أن يطرحنى ولا
يبالى.

وكان يقول : إن قوماً ألهمهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير
توبة يقول أحدهم : لأنى أحسن الظن بربى ، وكذب ، لو أحسن الظن
لأحسن العمل^(٤٢).

وسأل رجل الحسن فقال : يا أبا سعيد ، كيف نصنع بمجالسة أقوام
يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك

[٤٢] إن قوماً ألهمهم أمانى المغفرة ...

مر بنحوه برقم (٣٩)

حتى تدرك أمناً، خير من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف^(٤٣).

وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث أسامة بن زيد ، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلق أفتاب بطنه ، فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه ، فيطوف به أهل النار ، فيقولون : يا فلان ما أصابك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه^(٤٤) ».

وذكر الإمام أحمد من حديث أبي رافع قال: مر رسول الله ﷺ بالبقيع فقال: «أف لك» فظننت أنه يريدني ، فقال: «لا، ولكن هذا قبر فلان،

[٤٣] والله لأن تصحب أقواماً ...

ضعيف.

رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٤٩/٢) من طريق : يحيى بن سعيد ، قال حدثنا يزيد بن عطاء ، عن علقمة بن مرثد به .

ويزيد بن عطاء فيه لين ، ويحيى بن سعيد هو العطار ، وهو ضعيف الحديث .

ولكن رواه عبد الله بن الإمام أحمد في زياداته على « الزهد » (ص: ٣١٧) حدثنا علي ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر ، حدثنا العلاء بن زياد ، قال : سمعت المغيرة بن مخادش سأل الحسن فقال : .. فذكره .

وفيه سيار بن حاتم وهو صاحب مناكير :

[٤٤] يجاء بالرجل يوم القيامة ..

حديث صحيح .

رواه البخاري (٢١٩/٢-٢٢٠) ، ومسلم (٢٢٩٠/٤) من طريق : أبي وائل شقيق بن سلمة ، عن أسامة بن زيد به .

بعثته ساعياً إلى آل فلان ، فغل نمرة ، فدرع الآن مثلها من نار» (٤٥).

وفى «مسنده» أيضاً من حديث أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مررت ليلة أسرى بى على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت : من هؤلاء ؟ قالوا : خطباء من أمتك من أهل الدنيا ، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم » (٤٦).

وفيه أيضاً من حديثه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم ، وصدورهم ، فقلت :

[٤٥] أف لك .

حديث ضعيف .

رواه الإمام أحمد (٣٩٢/٦) ، والنسائي (١١٥/٢) ، وابن خزيمة (٢٣٣٧) ، والطبراني فى « الكبير » (٣٢٣/١) من طريق : ابن جريج ، حدثنى منبوذ رجل من آل أبى رافع ، عن الفضل بن عبيد الله بن أبى رافع ، عن أبى رافع به .

قلت : وهذا سند ضعيف ، منبوذ هذا مجهول الحال ، لم يرو عنه إلا ابن جريج وابن أبى ذئب ، وله طرق أخرى عن أبى رافع ضعيفة عند الطبراني فى « الكبير » .

[٤٦] مررت ليلة أسرى بى ..

حديث ضعيف .

رواه الإمام أحمد (٢٣١ و ١٢٠/٣) من طريق : حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن أنس بن مالك به .

وسنده ضعيف لضعف على بن زيد وهو ابن جدعان .

ولكن له طريق آخر عند عبد الرزاق فى « التفسير » (٣٧٣/٢) : عن جعفر بن سليمان ، عن عمر بن نبهان ، عن قتادة ، عن أنس به .

وهذا الطريق ضعيف كسابقه لضعف عمر بن نبهان .

وله طرق أخرى ضعيفة .

من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم» (٤٧).

وفيه أيضاً عنه قال : كان النبي ﷺ يكثر أن يقول : « يا مقلب القلوب والأبصار ثبّت قلبي على دينك » ، فقلنا : يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا؟ قال : « نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء » (٤٨).

[٤٧] لما عرج بى مررت بقوم..

حديث رجال إسناده ثقات.

وقد توسعت في الكلام عليه في كتابي « الصحيح من قصة الإسراء والمعراج

(ص: ١٧)

[٤٨] يا مقلب القلوب والأبصار..

حديث صحيح .

رواه الإمام أحمد (١١٢/٣) ، والترمذي (٢١٤٠) من طريق : أبي معاوية الضرير ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان الإسكافي ، عن أنس به .

قلت : وهذا سند صحيح ، وسماع أبو سفيان الإسكافي طلحة بن نافع من أنس متاح ومحمّل.

ولكن اختلف فيه على الأعمش :

فرواه ابن نمير وغيره عن الأعمش ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس به .

أخرجه ابن ماجة (٣٨٣٤) من طريق : ابن نمير ، عن أبيه ، حدثنا الأعمش به .

وذكر له الحافظ ابن حجر في « النكت الظراف » (تحفة: ١/٢٤٤) متبعة أخرى من

طريق : معتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن الأعمش به .

قلت : والأعمش حافظ كبير ، ويحتمل عنه تعدد الأسانيد في الحديث الواحد ، وقد

سمع هذا الحديث من يزيد الرقاشي ، ومن أبي سفيان الإسكافي جميعاً .

فقد رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٦٨٣) :

حدثنا الحسن بن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، ويزيد ،

عن أنس به .

وقد اختلف على الأعمش فيه على وجه ثالث ، فرواه عن أبي سفيان ، عن جابر .

رواه الحاكم في « المستدرک » (٢٨٨-٢٨٩) ، إلا أن إسناده عن الأعمش محذوف .

قال الترمذي : « وحديث أبي سفيان عن أنس أصح » .

وفيه أيضاً عنه ، أن رسول الله ﷺ قال لجبريل : « مالي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط ؟ قال : ما ضحك منذ خلقت النار » (٤٩).

وفى « صحيح مسلم » عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ في النار صبغة ، ثم يقال له : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعم قط ؟ فيقول : لا ، والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة ، فيصبغ في الجنة صبغة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يارب ، ما مر بى بؤس قط ولا رأيت شدة قط » (٥٠).

[٤٩] مالي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط ؟

حديث منكر.

رواه الإمام أحمد (٢٢٤/٣) ، والآجری فی « الشريعة » (ص: ٣٩٥) من طريق : إسماعيل بن عياش ، عن عمارة بن غزية الأنصاري ، عن حميد بن عبيد مولى بنى الملعلى ، عن ثابت ، عن أنس به.

قلت : وهذا سند منكر ، تفرد به ضعفاء.

فحميد بن عبيد مجهول ، قال الحافظ في « تعجيل المنفعة » (ص: ١٠٥-١٠٦) :

« عنه عمارة بن غزية لا يدري من هو ، قلت : هو مدني من موالى الأنصار ».

قلت : وعلى هذا التقدير فهو مجهول أيضاً ، تفرد عنه عمارة بسند لا يصح ، فإن

رواية إسماعيل بن عياش عن غير الشاميين ضعيفة ، وعمارة مدني.

وقد ترجم ابن حبان في « الثقات » (١٨٩/٦) لحميد بن عبيد الأنصاري ، فقال :

« يروى ، عن أبيه ، عن عمر ، روى عنه ابنه عبد الرحمن بن حميد » ، وليس هذا هو الأول ، وقد فرق بينهما الحسيني ، وتبعه الحافظ في « التعجيل » ، فتنبه.

[٥٠] يؤتى بأنعم أهل الدنيا..

حديث صحيح .

رواه أحمد (٢٠٣/٣) ، ومسلم (٢١٦٢/٤) من طريق : حماد بن سلمة ، عن

ثابت البناني ، عن أنس بن مالك به.

وفى « المسند » من حديث البراء بن عازب ، قال :

خرجنا مع النبي ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار ، فانتبهنا إلى القبر ،
ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ،
وفى يده عود ينكت به الأرض ، فرفع رأسه فقال :

« استعيذوا بالله من عذاب القبر » - مرتين أو ثلاثاً -

ثم قال : « إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا ، وإقبال
من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم
الشمس ، معهم كفن من أكفان أهل الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ،
حتى يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجئ ملك الموت ، حتى يجلس عند
رأسه ، فيقول : أخرجى أيتها النفس المطمئنة ، أخرجى إلى مغفرة من الله
ورضوان ، فتخرج ، تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء ، فيأخذها ،
فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها ، فيجعلوها فى
ذلك الكفن ، وفى ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك
وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من
الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون : روح فلان ابن فلان ،
بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح
له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها ، حتى ينتهى به
إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى فى
عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها
أخرجهم تارة أخرى ، قال : فتعاد روحه فى جسده ، فيأتيه ملكان ،
فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله عز وجل ، فيقولان
له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذى

بعث فيكم ؟ فيقول : هو محمد رسول الله ، فيقولان له : وما علمك ؟
فيقول : قرأت كتاب الله عز وجل ، فأمنت به وصدقت ، فينادى مناد من
السماء : أن صدق عبدى ، فافرشوا له من الجنة ، وألبسوه من الجنة ،
وافتحوا له باباً إلى الجنة قال : فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له فى
قبره مد بصره .

قال : ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ،
فيقول : أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : من
أنت فوجهك الوجه الذى يجرىء بالخير ، فيقول : أنا عمك الصالح ،
فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلى ومالى .
قال : وإن العبد الكافر إذا كان فى ~~الجنة~~ من الدنيا ، ~~والجنة~~ من
الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء ، سود الوجوه ، معهم المسوح ،
فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجرىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ،
فيقول أيتها النفس الخبيثة ، اخرجى إلى سخط من الله وغضب ، قال
فتفرق فى جسده فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبتل ،
فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين ، حتى يجعلوها فى
تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ،
فيصعدون بها ، فلا يبرون بها على ملاء من الملائكة ، إلا قالوا : ما هذه
الروح الخبيثة ؟ فيقولون : روح فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التى كان
يسمى بها فى الدنيا ، فيستفتح فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ :

﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل
فى سمّ الخياط ﴾ (الأعراف : ٤٠) .

فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه فى سجين ، فى الأرض السفلى ،
فتطرح روحه طرْحاً ، ثم قرأ ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء
فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ (الحج : ٣١) .

فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له: من ربك ؟ فيقول : هاه... هاه، لا أدري ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه... هاه ، لا أدري، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه .. هاه، لا أدري ، فينادى مناد من السماء : أن كذب عبدى ، فافرشوا له من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلّاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسوءك ، هذا يومك الذى كنت توعده ، فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجيء بالشر، فيقول : أنا عمك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة»(٥١).

وفى لفظ لأحمد أيضاً : « ثم يقيض له أعمى أصم أبكم ، فى يده مرزبة ، لو ضرب بها جبلاً كان تراباً ، ثم يعيده الله عز وجل كما كان ، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شئ إلا الثقلين »
قال البراء : ثم يفتح له باب إلى النار ، ويمد له من فراش النار(٥٢).

[٥١] حديث البراء بن عازب الطويل.

حديث حسن الإسناد فيه غرائب .

رواه ابن المبارك فى « الزهد » (١٢١٩) والإمام أحمد (٢٨٧/٤) وابنه عبد الله فى « السنة » (١٤٣٨) ، وأبو داود (٤٧٥٣) من طريق:

أبى معاوية الضير ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن زاذان ، عن البراء بن عازب به .
وفيه زاذان أبو عبد الله ويقال أبو عمر الكندى ، وفيه كلام يسير لا ينزل بحديثه عن درجة الحسن إلا أنه لا يحتمل منه مثل هذا الحديث ، وكنت قد وقفت على حكم للذهبي على هذا الحديث بالنكارة، ولا يحضرني الآن موضعه .

[٥٢] ثم يقيض له أعمى أصم أبكم

زيادة منكورة.

أخرجه بهذه الزيادة الإمام أحمد (٢٩٥/٤) من طريق :يونس بن خباب ، عن المنهال .
ويونس بن خباب ضعيف الحديث ، رافضى خبيث .

وفى «المسند» أيضاً عنه، قال :

بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصر بجماعة، فقال : «علام اجتمع هؤلاء؟» قيل : على قبر يحفرونه ، ففرع رسول الله ﷺ ، فبدر بين يدي أصحابه مسرعاً ، حتى انتهى إلى القبر ، فجثا على ركبتيه ، فاستقبلته بين يديه لأنظر ما يصنع ، فبكى حتى بلّ الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا فقال : «أى إخوانى لمثل هذا اليوم فأعدوا» (٥٣).

وفى «المسند» من حديث بريدة، قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوماً فنأدى ثلاث مرات : «يا أيها الناس أتدرون ما مثلى ومثلكم؟» .
قالوا : الله ورسوله أعلم.

[٥٣] أى إخوانى لمثل هذا اليوم فأعدوا.
ضعيف بهذا السياق.

رواه أحمد (٢٩٤/٤) ، والبخارى فى «التاريخ الكبير» (٢٢٩/١/١) ، وابن ماجه (٤١٩٥) من طريق:

عبد الله بن واقد الهروى ، قال : حدثنا محمد بن مالك ، عن البراء بن عازب به .
قلت : محمد بن مالك وهو الجوزجاني مختلف فيه ، قال أبو حاتم : « لا بأس به » ،
وأما ابن حبان فذكره فى «الثقات» ، ونفى سماعه من البراء ، وذكره فى «الضعفاء» ،
وقال : « كان يخطئ كثيراً ، لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد » .

قلت : كلام ابن حبان هذا مشعر بأنه وقف على ما يدل على خفة ضبط محمد بن مالك ، وإلا لما ذكره فى الثقات ، ثم جرحه فى الضعفاء ، وأما نفى سماعه من البراء ، فقد تعقبه الحافظ ابن حجر فى «التهذيب» ، فقال :

« روى له أحمد فى مسنده ، قال : رأيت على البراء خاتماً من ذهب ، فقليل له : إنك تلبسه .. فذكر قصة ، فهذا ينفى قول ابن حبان : إنه لم يسمع من البراء ، إلا أن يكون عنده غير صادق » .

قلت : مجرد الإدراك أو الرؤية ليس بدليل على السماع ، وظاهر هذا الخبر لا يدل بأى حال على أنه قد سمعه من البراء ، فقول ابن حبان غير مستبعد .

فقال :

« إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم فبعثوا رجلاً يتراءى لهم ، فأبصر العدو ، فأقبل لينذرهم ، وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بشوبه : أيها الناس، أتيتم، أيها الناس أتيتم ثلاث مرات» (٥٤).

وفى «صحيح مسلم» من حديث جابر، قال : قال رسول الله ﷺ :
« كل مسكر حرام ، وإن على الله عز وجل عهداً لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال» ، قيل : وما طينة الخبال ؟ قال : «عرق أهل النار أو عصارة أهل النار» (٥٥).

[٥٤] يأيها الناس ، أتدرون ما مثلى ومثلكم..
حديث منكر.

رواه الإمام أحمد (٣٤٨/٥) ، والرامهرمزي فى « أمثال الحديث » (٧) ، وأبو الشيخ فى « الأمثال » (٢٥٣) من طريق : بشير بن المهاجر الغنوى ، حدثنى عبد الله بن بريدة ، عن أبيه به.

قلت : وهذا سند منكر، فإن الغنوى هذا ضعيف منكر الحديث ، قال الإمام أحمد : «منكر الحديث، قد اعتبرت أحاديثه ، فإذا هو يجيء بالعجب » ، وقال ابن عدى : « روى ما لا يتابع عليه » ، وقال العقيلى : « مرجئ متهم متكلم فيه » ، فلا عبرة بتوثيق ابن معين له، وقول النسائى : « ليس به بأس » ، فمن جرحه جرحه جرحاً مفسراً ، ومن علم حاله حجة على من لم يعلم.

[٥٥] كل مسكر حرام..

حديث صحيح.

رواه مسلم (١٥٨٧/٣) ، والبيهقى (٢٩٢/٨) من طريق : عمارة بن غزية ، عن أبى الزبير ، عن جابر به.

وفى « المسند » أيضاً من حديث أبى ذر ، قال : قال رسول الله ﷺ :
« إنى أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون ، أطّت السماء ، وحق
لها أن تتط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد ، لو
تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على
الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل » .
قال أبو ذر : والله لوددت أنى شجرة تعضد^(٥٦) .

وفى « المسند » أيضاً من حديث حذيفة ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ
فى جنازة فلما انتهينا إلى القبر قعد على ساقيه ، فجعل يردد بصره فيه ، ثم
قال : « يضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله ، ويملاً على الكافر
ناراً »^(٥٧) .

[٥٦] إنى أرى مالا ترون ..

حديث ضعيف .

رواه الإمام أحمد (١٧٣/٥) ، والترمذى (٢٣١٢) ، وابن ماجه (٤١٩٠) ، والحاكم
(٥١٠/٢) من طريق :

إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن مورك ، عن أبى ذر به .

وبعضهم روى الشطر الأخير منه مرفوعاً .

قال الترمذى : « حسن غريب » .

يشير بذلك إلى نكارتة ، ولا عجب ، فإن إبراهيم هذا متكلم فى حفظه ، وهو ضعيف
لا يحتمل من مثله التفرد ، والله أعلم .

[٥٧] يضغط المؤمن فيه ضغطة ..

حديث منكر .

رواه الإمام أحمد (٤٠٧/٥) من طريق : محمد بن جابر ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى
البختري ، عن حذيفة به .

وأخرجه من طريق الإمام أحمد ابن الجوزى فى « الموضوعات » (٢٣١/٣) ، وقال : =

والحمائل عروق الأنثيين.

وفى «المسند» أيضاً من حديث جابر، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ حين توفى ، فلما صلى عليه رسول الله ﷺ ووضع في قبره ، وسوى عليه ، سبح رسول الله ﷺ ، فسبحنا طويلاً ، ثم كبر فكبرنا ، فقيل : يا رسول الله : لم سبحت ، ثم كبرت ؟ فقال :

« لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه » (٥٨).

= « هذا حديث لا يصح ، قال يحيى : محمد بن جابر ليس بشئ ، وقال أحمد : لا يحدث عنه إلا من هو شر منه » .

قلت : محمد بن جابر هو ابن سيار ، وهو ضعيف جداً من قبل الحفظ ، وكان يلحق في كتابه ، وتغير بأخرة ، ثم إن إسناده هذا الحديث منقطع ، فأبو البخترى وهو سعيد بن فيروز روايته عن حذيفة بن اليمان مرسله .

[٥٨] لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره..

حديث ضعيف .

رواه الإمام أحمد (٣/٣٦٠ و ٣٧٧) ، والطبرانى فى « الكبير » (٦/١٣) من طريق : ابن إسحاق ، حدثنى معاذ بن رفاعه ، عن محمود بن عبد الرحمن بن عمرو بن الجموح ، عن جابر به .

قال الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (٣/٤٦) :

« فيه محمود بن محمد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الجموح ، قال الحسينى : فيه نظر قلت : ولم أجد من ذكره غيره » .

قلت : كذا فى « المجمع » ، وقد وقع اسمه فى بعض الروايات ، وهى رواية الطبرانى : محمد بن عبد الرحمن ، ومحمود هذا مجهول على الأغلب ، فقد تفرد بالرواية عنه معاذ ابن رفاعه ، وهو ضعيف .

وفى «صحيح البخارى» من حديث أبى سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدمونى قدمونى ، وإن كانت غير صالحة ، قالت : ياويلها أين تذهبون بها ، يسمع صوتها كل شىء إلا الإنسان ، ولو سمعها الإنسان لصعق » (٥٩).

وفى « مسند الإمام أحمد » من حديث أبى أمامة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ، ويزاد فى حرها كذا وكذا ، تغلى منها الرؤوس كما تغلى القدور ، يغرقون فيها على قدر خطاياهم ، منهم من يبلغ إلى كعبه ، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ، ومنهم يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يلجمه العرق » (٦٠).

[٥٩] إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال ...

حديث صحيح.

رواه البخارى (٢٢٨/١) ، والنسائى (٤١/٤) من طريق : سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن أبيه كيسان ، عن أبى سعيد الخدرى به.

[٦٠] تدنو الشمس يوم القيامة ...

منكر من حديث أبى أمامة ، وله شاهد صحيح.

رواه الإمام أحمد (٢٤٥/٥) ، والطبرانى فى « الكبير » (٢٢٢/٨) من طريق : معاوية بن صالح ، عن أبى عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبى أمامة به. قلت : والحديث بهذا السند تفرد به القاسم بن عبد الرحمن الدمشقى ، وهو ضعيف صاحب مناكير.

ولكن له شاهد صحيح عن المقداد بن الأسود مرفوعاً بلفظ :

« تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق ، حتى تكون منهم كمقدار ميل ، فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً » . وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه.

رواه أحمد (٣/٦) ، ومسلم (٢١٩٦/٤) ، والترمذى (٢٤٢١).

وفيه عن ابن عباس، عن النبي ﷺ :

« كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ؟ وحتى جبهته يستمع متى يؤمر فينفخ ، فقال أصحابه : كيف نقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » (٦١).

وفى « المسند » أيضاً عن ابن عمر، يرفعه : « من تعظم فى نفسه ، أو اختال فى مشيئته لقي الله تعالى وهو عليه غضبان » (٦٢).

[٦١] كيف أنعم وصاحب القرن...

ضعيف من حديث ابن عباس ، صحيح من حديث أبى سعيد الخدرى .

رواه الإمام أحمد (٣٢٦/١) من طريق : مطرف ، عن عطية ، عن ابن عباس به .

قلت : وهذا سند ضعيف ، لضعف عطية العوفى ، وقد اضطرب فى رواية هذا الحديث ، فرواه مرة أخرى من حديث أبى سعيد الخدرى ، ورواه مرة ثالثة عند الخطيب (٣٦٣/٣) على الشك من حديث ابن عباس أو أبى سعيد .

ولكن له شاهد صحيح من حديث أبى سعيد .

رواه ابن حبان (٢٥٦٩) وغيره .

[٦٢] من تعظم فى نفسه ..

حديث صحيح .

رواه الإمام أحمد (١١٨/٢) ، والبخارى فى « الأدب المفرد » (٥٤٩) ، والحاكم (٦٠/١) من طريق :

يونس بن القاسم اليمامى ، حدثنا عكرمة بن خالد ، قال : سمعت ابن عمر .. به .

قلت : وهذا سند صحيح ، رجاله ثقات ، ولكن اختلف فى حال يونس بن القاسم ، فوثقه ابن معين وابن حبان والدارقطنى ، وخالفهم البرذعى ، فقال : « هو عندى منكرو الحديث » .

قلت : البرذعى كثيراً ما يطلق هذا الوصف على تفرد الراوى ، حتى ولو كان ثقة ، وقد أطلقه على ما تفرد به هشام عن قتادة ، مع أن هشاماً ثقة حافظ ، من أصحاب قتادة .

=

ولذا قال ابن الصلاح فى مقدمته :

وفى «الصحيحين» عنه، قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن المصورين يعذبون يوم القيامة ، ويقال لهم : أحيوا ما خلقتكم » (٦٣).

وفيهما أيضاً عنه، عن النبي ﷺ :

« إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل يوم القيامة » (٦٤).

= « بلغنا عن أبي بكر أحمد بن هارون البرديجى الحافظ أن الحديث - [أى المنكر] - الذى ينفرد به الرجل ولا يعرف متنه من غير روايته لا من الوجه الذى رواه منه ، ولا من وجه آخر، فأطلق البرديجى ذلك ولم يفصل ».

قلت : والصواب التفصيل ، وتفرد الثقة بمتن لا يرويه غيره مما لا يعد أصلاً جديداً لا يقدح فى ضبطه.

[٦٣] إن المصورين يعذبون..

حديث صحيح.

رواه البخارى (٤٤/٤) ، ومسلم (١٦٧٠/٣) من طريق : عبيد الله العمرى ، عن نافع ، عن ابن عمر بلفظ :

« إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتكم ».

[٦٤] إن أحدكم إذا مات عرض..

حديث صحيح.

رواه الإمام مالك فى «الموطأ» (٢٣٩/١) عن نافع ، عن ابن عمر به.

ومن طريقه أخرجه الإمام أحمد (١١٣/٢) ، والبخارى (٢٣٩/١) ، ومسلم (٢١٩٩/٤) ، والنسائى (١٠٧/٤).

وفيهما أيضاً عنه، عن النبي ﷺ : « إذا صار أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار جئ بالموت حتى يوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ، ثم ينادى مناد : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم » (٦٥).

وفى «المسند» عنه، قال : « من اشترى ثوباً بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة ما دام عليه . »
ثم أدخل أصبعيه فى أذنيه، ثم قال: صمتاً إن لم أكن سمعت النبي ﷺ يقول (٦٦).

[٦٥] إذا صار أهل الجنة فى الجنة..

حديث صحيح.

رواه الإمام أحمد (١٨/٢ و ١٢٠-١٢١)، والبخارى (١٣٦/٤)، ومسلم (٢١٨٩/٤) من طريق :

عمر بن محمد بن زيد ، عن أبيه ، عن ابن عمر به.

[٦٦] من اشترى ثوباً بعشرة دراهم..

ضعيف جداً.

رواه الإمام أحمد فى «المسند» (٩٨/٢) من طريق : بقية بن الوليد ، عن عثمان بن زفر، عن هاشم ، عن ابن عمر به.

قلت : وهذا سند ضعيف جداً ، هاشم هو الأوقص ، وهو ضعيف جداً ، قال فيه البخارى : « غير ثقة » ، وعثمان بن زفر مجهول الحال ، وفى الإسناد علة أخرى ، وهى الاضطراب.

فقد روى هذا الحديث الخطيب فى « تاريخه » (٢١/١٤) من طرق عن بقية ، وفيها عنه اختلاف ، مما يدل على اضطرابه فيه ، والله أعلم.

وفيه عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال : « من ترك الصلاة سكرًا مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها ، ومن ترك الصلاة سكرًا أربع مرات، كان حقًا على الله أن يسقيه طينة الخبال ، قيل : وما طينة الخبال ، يا رسول الله ؟ قال : عصارة أهل جهنم » (٦٧).

وفيه أيضًا عنه، مرفوعاً: «من شرب الخمر مرة لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من رذغة الخبال يوم القيامة» (٦٨).

[٦٧] من ترك الصلاة سكرًا ..

ظاهر إسناده الحسن، والمتن فيه نكارة.

رواه الإمام أحمد (١٧٨/٢)، والحاكم (١٤٦/٤)، والبيهقي (٢٨٧/٨) من طريق : ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث، أن عمرو بن شعيب حدثه، عن أبيه، عن ابن عمرو مرفوعاً به.

قال الحاكم : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ».

قلت : ظاهر هذا الإسناد الحسن، ولكن فيه من النكارة ما فيه، ولذا قال الحافظ الذهبي متعقباً الحاكم : « غريب جداً ».

[٦٨] من شرب الخمر مرة ..

صحيح.

رواه الإمام أحمد (١٨٩/٢) من طريق : حماد بن سلمة، عن يعلى بن عطاء، عن نافع بن عاصم، عن ابن عمرو به.

قلت : وهذا سند ضعيف، لجهالة حال نافع بن عاصم.

ولكن : رواه ابن ماجه (٣٣٧٧)، وابن حبان في « صحيحه » (موارد : ١٣٧٨) من طريق : الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، عن ربيع بن يزيد، عن ابن الديلمي - وهو عبد الله بن فيروز - عن ابن عمرو به.

وسنده صحيح.

ورواه النسائي (٣١٧/٨) من طريقين عن الأوزاعي به، وفي أوله قصة.

وفي الباب : عن ابن عمر.

وفى «المسند» أيضاً من حديث أبى موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات مدمناً للخمر سقاه الله من نهر الغوطة، قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: نهر يجرى من فروج المومسات، يؤذى أهل النار ريح فروجهن» (٦٩).

وفيه أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالث فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى، فأخذ بيمينه، أو أخذ بشماله» (٧٠).

[٦٩] من مات مدمناً للخمر سقاه..

منكر.

رواه الإمام أحمد (٣٩٩/٤)، وابن حبان (موارد: ١٣٨٠) من طريق: فضيل بن ميسرة، عن أبى حريز عبد الله بن الحسين، عن أبى بردة، عن أبى موسى به. قلت: وهذا سند منكر، أبو حريز ضعيف الحديث، ورواية فضيل بن ميسرة عنه فيها نظر.

قال يحيى بن سعيد القطان: قلت للفضيل بن ميسرة: أحاديث أبى حريز، قال: سمعتها، فذهب كتابى، فأخذته بعد ذلك من إنسان.

[٧٠] يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات..

ضعيف.

رواه الترمذى (٢٤٢٥): حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن على بن على، عن الحسن، عن أبى هريرة به.

قال الترمذى: «ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبى هريرة». قلت: وقد اختلف فيه على وكيع، فرواه الإمام أحمد (٤١٤/٤) عن وكيع. ورواه ابن ماجه (٤٢٧٧): حدثنا أبو بكر، حدثنا وكيع بالإسناد السابق، إلا أنهما قالا: عن أبى موسى بدلاً من «أبى هريرة».

وقال في «المسند» أيضاً من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال:

«إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وضرب لهن رسول الله ﷺ مثلاً ، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود ، والرجل يجىء بالعود ، حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً ، فأنضجوا ما قذفوا فيها» (٧١).

= وهذا الإسناد معلول أيضاً بالانقطاع بين الحسن وبين أبي موسى - رضي الله عنه-.
ورواه ابن المبارك في «الزهد» (زيادات نعيم بن حماد : ٣٩٥) عن علي بن علي بن رفاعه ، عن الحسن ، قال : قال : عبد الله بن قيس ، فذكره موقوفاً عليه.
فأخشى أن يكون الاضطراب في سند هذا الحديث من قبل علي بن علي بن رفاعه ، فإن فيه كلاماً يسيراً جداً ، وتوثيق من وثقه لا يمنع من القول بخطئه إذا دل على ذلك دليل واضح.

[٧١] إياكم ومحقرات الذنوب..

ضعيف ، وله شاهد صحيح.

رواه الإمام أحمد (٤٠٢/٤) ، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٣١٩) ، والطبراني في «الكبير» (٢٦١/١٠) من طريق :

عمران القطان ، عن قتادة ، عن عبد ربه ، عن أبي عياض ، عن ابن مسعود به.
قلت : وهذا سند منكر ، عمران القطان فيه ضعف ، ولا يحتمل من مثله التفرد عن قتادة بمثل هذا الحديث ، بحيث لا يشاركه فيه باقي أصحاب قتادة الأثبات ، أو على الأقل أحدهم ، وكذلك فعبد ربه هو ابن يزيد ، وهو مجهول الحال.

ولكن له شاهد صحيح ينحوه من حديث سهل بن سعد - رضي الله عنه -

أخرجه الإمام أحمد (٣٣١/٥) ، والرامهرمزي في «الأمثال» (٦٧) ، والطبراني في «الكبير» (١٦٦/٦) ، وفي «الصغير» (الروض الداني : ٩٠٤) من طريق : أنس بن عياض ، حدثني أبو حازم ، قال : لا أعلمه إلا عن سهل بن سعد .. به.

وسنده صحيح.

وفى « الصحيح » من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« يضرب الجسر على جهنم ، فأكون أول من يجوز ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وعلى حافيته كلاليب مثل شوك السعدان ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموثق بعمله ، ومنهم المخردل ثم ينجو ، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله ، أمر الملائكة أن يخرجوهم ، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود ، وحرّم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود ، فيخرجونهم قد امتحشوا ، فيصب عليهم من ماء يقال له ماء الحياة ، فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل » (٧٢).

وفى « صحيح مسلم » عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : ما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فىك حتى قتلت ، قال : كذبت ، ولكن قاتلت ليقال : هو جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي فى النار ، ورجل تعلم العلم ، وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : ما عملت فيها ؟ قال : تعلمت فىك العلم وعلمته ، وقرأت فىك القرآن ، فقال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال هو

[٧٢] يضرب الجسر على جهنم ..

صحيح.

رواه البخارى (٢٨٣/٤) ، ومسلم (١٦٣/١-١٦٥) ، والنسائى (٢٢٩/٢) من طريق : عطاء بن يزيد الليثى ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - بأطول من اللفظ الذى ذكره المصنف.

عالم ، فقد قيل وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار» .

وفى لفظ: «فهؤلاء أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة»^(٧٣).

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول :

كما أن خير الناس الأنبياء فشر الناس من تشبه بهم يوم أنهم ليس منهم ، فخير الناس بعدهم : العلماء ، والشهداء ، والصديقون ، والمخلصون ، وشر الناس من تشبه بهم يوم أنهم ليس منهم .

وفى «صحيح البخارى» من حديث أبى هريرة، عن النبى ﷺ :

« من كانت عنده لأخيه مظلمة فى مال أو عرض فليأتها ، فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم ، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطىها هذا ، وإلا أخذ من سيئات هذا فطرح عليه ثم طرح فى النار»^(٧٤).

[٧٣] إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة..

صحيح.

رواه مسلم (٤٧/٦) - الطبعة السلطانية - والنسائى (٢٣/٦) من حديث أبى هريرة

-رضي الله عنه- .

[٧٤] من كانت عنده لأخيه مظلمة..

صحيح .

رواه البخارى (٦٧/٢) من طريق : ابن أبى ذئب ، حدثنا سعيد المقبرى ، عن أبى

هريرة به .

وفى «الصحيح» من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :
« من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى
سبع أراضين » (٧٥).

وفى «الصحيحين» عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :
« ناركم هذه التى يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ،
قالوا : والله إن كانت لكافية ، قال : فإنها فضلت عليها بتسعة وستين
جزءاً كلهن مثل حرها » (٧٦).

وفى «المسند» عن معاذ ، قال : أوصانى رسول الله ﷺ فقال :
« لا تشرك بالله شيئاً وإن قتلت أو حرقت ، ولا تعقن والدك ،
وإن أمراك أن تخرج من أهلِكَ ومالك ، ولا تترك صلاة مكتوبة
متعمداً ، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله ، ولا
تشربن خمراً فإنه رأس كل فاحشة ، وإياك والمعصية ، فإن المعصية تحل
سخط الله » (٧٧).

[٧٥] من أخذ شبراً من الأرض..

صحيح.

رواه الإمام أحمد (٣٨٨/٢) ، ومسلم (١٢٣١/٣) من طريق : سهيل بن أبى صالح ،
عن أبيه ، عن أبى هريرة بنحوه.

[٧٦] ناركم هذه التى يوقد بنو آدم..

صحيح.

رواه مالك فى «الموطأ» (٩٩٤/٢) عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة به.
ومن طريقه أخرجه البخارى (٢١٩/٢).

ورواه مسلم (٢١٨٤/٤) من طريق : المغيرة بن عبد الرحمن الحزامى ، عن أبى الزناد به.

[٧٧] لا تشرك بالله شيئاً وإن قتلت..

مرسل.

رواه الإمام أحمد (٢٣٨/٥) : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا إسماعيل بن عياش ، عن
صفوان بن عمرو ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمى ، عن معاذ به .
=

والأحاديث في هذا الباب أضعاف أضعاف ما ذكرنا ، فلا ينبغي لمن نصح نفسه أن يتعامى عنها ، ويرسل نفسه في المعاصي ، ويتعلق بحسن الرجاء وحسن الظن.

قال أبو الوفاء بن عقيل : احذره ولا تغتر به ، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم ، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر ، وقد دخلت امرأة النار في هرة ، واشتعلت الشملة ناراً على من غلها وقد قتل شهيداً .
وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن سليمان ابن ميسرة ، عن طارق بن شهاب ، يرفعه ، قال :

« دخل رجل الجنة في ذباب ، ودخل رجل النار في ذباب ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً ، فقالوا لأحدهما : قرب ، قال : ليس عندي شيء ، قالوا له : قرب ولو ذباباً ، فقرب ذباباً ، فخلوا سبيله فدخل النار ، وقالوا للآخر : قرب ، فقال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً من دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه فدخل الجنة ، وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » (٧٨).

= وفي آخره زيادة : « وإياك والفرار من الزحف وإن هلك الناس ، وإذا أصاب الناس موتان وأنت فيهم ، فائت ، وأنفق على عيالك من طولك ، ولا ترفع عنهم عصاك أدباً ، وأخفهم في الله ».

قال المنذرى في « الترغيب والترهيب » (٣٨٣/١) :

« رواه أحمد والطبراني في « الكبير » ، وإسناده أحمد صحيح لو سلم من الانقطاع ، فإن عبد الرحمن بن جبير بن نفير لم يسمع من معاذ ».

[٧٨] دخل رجل الجنة في ذباب ..

صحيح موقوفاً على سلمان الفارسي :

=

وربما اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا وأنه لا يغير ما به ، ويظن أن ذلك من محبة الله له ، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك ، وهذا من الغرور.

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان ، حدثنا رشدين بن سعد ، عن حرملة بن عمران التجيبى ، عن عقبة بن مسلم ، عن عقبة بن عامر ، عن النبي ﷺ قال : « إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج » ثم تلا قوله عز وجل :

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ (٧٩) (الأنعام : ٤٤) .

= رواه الإمام أحمد في « الزهد » (ص : ٢٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٠٣ / ١) من طريق : الأعمش به ، إلا أنه قال : عن طارق ، عن سلمان موقوفاً عليه . والأعمش موصوف بالتدليس ، ولكنه قد توبع فيما ذكره أبو نعيم . وسليمان بن ميسرة وثقه العجلي وابن خلفون وابن معين والنسائي . وله ترجمة في « تعجيل المنفعة » (٤٢٣) .

[٧٩] إذا رأيت الله عز وجل يُعطى العبد...
لین.

أخرجه الإمام أحمد في « المسند » (١٤٥ / ٤) ، وفي « الزهد » (ص : ١٨) بالإسناد الذى ذكره المصنف .

وهو سند ضعيف جداً ، لشدة ضعف رشدين بن سعد .

ورواه ابن جرير في « التفسير » (١٢٤ / ٧) من طريق : بقیة بن الوليد ، عن أبی شريح ضبارة بن مالك ، عن أبی الصلت ، عن حرملة به .

قلت : وهذا سند ضعيف جداً - أيضاً - بقیة موصوف بالتدليس والتسوية ، وقد عنعنه ، وضبارة بن مالك هو ابن عبد الله بن مالك ، ذكره ابن حبان في « الثقات » ، وقال : « يعتبر حديثه من رواية الثقات عنه » ، وذكره ابن عدى في « الكامل » ، وأورد له ستة أحاديث =

وقال بعض السلف : إذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره ، فإنما هو استدراج منه يستدرجك به ، وقد قال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا مَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فُضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . (الزخرف: ٣٣-٣٥).

= مناكير ، وقال ابن القطان : « مجهول » ، وأبو الصلت هو الشامي ، كما في ترجمة ضبارة ، ولم أقف له على ترجمة ، ولا أظنه شريح بن عبيد الذي ذكره الدولابي في « الكنى » (١١/٢) .

ورواه الدولابي في « الكنى » (١١١/١) من طريق : حجاج بن سليمان الرعيني ، عن حرملة به .

وحجاج هذا قال أبو زرعة : « منكر الحديث » ، وقال ابن يونس : « في حديثه مناكير » ، ومثله لا يتابع على حديثه .

ولكن قال ابن جرير : « حدث بهذا الحديث محمد بن حرب ، عن ابن لهيعة ، عن عقبة بن مسلم ، .. » .

قلت : وهذا الطريق لم أقف عليه .

وله طريق آخر عن ابن لهيعة عند ابن أبي الدنيا في « الشكر » (٣٢) :

حدثنا يعلى بن عبد الله الهذلي ، حدثنا بشر بن عمار ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا عقبة ابن مسلم به .

وابن لهيعة حاله مشهور ، وهذا الحديث ليس من رواية العبادلة عنه ، وكذلك فشيخ ابن أبي الدنيا وشيخه لم أتبينهما .

ورواه الطبراني في « الكبير » (٣٣٠/١٧) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (١٠٢١) من طريق : عبد الله بن صالح كاتب الليث ، عن حرملة به .

وعبد الله فيه ضعف من قبل حفظه ، وطريقه أمثل طرق هذا الحديث ، إلا أن فيه لين ، والله أعلم .

وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا﴾
(الفجر: ١٥-١٧).

أى ليس كل من نعمة ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته ، ولا كل
من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهنته ، بل أبتلى هذا بالنعم ، وأكرم
هذا بالابتلاء.

وفى جامع الترمذى عنه عليه السلام : « إن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا
يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب » (٨٠).

[٨٠] إن الله يعطى الدنيا من ...

صحيح.

رواه الإمام أحمد (٣٨٧/١) ، وأبو القاسم الأصبهاني فى « الترغيب والترهيب » (٧٢)
من طريق : الصباح بن محمد ، عن مرة الهمداني ، عن ابن مسعود ، مرفوعاً بلفظ :
« إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يعطى
الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب ، فمن أعطاه الدين فقد
أحبه..... » وذكر باقى الحديث.

قلت : وهذا السند ضعيف جداً ، فيه الصباح بن محمد البجلي ، قال ابن حبان :
« كان ممن يروى الموضوعات عن الثقات » ، وقال العقيلي : « فى حديثه وهم ، ويرفع
الموقوف ».

ورواه أبو نعيم فى « الحلية » (٣٥/٥) ، والحاكم (٣٣/١) من طريق :
أحمد بن جناب المصيصى ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن سفيان الثورى ، عن زبيد ،
عن مرة ، عن ابن مسعود به ، إلا أنه قال : « ولا يهلى الإيمان إلا لمن يحب » كذا عند
الحاكم ، وعند أبى نعيم : « الآخرة بدلاً من « الإيمان ».

قلت : وهذا سند حسن ، أحمد بن جناب ، صدوق حسن الحديث .
والحديث له متابعات عند الحاكم وأبى نعيم تدل على صحة السند لا حسنه فحسب .

وقال بعض السلف : رب مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم ،
ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم ، ورب مفتون بثناء الناس عليه
وهو لا يعلم.



فصل

الاغترار بالدنيا

* وأعظم الخلق غروراً من اغتر بالدنيا ، وعاجلها فآثرها على الآخرة ،
ورضى بها من الآخرة ، حتى يقول بعض هؤلاء : الدنيا نقد ، والآخرة
نسيئة ، والنقد أحسن من النسيئة.

ويقول بعضهم : ذرة منقودة ، ولا ذرة موعودة.

ويقول آخر منهم : لذات الدنيا متيقنة ، ولذات الآخرة مشكوك فيها ،
ولا أدع اليقين بالشك.

وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله ، والبهائم العجم أعقل من
هؤلاء ، فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تقدم عليه ولو ضربت ،
وهؤلاء يقدم أحدهم على عطبه ، وهو بين مصدق ومكذب.

فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء ، فهو من
أعظم الناس حسرة ، لأنه أقدم على علم ، وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعد له
وقول هذا القائل : النقد خير من النسيئة.

جوابه : إذا تساوى النقد والنسيئة فالنقد خير ، وإن تفاوتتا وكانت
النسيئة أكثر وأفضل فهي خير ، فكيف والدنيا كلها من أولها إلى آخرها
كنفس واحد من أنفاس الآخرة؟

كما في «مسند الإمام أحمد» والترمذى من حديث المستورد بن شداد، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم أصبعه في اليم ، فلينظر بم يرجع؟ » (٨١).

فإثار هذا النقد على النسبة من أعظم الغبن وأقبح الجهل ، وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة ، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة ؟ فأبداً أولى بالعاقل : إثارة العاجل في هذه المدة اليسيرة ، وحرمان الخير الدائم في الآخرة ، أم ترك شئ صغير حقير منقطع عن قرب ، ليأخذ مالا قيمة له ولا خطر له ، ولا نهاية لعدده ، ولا غاية لأمدّه.

فأما قول الآخر : لا أترك متيقناً لمشكوك فيه.

فيقال له : إما أن تكون على شك من وعد الله ووعيده وصدق رسله ، أو تكون على يقين من ذلك ، فإن كنت على يقين من ذلك فما تركت إلا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قرب ، لأمر متيقن لا شك فيه ولا انقطاع له.

وإن كنت على شك فراجع آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته ومشيتته ، ووحدانيته ، وصدق رسله فيما أخبروا به عن الله ، وتجرد وقم لله ناظراً أو مناظراً ، حتى يتبين لك أن ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذى لا شك فيه ، وأن خالق هذا العالم ورب السموات [٨١] ما الدنيا في الآخرة إلا كما..

صحيح.

رواه الإمام أحمد (٢٢٨/٤ و٢٢٩) ، ومسلم (٢١٩٣/٤) ، والترمذى (٢٣٢٣) ، والنسائى في «الكبرى» (تحفة ٣٧٦/٨) ، وابن ماجه (٤١٠٨) من طريق : قيس بن أبى حازم ، عن المستورد به.

والأرض يتعالى ويتقدس ويتنزه على خلاف ما أخبرت به رسله عنه ، ومن
نسبه إلى غير ذلك فقد شتمه وكذبه ، وأنكر ربوبيته وملكه ، إذ من المحال
المتنع عند كل ذى فطرة سليمة ، أن يكون الملك الحق عاجزاً أو جاهلاً ،
لا يعلم شيئاً ، ولا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يتكلم ، ولا يأمر ، ولا ينهى ،
ولا يثيب ، ولا يعاقب ، ولا يعز من يشاء ، ولا يذل من يشاء ، ولا يرسل
رساله إلى أطراف مملكته ونواحيها ، ولا يعتنى بأحوال رعيته بل يتركهم
سدى ويخليهم هملاً ، وهذا يقدر في ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به ،
فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين إليه ؟

وإذا تأمل الإنسان حاله من مبدأ كونه نقطة إلى كماله واستوائه ، تبين
له أن من عنى به هذه العناية ، ونقله في هذه الأحوال ، وصرفه في هذه
الأطوار ، لا يليق به أن يهمله ويتركه سدى ، لا يأمره ولا ينهيه ، ولا يعرفه
حقوقه عليه ، ولا يثيبه ولا يعاقبه .

ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل ما يبصره وما لا يبصره دليلاً له
على التوحيد والنبوة والمعاد ، وأن القرآن كلامه - وقد ذكرنا وجه
الاستدلال بذلك في كتاب « أيمان القرآن » عند قوله تعالى :

﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم﴾

(الحاقة: ٣٨-٤٠).

وذكرنا طرفاً من ذلك عند قوله :

﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾ (الذاريات: ٢١).

وأن الإنسان دليل على وجود خالقه وتوحيده ، وصدق رسله ،
وإثبات صفات كماله .

نقد بان أن المضيع مغرور على التقديرين : تقدير تصديقه و يقينه ،
وتقدير تكذيبه وشكه .

❑ كيف يجتمع اليقين بالمعاد ، والتخلف عن العمل؟

* فإن قلت : كيف يجتمع التصديق الجازم الذى لا شك فيه بالمعاد
والجنة والنار ويتخلف العمل؟

وهل فى الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غداً إلى بين يدي
بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة ، أو يكرمه أتم كرامة ، ويبيت ساهياً غافلاً ،
لا يتذكر موقفه بين يدي الملك ، ولا يستعد له ، ولا يأخذ له أهبته .

قيل : هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق ، فاجتماع
هذين الأمرين من أعجب الأشياء ، وهذا التخلف له عدة أسباب :

أحدها : ضعف العلم ونقصان اليقين ، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت ،
فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها .

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عياناً بعد علمه بقدرة
الرب على ذلك ، ليزداد طمأنينة ، ويصير المعلوم غيباً شهادة .

وقد روى أحمد فى « مسنده » عن النبى ﷺ أنه قال :

« ليس الخبر كالمعاين » (٨٢) .

[٨٢] ليس الخبر كالمعاين .

صحيح .

رواه الإمام أحمد (٢١٥/١ و ٢٧١) ، وابن حبان (٢٠٨٧) من طريق : هشيم ، عن
أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ : « ليس الخبر كالمعاينة ، قال
الله لموسى : إن قومك صنعوا كذا وكذا ، فلم يبال ، فلما عاين ألقى الألواح .
قلت : وهذا سند رجاله ثقات ، إلا أن هشيم موصوف بالتدليس ، وقد عنعن الإسناد .

=

ولكنه قد توبع .

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره أو غييبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده ، وانضم إلى ذلك تقاضى الطبع ، وغلبات الهوى ، واستيلاء الشهوة ، وتسويل النفس ، وغرور الشيطان ، واستبطاء الوعد ، وطول الأمل ، ورقدة الغفلة ، وحب العاجلة ، ورخص التأويل ، وإلف العوائد ، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذى يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، وبهذا السبب يتفاوت الناس فى الإيمان والأعمال ، حتى ينتهى إلى أدنى مثقال ذرة فى القلب .

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر ، ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين ، وجعلهم أئمة الدين فقال تعالى : ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ (السجدة: ٢٤).



فصل

الفرق بين حسن الظن والغرور

* فقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور ، وأن حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساق إليه فهو صحيح ، وإن دعا إلى البطالة والانهماك فى المعاصى فهو غرور ، وحسن الظن هو الرجاء ، فمن كان رجاءه هادياً له إلى الطاعة ، وزاجراً له عن المعصية ، فهو رجاء صحيح ، ومن كانت بطالته رجاء ، ورجاءه بطالة وتفريطاً ، فهو المغرور .

= فقد أخرجه البزار فى «مسنده» (كشف الأستار: ٢٠٠) ، وابن حبان فى «صحيحه» (موارد: ٢٠٨٨) من طريق : أبى داود الطيالسى ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبى بشر بسنده ، وبلغت : «ليس المعاین کاخبر ..»

وسنده صحيح .

ولو أن رجلا كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ما ينفعه فأهملها ولم يبذرها ولم يحراثها ، وحسن ظنه بأنه يأتي من مغلها ما يأتي من حرث وبذر وسقى وتعاهد الأرض لعدّه الناس من أسفه السفهاء .

وكذلك لو حسن ظنه وقوى رجاءه بأن يجيئه ولد من غير جماع أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب للعلم وحرص تام عليه ، وأمثال ذلك .

فكذلك من حسن ظنه وقوى رجاءه فى الفوز بالدرجات العلا والنعيم المقيم ، من غير تقرب إلى الله تعالى بامثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وبالله التوفيق .

وقد قال تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾
(سورة البقرة: ٢١٨).

فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانهم بهذه الطاعات؟

قال المغرورون : إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره ، الباغين على عباده المتجرئين على محارمه ، أولئك يرجون رحمة الله .

وسر المسألة : أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التى اقتضتها حكمة الله فى شرعه وقدره وثوابه وكرامته ، فيأتى العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ، ويرجوه أن لا يكله إليها ، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه ، ويضرب عما يعارضها ويبتل أثرها .



فصل

الرجاء والأمانى

* ومما ينبغي أن يُعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها : محبة ما يرجوه.

الثاني : خوفه من فواته.

الثالث : سعيه فى تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأمانى ، والرجاء شيء والأمانى شيء آخر ، فكل راج خائف ، والسائر على الطريق إذا خاف ، أسرع السير مخافة الفوات.

* وفى «جامع الترمذى» من حديث أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

« من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » (٨٣).

وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة ، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة ، فعلم أن الرجاء والخوف النافع ما اقترن به العمل ، قال تعالى:

[٨٣] من خاف أدلج...

حسن.

رواه أبو نعيم فى «الحلية» (٣٧٧/٨)، والحاكم (٣٠٨/٤) من طريق : سفیان الثورى، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبى بن كعب ، عن أبيه به ، وزاد فى آخره : « جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » .
ومسنده حسن ، لحال ابن عقيل .

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾

(المؤمنون : ٥٧-٦١).

وقد روى الترمذى فى «جامعه» عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ، فقلت : أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون ؟ فقال : « لا يا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ، ويخافون أن لا يتقبل منهم ، أولئك يسارعون فى الخيرات » .

وقد روى من حديث أبى هريرة أيضاً (٨٤).

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ، ووصف الأثقياء بالإساءة مع الأمن.

[٨٤] لا يا ابنة الصديق ..

منقطع.

رواه الإمام أحمد (٢٠٥٩/٦) ، والترمذى (٣١٧٥) ، وابن ماجه (٤١٩٨) من طريق :

مالك بن مغول ، عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب ، عن عائشة - رضى الله عنها - به .

قلت : وهذا سند رجاله ثقات ، إلا أنه منقطع ، فعبد الرحمن بن سعيد بن وهب لم يدرك عائشة - رضى الله عنها - .

وله شاهد ضعيف من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - عند ابن جرير فى «التفسير» (٢٦/١٨).

❑ خوف الصحابة من الله.

* ومن تأمل أحوال الصحابة رضى الله عنهم وجدهم فى غاية العمل مع غاية الخوف ، ونحن جمعنا بين التقصير - بل التفريط - والأمن ، فهذا الصديق رضى الله عنه يقول :

وددت أنى شعرة فى جنب عبد مؤمن ، ذكره أحمد عنه.

وذكر عنه: أنه كان يمسك بلسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد.

وكان يبكى كثيراً ويقول : ابكوا فإن لم تبكوا فنبأكوا .

وكان إذا قام للصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل.

وأتى بطائر فقلبه، ثم قال : ما صيدَ من صَيْدٍ ، ولا قطعت من شجرة إلا بما ضيعت من التسييح ، فلما احتضر ، قال لعائشة : يا بنية إنى أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذا الحلاب وهذا العبد ، فأسرعى به إلى ابن الخطاب ، وقال :

والله لوددت أنى كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد.

وقال قتادة : بلغنى أن أبا بكر قال : ليتنى خضرة تأكلنى الدواب .

وهذا عمر قرأ سورة الطور حتى بلغ :

﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ (الطور: ٧).

بكى واشتد بكاءؤه حتى مرض وعادوه.

وقال لابنه وهو فى الموت : ويحك ضع خدى على الأرض ، عساه

أن يرحمنى ، ثم قال : بل ويل أُمى ، إن لم يغفر لى - ثلاثاً - ثم قضى.

وكان يمر بالآية فى ورده بالليل فتخيفه ، فيبقى فى البيت أياماً يُعاد،

يحسبونه مريضاً، وكان في وجهه رضى الله عنه خطان أسودان من البكاء.
وقال له ابن عباس : مَصْرُ الله بك الأمصار ، وفتح بك الفتوح ،
وفعل، فقال : وددت أنى أنجو لا أجر ولا وزر.

وهذا عثمان بن عفان رضى الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكى
حتى يبل لحيته ، وقال: لو أننى بين الجنة والنار لا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى ،
لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

وهذا على بن أبى طالب رضى الله عنه وبكاؤه وخوفه ، وكان يشتد
خوفه من اثنتين : طول الأمل ، واتباع الهوى .

قال : فأما طول الأمل فينسى الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن
الحق ، ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة ، والآخرة مقبلة ، ولكل واحدة بنون ،
فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا
حساب ، وغداً حساب ولا عمل.

وهذا أبو الدرداء رضى الله عنه ، كان يقول : إن أشد ما أخاف على
نفسى يوم القيامة أن يقال لى : يا أبا الدرداء ، قد علمت ، فكيف عملت
فيما علمت؟

وكان يقول : لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاماً
على شهوة، ولا شربتم شراباً على شهوة ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه ،
ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم ، وتبكون على أنفسكم ،
ولوددت أنى شجرة تعضد ثم تؤكل .

وكان عبد الله بن عباس أسفل عينيه مثل الشراك البالى من الدموع .
وكان أبو ذر يقول : ياليتنى كنت شجرة تعضد ، وودت أنى لم

أخلق.

وعرضت عليه النفقة ، فقال : عندنا عنز نحلبها وحمير ننقل عليها ،
ومحرر يخدمنا ، وفضل عبادة ، وإنى أخاف الحساب فيها .

وقرأ تميم الدارى ليلة سورة الجاثية ، فلما أتى على هذه الآية :

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا
وعملوا الصالحات ﴾ (سورة الجاثية : ٢١) .

جعل يرددها ويبكي حتى أصبح .

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح : وددت أنى كبش فذبحنى أهلى
وأكلوا الحمى ، وحسوا مرقى .
وهذا باب يطول تتبعه .

قال البخارى فى «صحيحه» :

[باب : خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر ، وقال إبراهيم
التيمى : ما عرضت قولى على عملى إلا خشيت أن أكون مكذباً ، وقال
ابن أبى مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبى ﷺ كلهم يخاف النفاق
على نفسه ، ما منهم أحد يقول : أنه على إيمان جبريل وميكائيل ، ويذكر
عن الحسن : ما خافه إلا مؤمن ، ولا آمنه إلا منافق ، وكان عمر بن الخطاب
يقول لحذيفة : أنشدك الله هل سمانى لك رسول الله ﷺ يعنى فى
المنافقين؟ فيقول : لا ، ولا أزكى بعدك أحداً] .

فسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : ليس مراده لا أبرئ غيرك من
النفاق ، بل المراد لا أفتح على نفسى هذا الباب ، فكل من سألنى هل
سمانى لك رسول الله ﷺ فازكيه .

قلت : وقريب من هذا قول النبي ﷺ للذى سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب: « سبقك بها عكاشة » (٨٥) ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة ، ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر وانفتح الباب ، وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم ، فكان الإمساك أولى ، والله أعلم.



فصل

ضرر الذنوب فى القلب

كضرر السموم فى الأبدان

* فلنرجع إلى ما كنا فيه من ذكر دواء الداء الذى إن استمر أفسد دنيا العبد وآخرته.

فمما ينبغى أن يُعلم : أن الذنوب والمعاصى تضر ، ولا بد أن ضررها فى القلب كضرر السموم فى الأبدان على اختلاف درجاتها فى الضرر ، وهل فى الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصى ؟
فما الذى أخرج الأيوين من الجنة ، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب ؟

[٨٥] سبقك بها عكاشة.

صحيح .

رواه البخارى (١٣٥/٤-١٣٦) ، ومسلم (١٩٧/١) ، والنسائى كما فى « التحفة » (٦٦/١٠) من طريق : يونس بن يزيد الأيلى ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - به .
وله طرق أخرى عن أبى هريرة .

وما الذى أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ، ومسح
ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها ، وباطنه أقبح من صورته
وأشنع، وبُذِلَ بالقرب بعداً ، وبالرحمة لعنة ، وبالجمال قبحاً ، وبالجنة ناراً
تلظى، وبالإيمان كفرأ ، وبموالاة الولي الحميم أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل
التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور
والفحش، ولباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان ، فهان على الله
غاية الهوان، وسقط من عينيه غاية السقوط ، وحل عليه غضب الرب تعالى
فأهواه ، ومقته أكبر المقت فأرداه ، فصار قواداً لكل فاسق ومجرم، رضى
لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة ، فعياداً بك اللهم من مخالفة أمرك
وارتكاب نهيك.

وما الذى أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس
الجبال؟.

وما الذى سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه
الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية ، ودمرت ما مرت عليه من ديارهم
وحروثهم وزروعهم ودوابهم ، حتى صاروا عبرةً للأمم إلى يوم القيامة؟
وما الذى أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم فى
أجوافهم وماتوا عن آخرهم ؟

ومن الذى رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ، ثم
قلبها عليهم ، فجعل عاليها سافلها ، فأهلكهم جميعاً ، ثم أتبعهم حجارة
من السماء أمطرها عليهم ، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة
غيرهم ، ولإخوانهم أمثالها ، وما هى من الظالمين ببعيد؟

وما الذى أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل ، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلتظى ؟

وما الذى أغرق فرعون وقومه فى البحر ، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم ، فالأجساد للغرق ، والأرواح للحرق ؟
وما الذى خسف بقارون وداره وماله وأهله ؟

وما الذى أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ، ودمرها تدميراً ؟

وما الذى أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم ؟
وما الذى بعث على بنى إسرائيل قوماً أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، وقتلوا الرجال ، وسبوا الذرية والنساء ، وأحرقوا الديار ، ونهبوا الأموال ، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علوا تتيبيراً ؟

وما الذى سلط عليهم أنواع العقوبات ، مرة بالقتل والسبى وخراب البلاد ، ومرة بجور الملوك ، ومرة بمسخهم قردة وخنازير ، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى :

﴿ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾
(الأعراف: ١٦٧).

قال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثنى عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال : لما فتحت قبرص فرق بين أهلها ، فبكى بعضهم إلى بعض ، فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكى ، فقلت : يا أبا الدرداء ما يبكيك فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ؟ فقال :

ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضعاعوا أمره ، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى.

وقال على بن الجعد : أنبأنا شعبة ، عن عمرو بن مرة ، قال : سمعت أبا البختري يقول : أخبرني من سمع النبي ﷺ يقول :

« لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم »^(٨٦).

وفى «مسند الإمام أحمد» من حديث أم سلمة، قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده » فقلت : يا رسول الله ، أما فيهم يومئذ أناس صالحون ؟ قال : « بلى » ، قلت : فكيف يصنع بأولئك ؟ قال : « يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان »^(٨٧).

[٨٦] لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم....

صحيح .

رواه الإمام أحمد (٤/٢٦٠ و ٢٩٣/٥) ، وأبو داود (٤٣٤٧) من طريق : شعبة ، عن عمر بن مرة ، عن أبي البختري ، أخبرني من سمع النبي ﷺ به.

وسنده صحيح ، وأبو البختري هو سعيد بن فيروز.

[٨٧] إذا ظهرت المعاصي في أمتي ..

صحيح من حديث عائشة أو بعض أزواج النبي ﷺ .

هذا الحديث رواه الإمام أحمد (٦/٤١) : حدثنا سفيان ، عن جامع بن أبي راشد ، عن منذر - وهو الثوري - عن حسن بن محمد ، عن امرأته ، عن عائشة - رضي الله عنها - مرفوعاً بلفظ :

« إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله بأهل الأرض بأسه ».

قالت : وفيهم أهل طاعة الله عز وجل ؟ قال : « نعم ، ثم يصيرون إلى رحمة الله

تعالى ».

= وهذا سند ضعيف ، لجهالة امرأة الحسن بن محمد.

وفى مراسيل الحسن عن النبي ﷺ: « لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفى كنفه مالم يماليء قراؤها أمراءها وما لم يزك صلحاؤها فجارها وما لم يهن خيارها أشرارها ، فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم ، ثم سلب عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب ، ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر» (٨٨).

= وقد اختلف فى رواية هذا الحديث على سفيان ، وعلى الحسن.
فرواه محمود بن آدم ، عن سفيان بن عيينة ، بسنده ، إلا أنه أسقط « امرأته » من السند.

أخرجه البيهقي فى « الشعب » (٩٨/٦).
قلت : محمود بن آدم ليس من الطبقة الأولى من أصحاب ابن عيينة ، والأصح رواية الإمام أحمد .

ورواه شريك بن عبد الله ، عن جامع بن راشد ، عن منذر الثورى عن الحسن بن محمد ، قال : حدثنى امرأة من الأنصار ، وهى حبة اليوم ، إن شئت أدخلتك عليها ، قلت : لا ، حدثنى ، قالت : دخلت على أم سلمة فذكر الحديث.
أخرجه الإمام أحمد (٢٩٤/٦).

وسنده ضعيف ، لسوء حفظ شريك .
وأخرجه الحاكم (٥٢٣/٤) من طريق : عبد الله ، أخبرنا سفيان ، عن جامع ، عن أبى يعلى منذر الثورى عن الحسن بن محمد بن على ، عن مولاة لرسول الله ﷺ ، قالت : دخل النبي ﷺ على عائشة ، أو على بعض أزواج النبي ﷺ ، وأنا عنده ..
قلت : سفيان هنا هو الثورى ، وليس ابن عيينة ، وعبد الله هو ابن المبارك ، والثورى أثبت من ابن عيينة ، فلا شك أن روايته هـ هى الأصح ، وسند الحاكم صحيح.
[٨٨] لا تزال هذه الأمة تحت يد الله..

ضعيف جداً.

فمراسيل الحسن البصرى من أوهم المراسيل ، لأن أغلبها معضلات.
والحديث عزاه العراقى فى « تخريج أحاديث الإحياء » (١٥٠/٢) إلى « الفتن » لأبى عمرو الدانى.

وفى المسند من حديث ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » (٨٩).

وفيه أيضاً عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق ، كما تداعى الأكلة على قصعتها ، قلنا : يا رسول الله ، أمن قلة يومئذ ؟ قال : أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، تنزع المهابة من قلوب عدوكم ، ويجعل فى قلوبكم الوهن ، قالوا : وما الوهن ؟ قال : حب الحياة وكراهة الموت » (٩٠).

[٨٩] إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه.

ضعيف.

وقد سبق تخريجه والكلام عليه برقم (١٣).

[٩٠] يوشك أن تتداعى عليكم الأمم.

ضعيف.

رواه أبو داود (٤٢٩٧) من طريق : بشر بن بكر ، حدثنا ابن جابر ، حدثنى أبو عبد السلام ، عن ثوبان به .

قلت : وهذا سند ضعيف لجهالة أبى عبد السلام صالح بن رستم.

ولكن رواه الإمام أحمد (٢٧٨/٥) ، وأبو نعيم فى « الحلية » (١٨٢/١) من طريق : المبارك بن فضالة ، حدثنا مرزوق أبو عبد الله الحمصى ، أخبرنا أبو أسماء الرحبى ، عن ثوبان به .

وهذا سند ضعيف أيضاً ، لضعف المبارك بن فضالة ، وتصحف اسم المبارك إلى ابن المبارك فى « المسند » فليتنبه .

وله شاهد من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - .

أخرجه البخارى فى « التاريخ الكبير » (٣٤٠/٢/٢) من طريق :

ضرار بن عمرو ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة مرفوعاً به .

=

وفى «المسند» من حديث أنس، قال :

قال رسول الله ﷺ :

« لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها
وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين
يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم » (٩١).

وفى « جامع الترمذى » من حديث أبى هريرة، قال :

قال رسول الله ﷺ :

« يخرج فى آخر الزمان قوم يختلون الدنيا بالدين ، ويلبسون للناس
مسوك الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم قلوب
الذئاب، يقول الله عز وجل : أبى يغترون ؟ وعلى يجترئون ؟ فبى
حلفت، لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم فيها حيران » (٩٢).

= قلت : وضرار هذا ترجمه البخارى ولم يورد فيه جرحاً ولا تعديلاً ، وفرق بينه وبين
ضرار بن عمرو الذى يروى عن أبى عبد الله الشامى ، وقال فى هذا الأخير : « فيه نظر » ،
وأما ابن أبى حاتم فجعلهما واحداً وتبع أباه فى ذلك ، وضرار الأخير هذا هو الملقب ، وقد
قال فيه ابن معين : « لا شيء » ، وجرحه وجرح البخارى من الجرح الشديد للراوى ،
بمعنى أنه متهم ، فسواء كانا واحداً ، أم اثنين فالسند ضعيف ، إما بالجرح ، وإما بالجهالة ،
والله أعلم.

[٩١] لما عرج بى مررت ..

رجال إسناده ثقات.

وقد سبق الكلام عليه برقم (٤٧) .

[٩٢] يخرج فى آخر الزمان قوم ..

ضعيف.

وهو مخرج فى جزء « ذم قرناء السوء » لابن عساكر ، بتحقيقنا.

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قال علي : يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه ، مساجدهم يو معذ عامرة ، وهي خراب من الهدى ، علماؤهم شر من تحت أديم السماء ، منهم خرجت الفتنة ، وفيهم تعود .

وذكر من حديث : سماك بن حرب ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود ، عن أبيه ، قال :

إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله عز وجل بهلاكها . (٩٣)

[٩٣] إذا ظهر الزنا والربا

مضطرب .

عزاه الهيثمي في «المجمع» (١١٨/٤) بأطول من هذا إلى أبي يعلى في «مسنده» ، وقال : «إسناده جيد» .

قلت : اختلف فيه على سماك .

فرواه الطبراني في «الكبير» (١٧٨/١) من طريق : هاشم بن مرزوق ، حدثنا عمرو بن أبي قيس ، عن سماك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مرفوعاً :
«إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم كتاب الله عز وجل» .

ورواه الحاكم (٣٧/٢) من طريق : محمد بن سعيد بن سابق ، حدثنا عمرو بن أبي قيس ، عن سماك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال :
نهى رسول الله ﷺ أن تشتري الشجرة حتى تطعم ، وقال :
«إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله» .
وصححه الحاكم .

قلت : بل هو مضطرب ، لاختلاف الطرق فيه على سماك ، وهو ممن لا يحتمل تعدد الطرق عنه ، بل هو متكلم في حفظه ، لا سيما في روايته عن عكرمة .

ومن مراسيل الحسن: إذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل ، وتحابوا
بالألسنة وتباغضوا بالقلوب ، وتقاطعوا الأرحام ، لعنهم الله عز وجل عند
ذلك ، فأصمهم وأعمى أبصارهم.

وفي «سنن ابن ماجه» من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب، قال:
كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله ﷺ، فأقبل
علينا رسول الله ﷺ بوجهه، فقال: «يا معشر المهاجرين ، خمس خصال
أعوذ بالله أن تدركوهن : ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا
ابتلوا بالطواغيت والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا ، ولا
نقص قوم في المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور
السلطان ، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، فلولا
البهائم لم يمتطروا ، ولا خفر قوم العهد إلا سلب الله عليهم عدواً من
غيرهم ، فأخذوا بعض ما في أيديهم ، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله
عز وجل في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم» (٩٤).

[٩٤] ما ظهرت الفاحشة في قوم..

منكر.

رواه ابن ماجه (٤٠١٩) من طريق : ابن أبي مالك ، عن أبيه ، عن عطاء بن أبي رباح ،
عن ابن عمر به.

قلت : وهذا سند ضعيف جداً، آفته ابن أبي مالك ، وهو خالد بن يزيد بن عبد الرحمن
ابن أبي مالك ، وهو متروك واهي الحديث.

ولكن رواه الحاكم (٥٤٠/٤) من طريق: أبي معبد حفص بن غيلان ، عن عطاء بن
أبي رباح ، قال: كنت مع عبد الله بن عمر فذكر قصة في أوله ، وزيادة في آخره .
وفيه نكارة ، حفص بن غيلان مختلف فيه، وعلى أفضل الأحوال هو صدوق ، إلا أنه
لا يحتمل من مثله التفرد بمثل هذا الحديث.

ولا يعد السند السابق متابعة له ، لأنه غير محفوظ.

=

وفي «المسند» و«السنن» من حديث عمرو بن مرة، عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ :

«إن من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه الناهي تعذيراً ، فإذا كان الغد جالسه وأكله وشاربه ، كأنه لم يره على خطيئة بالأمس ، فلما رأى الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ، ثم لعنهم على لسان نبيهم داود ، وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، والذي نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتتهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد السفية ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم» (٩٥).

وذكر ابن أبي الدنيا : عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني ، قال : أوحى الله إلى يوشع بن نون : إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم ، وستين ألفاً من شرارهم ، قال : يا رب ، هؤلاء الأشرار ، فما بال الأخيار ؟ قال : لم يغضبوا لغضبي ، وكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم .

وذكر أبو عمر بن عبد البر : عن أبي عمران ، قال : بعث الله عز وجل ملكين إلى قرية ، أن دمرها بمن فيها ، فوجدا رجلاً قائماً يصلي في مسجد ، فقالا : يا رب ، إن فيها عبدك فلاناً يصلي ، فقال الله عز وجل : دمرها ودمرها معهم ، فإنه ما تمعر وجهه في قط .

= وللحديث أسانيد أخر ذكرها الشيخ الألباني - حفظه الله - في «الصحيحة» (١٦٨/١) ولا يصح منها شيء ، والمتن فيه نكارة .

[٩٥] إن من كان قبلكم.....

ضعيف وفيه اضطراب .

وقد فصلت الكلام عليه في تخريجي لأحاديث «البدع والنهي عنها» لابن وضاح

(٢٦٢)

وذكر الحميدي : عن سفيان بن عيينة ، قال : حدثنا سفيان بن سعيد ، عن مسعر : أن ملكاً أمر أن يخسف بقرية ، فقال : يا رب ، إن فيها فلاناً العابد ، فأوحى الله عز وجل إليه : أن به فابداً ، فإنه لم يتمر وجهه في ساعة قط .

وذكر ابن أبي الدنيا : عن وهب بن منبه ، قال : لما أصاب داود الخطيئة قال : يا رب اغفر لي ، قال : قد غفرت لك ، وألزمت عارها بني إسرائيل ، قال : يا رب ، كيف وأنت الحكم العدل لا يظلم أحداً ، أنا أعمل الخطيئة وتلزم عارها غيري ؟ فأوحى الله إليه : إنك لما عملت الخطيئة لم يعجلوا عليك بالإنكار .

وذكر ابن أبي الدنيا : عن أنس بن مالك : أنه دخل على عائشة ، هو ورجل آخر ، فقال لها الرجل : يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة ، فقالت :

إذا استباحوا الزنا ، وشربوا الخمر ، وضربوا بالمعازف غار الله عز وجل في سمائه ، فقال للأرض : تزلزلي بهم ، فإن تابوا ، ونزعوا ، وإلا هدمها عليهم ، قال : يا أم المؤمنين ، أعذاباً لهم ؟ قالت : بل ، موعظة ورحمة للمؤمنين ، ونكالاً وعذاباً وسخطاً على الكافرين ، فقال أنس : ما سمعت حديثاً بعد رسول الله ﷺ أنا أشد فرحاً به مني بهذا الحديث .

وذكر ابن أبي الدنيا حديثاً مرسلًا (*) :

أن الأرض تزلزلت على عهد رسول الله ﷺ ، فوضع يده عليها ، ثم قال : « اسكني ، فإنه لم يأن لك بعد » ثم التفت إلى أصحابه ، فقال : « إن

(*) الأقرب عندي أنه مخرج في كتاب «العقوبات» لابن أبي الدنيا ، وهو مخطوط ، وقد رواه ابن أبي شيبه (٢٢١/٢) من طريق : ليث بن أبي سليم ، عن شهر بن حوشب مرسلًا ، واقتصر على قوله : « إن ربكم يستعقبكم فاعتبوه » .

وسنده ضعيف لإرساله من جهة ، ولضعف ليث من جهة أخرى .

ربكم ليستعجبكم فأعقبوه» ، ثم تزلزلت بالناس على عهد عمر بن الخطاب فقال: أيها الناس ما كانت هذه الزلزلة إلا على شيء أحدثتموه ، والذي نفسي بيده لئن عادت لا أساكنكم فيها أبداً.

وفى «مناقب عمر» لابن أبي الدنيا :

أن الأرض تزلزلت على عهد عمر فضرب يده عليها ، وقال : مالك ؟ أما إنها لو كانت القيامة حدثت أخبارها ، سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«إذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر إلا وهو ينطق» (*).

وذكر الإمام أحمد : عن صفية ، زلزلت المدينة على عهد عمر فقال : يا أيها الناس ، ما هذا؟ ما أسرع ما أحدثتم ، لئن عادت لا أساكنكم فيها . (**)

وقال كعب : إنما تزلزل الأرض إذا عمل فيها بالمعاصي فترعد فرقا من الرب جل جلاله أن يطلع عليها .

(*) حديث واه جداً ، ولا يستبعد وضعه.

رواه ابن أبي الدنيا في «مناقب عمر» كما ذكر المصنف والسيوطي في «كشف الصلصلة» (ص: ٤٦) ، وعزاه محقق «كشف الصلصلة» إلى العقوبات لابن أبي الدنيا ، وذكر سنده عنده ، وهو : حدثني عمر بن الحارث الهمداني ، حدثني رجاء بن سلمة بن رجاء ، حدثني أبي ، عن سعد بن طريف ، عن الحكم بن عتيبة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عمر ، قال : ... فذكره.

وفيه سعد بن طريف وهو واه متهم بالوضع.

(**) رواه ابن أبي شيبة (٢٢١/٢) بسند صحيح إلى صفية.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار : أما بعد ، فإن هذا الرجف شيء يعاتب الله عز وجل به العباد ، وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا في يوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا ، فمن كانت عنده شيء فليتصدق به ، فإن الله عز وجل يقول :

﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى﴾ (الأعلى : ١٤ و ١٥) .
وقولوا كما قال آدم :

﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف : ٢٣)

وقولوا كما قال نوح :

﴿وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾ (هود : ٤٧)
وقولوا كما قال يونس :

﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ (*) (الأنبياء : ٨٧) .
وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن الأعمش ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عمر ، قال :
سمعت رسول الله ﷺ ، يقول :

« إذا ضنَّ الناس بالدينار والدرهم ، وتبايعوا بالعينة ، وتبعوا أذناب البقر ، وتركوا الجهاد في سبيل الله ، وأنزل الله بهم بلاءً لا

(*) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٣٠٤/٥) بسند صحيح.

يرفعه حتى يراجعوا دينهم» رواه أبو داود بإسناد حسن (٩٦) .

وذكر ابن أبي الدنيا : من حديث ابن عمر ، قال : لقد رأيتنا وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم ، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول :
« إذا ضنَّ الناس بالدينار والدرهم ، وتبايعوا بالعينة ، وتركوا الجهاد في سبيل الله ، وأخذوا أذناب البقر ، أنزل الله عليهم من السماء بلاءً ، فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم » (٩٧) .

[٩٦] إذا ضنَّ الناس بالدينار والدرهم.

حسن .

رواه أبو داود (٣٤٦٢) من طريق : إسحاق أبي عبد الرحمن ، أن عطاء الخرساني حدثه أن نافعاً حدثه ، عن ابن عمر به .

قلت : وهذا سند ضعيف ، فيه إسحاق بن أسيد وهو مجهول ، وعطاء الخرساني فيه ضعف .

ولكن رواه الإمام أحمد (٢٨/٢) من طريق : أبي بكر بن عياش ، عن الأعمش ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عمر به .

قلت : وهذا سند صحيح لولا عنعنة الأعمش ، فهو مدلس .

وله طريق آخر عند أحمد (٤٢/١) : حدثنا يحيى بن عبد الملك بن أبي غنية ، أنبأنا أبو حيان - وتصحف في « المطبوعة » إلى (أبو حباب) - عن شهر بن حوشب ، عن ابن عمر به .

قلت : وهذا سند حسن ، لحال شهر بن حوشب وأبو حيان هو التميمي .

[٩٧] إذا ضنَّ الناس بالدينار ..

ضعيف من هذا الوجه .

فقد رواه ابن أبي الدنيا في « العقوبات » - كما في « الصحيحة » للشيخ الألباني (١٦/١) - وأبو نعيم في « الحلية » (٣١٣/١) من طريق : ليث ، عن عطاء ، عن ابن عمر به . وليث هو ابن أبي سليم ، وهو ضعيف الحديث .

وقال الحسن : إن الفتنة والله ما هي إلا عقوبة من الله عز وجل على الناس .

ونظر بعض أنبياء بنى إسرائيل إلى ما يصنع بهم باختصر ، فقال : بما كسبت أيدينا سلطت علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا .

وقال باختصر لدانيل : ما الذى سلطنى على قومك ؟ قال : عظم خطيئتك وظلم قومى أنفسهم .

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث عمار بن ياسر ، وحذيفة ، عن النبى ﷺ :

« إن الله عز وجل إذا أراد بالعباد نقمة أمات الأطفال ، وأعقم أرحام النساء ، فتزل النقمة وليس فيهم مرحوم » (٩٨).

وذكر عن مالك بن دينار ، قال : قرأت فى الحكمة : يقول الله عز وجل :

أنا الله مالك الملوك ، قلوب الملوك بيدى ، فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ، ولكن توبوا إلىَّ أعطفهم عليكم .

ومن مراسيل الحسن :

إذا أراد الله بقوم خيراً جعل أمرهم إلى حلمائهم ، وفيئهم عند سمحائهم ، وإذا أراد الله بقوم شراً جعل أمرهم إلى سفهائهم ، وفيئهم عند بخلائهم .

[٩٨] إن الله عز وجل إذا أراد بالعباد نقمة .

لم أقف على إسناده .

ولعله فى كتاب «العقوبات» لابن أبى الدنيا.

وذكر الإمام أحمد وغيره: عن قتادة ، قال : قال موسى : يا رب أنت في السماء ، ونحن في الأرض ، فما علامة غضبك من رضاك؟ قال: إذا استعملت عليكم خياركم ، فهو علامة رضائي عنكم، وإذا استعملت عليكم شراركم فهو علامة سخطي عليكم (*).

وذكر ابن أبي الدنيا: عن الفضيل بن عياض ، قال : أوحى الله إلى بعض الأنبياء : إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني .

وذكر أيضا من حديث ابن عمر يرفعه :

«والذى نفسى بيده ، لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة ، ووزراء فجرة ، وأعواناً خونة ، وعرفاء ظلمة ، وقراء فسقة ، سيماهم سيماء الرهبان، وقلوبهم أنتن من الجيف ، أهواؤهم مختلفة، فيفتح الله لهم فتنة غرباء مظلمة فيتهاوكون فيها، والذى نفس محمد بيده لينقضن الإسلام عروة عروة ، حتى لا يقال الله الله ، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب، ثم يدعو خياركم، فلا يستجاب لهم، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليعثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم ، ولا يوقر كبيركم» (٩٩).

وفى «معجم الطبراني» وغيره من حديث سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «ما طفف قوم كيلا ، ولا بخسوا ميزانا ، إلا منعهم الله عز وجل القطر، وما ظهر فى قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت، وما ظهر فى قوم الربا إلا سلط الله عليهم الجنون، ولا ظهر فى قوم القتل - يقتل بعضهم بعضاً - إلا سلط الله عليهم عدوهم ، ولا ظهر فى قوم عمل قوم لوط إلا ظهر فيهم الخسف، وما ترك قوم الأمر

(*) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٣٣٧) بسند ضعيف.

[٩٩] والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة .

لم أقف على إسناده .

بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم» .

ورواه ابن أبي الدنيا من حديث إبراهيم بن الأشعث ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن أبيه ، عن سعيد به (١٠٠) .

وفى « المسند » وغيره من حديث عروة ، عن عائشة ، قالت : دخل على رسول الله ﷺ وقد حفزه النفس ، فعرفت في وجهه أن قد حفزه شيء ، فما تكلم حتى توضأ ، وخرج فلصقت بالحجرة ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « يا أيها الناس ، إن الله عز وجل يقول لكم : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم ، وتستصروني فلا أنصركم ، وتسألوني فلا أعطيكم » (١٠١) .

[١٠٠] ما طفف قوم كيلا ..

منكر .

في سند ابن أبي الدنيا الذي ذكره المصنف إبراهيم بن الأشعث ، وهو صاحب منكير ، وعبد الرحمن بن زيد وهو ابن أسلم ، ضعيف الحديث .

[١٠١] يا أيها الناس ، إن الله عز وجل يقول لكم ..

منكر .

رواه الإمام أحمد في « المسند » (١٥٩/٦) : حدثنا أبو عامر ، حدثنا هشام يعني ابن سعد ، عن عثمان بن عمرو بن هانئ ، عن عاصم بن عمر بن عثمان ، عن عروة ، عن عائشة به .

قلت : وهذا سند منكر ، تفرد به عاصم بن عمر عن عروة ، وهو مجهول ، وعثمان بن عمرو ترجمه ابن أبي حاتم في « الجرح والتعديل » (١٦٢/٣/١) ، ونقل عن أبيه قوله : « لا أعرفه » .

قلت : وهذا الاسم مقلوب وإنما هو عمرو بن عثمان بن هانئ .

فقد رواه ابن ماجه (٤٠٠٤) : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا معاوية بن هشام ،

عن هشام بن سعد ، عن عمرو بن عثمان ، عن عاصم .. به .

وقال العمري الزاهد : إن من غفلتك عن نفسك ، وإعراضك عن الله أن ترى ما يسخط الله فتتجاوزة ، ولا تأمر فيه ، ولا تنهى عنه ، خوفاً ممن لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً .

وقال : من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة من المخلوقين ، نزعت منه الطاعة ، ولو أمر ولده أو بعض مواليه لا ستخف بحقه .

وذكر الإمام أحمد في «مسنده» من حديث قيس بن أبي حازم قال :
قال أبو بكر الصديق :

أيها الناس، إنكم تتلون هذه الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها.
﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾
(المائدة : ١٠٥) .

وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه - وفي لفظ : إذا رأوا المنكر فلم يغيروه - أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » (١٠٢) .

= ولذا قال الحافظ في ترجمة عمرو بن عثمان بن هانئ من « التهذيب » (٦٩/٨) :
ووقع في رواية أحمد بن حنبل ، عن أبي عامر ، عن هشام بن سعد ، عن عثمان بن عمرو بن هانئ ، فكأنه انقلب ، وقد رواه الذهلي عن أبي همام - (كذا في التهذيب ولعلها : عن أبي عامر) ، عن هشام بن سعد ، على الصواب .

قلت : وعمر بن عثمان بن هانئ هذا مستور ، والله أعلم .
[١٠٢] إن الناس إذا رأوا الظالم ..

صحيح .

أخرجه الإمام أحمد (٢/١) ، وأبو داود (٤٣٣٨) ، والترمذي (٢١٦٨ و٣٠٥٧) ، والنسائي في « الكبرى » (تحفة : ٣٠٣/٥) ، وابن ماجه (٤٠٠٥) من طرق : عن إسماعيل ابن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن أبي بكر - رضي الله عنه - .

وسنده صحيح .

واختلف في وقفه ورفعته ، والأصح الرفع والله أعلم .

وذكر الأوزاعي: عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خفيت الخطيئة لم تضر إلا صاحبها، وإذا ظهرت فلم تغير، ضرت العامة» (١٠٣).

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب: توشك القرى أن تخرب وهي عامرة! قيل: وكيف تخرب وهي عامرة؟ قال: إذا علا فجارها أبرارها، وساد القبيلة منافقوها.

وذكر الأوزاعي: عن حسان بن عطية، عن النبي ﷺ قال: «سيظهر شرار أمتي على خيارها، حتى يستخفي المؤمن فيهم، كما يستخفي المنافق فينا اليوم» (١٠٤).

وذكر ابن أبي الدنيا: من حديث ابن عباس يرفعه قال: «يأتي زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح في الماء»، قيل: مما ذاك يا رسول الله؟ قال: «مما يرى من المنكر لا يستطيع تغييره» (١٠٥).

[١٠٣] إذا خفيت الخطيئة لم تضر إلا صاحبها.. موضوع.

رواه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» (٢٦٨/٧) وفي سننه مروان بن سالم الغفاري وهو متروك متهم، حتى قال فيه أبو عروبة الخرائي: «كان يضع الحديث»، وقال الساجي: «كذاب يضع الحديث».

[١٠٤] سيظهر شرار أمتي..

معضل.

فحسان بن عطية إنما يروى عن طبقة كبار التابعين، فالظن بروايته هذه أن تكون معضلة.

[١٠٥] يأتي زمان يذوب فيه قلب المؤمن..

ضعيف

=

لم أقف عليه من حديث ابن عباس - رضى الله عنهما -

وذكر الإمام أحمد : من حديث جرير أن النبي ﷺ قال : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، هم أعز أو أكثر ممن يعمله ، لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب » (١٠٦).

وفي «صحيح البخارى» عن أسامة بن زيد ، قال :

سمعت رسول الله ﷺ ، يقول :

« يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أفتابه فى النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع عليه أهل النار ، فيقولون : يا فلان ، ما شأنك ؟ أألمت كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : بلى ، إني كنت آمركم بالمعروف ولا آتية ، وأنهاكم عن المنكر وآتية » (١٠٧)

= ولكن رواه ابن وضاح فى «البدع والنهى عنها» (ص : ٩٢) من طريق :

أشرس بن ربيعة ، قال : حدثنا عطاء بن ميسرة الخرساني عن النبي ﷺ به مرسلا .

قلت : وهذا سند ضعيف ، فإن عطاء بن ميسرة صاحب أخطاء وأوهام ، وروايته عن النبي عليه السلام معضلة ، وأشرس بن ربيعة مجهول الحال ، فقد أورده ابن أبى حاتم فى «الجرح والتعديل» (٣٢٢/١/١) وذكر روايته عن عطاء الخرساني ، ولم يورد فيه جرْحاً ولا تعديلاً .

(١٠٦) ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ..

ضعيف .

وقد تكلمت عليه بما يغنى عن الإعادة هنا فى تخريج أحاديث «البدع والنهى عنها»

لابن وضاح (٢٧٧).

[١٠٧] يجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار .

صحيح .

رواه البخارى (٢١٩/٢-٢٢٠) ، ومسلم (٢٢٩٠/٤) من طريق : أبى وائل شقيق

ابن سلمة ، عن أسامة بن زيد رضى الله عنه به .

وذكر الإمام أحمد: عن مالك بن دينار قال : كان حبر من أحبار بنى إسرائيل يغشى منزله الرجال والنساء ، فيعظهم ويذكرهم بأيام الله ، فرأى بعض بنيه يوماً يغمز النساء ، فقال : مهلاً يا بنى ، مهلاً يا بنى ، فسقط من سريره ، فانقطع نخاعه ، وأسقطت امرأته ، وقتل بنوه ، فأوحى الله إلى نبيهم أن أخبر فلاناً الحبر : أنى لا أخرج من صلبك صديقاً ، أبداً ، ما كان غضبك لى ، إلا أن قلت : مهلاً يا بنى .

وذكر الإمام أحمد: من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود، والرجل يجىء بالعود حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها» (١٠٨).

وفى «صحيح البخارى»: عن أنس بن مالك قال :

إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق فى أعينكم من الشعر ، وإن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات (١٠٩) .

[١٠٨] إياكم ومحقرات الذنوب ..

ضعيف ، وله شاهد صحيح .

وقد سبق تخريجه ، برقم (٧١) .

[١٠٩] إنكم لتعملون أعمالاً ..

صحيح .

رواه البخارى (١٢٧/٤) : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا مهدي ، عن غيلان ، عن أنس به .

وهو مخرج عند الإمام أحمد فى «المسند» ، وعند الدارمى فى «السنن» .

وفى «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت ، فدخلت النار ، لا هي أطعمتها ولا سقتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض» (١١٠).

وفى «الحلية» لأبى نعيم: عن حذيفة أنه قيل له: فى يوم واحد تركت بنو إسرائيل دينهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه، وإذا نهوا عن شيء تركوه، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه (*). ومن ههنا قال بعض السلف : المعاصى يريد الكفر ، كما أن القُبلة يريد الجماع ، والغناء يريد الزنا، والنظر يريد العشق ، والمرض يريد الموت.

وفى «الحلية» أيضا: عن ابن عباس أنه قال : يا صاحب الذنب لا تأمن سوء عاقبته ، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته : قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال - وأنت على الذنب- أعظم من الذنب ، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب ، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب ، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب ، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب ، ويحك هل تدري ما كان ذنب أيوب فابتلاه الله بالبلاء فى جسده وذهاب ماله ؟ استغاث به مسكين على ظالم يدرؤه عنه ، فلم يعنه ، ولم ينه الظالم عن ظلمه ، فابتلاه الله (**).

[١١٠] عذبت امرأة فى هرة ..

صحيح .

رواه البخارى (٢/٢٦٣) ، ومسلم (٤/٢٠٢٢) من طريق : جويرية بن أسماء ، عن نافع ، عن ابن عمر به.

وله طريق أخرى عن نافع ، وله شاهد من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - .

(*) رواه أبو نعيم فى الحلية : ٣٢٤/١٠٠ بسند واه.

(**) رواه أبو نعيم (١/٢٧٨) بسند صحيح.

قال الإمام أحمد : حدثني الوليد، قال : سمعت الأوزاعي ، يقول : سمعت بلال بن سعد، يقول : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ، ولكن انظر إلى من عصيت . (*)

وقال الفضيل بن عياض : بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله ، وبقدر ما يعظم عندك ، يصغر عند الله .

وقيل : أوحى الله إلى موسى ، يا موسى إن أول من مات من خلقي إبليس ، وذلك أنه عصاني ، وإنما أعد من عصاني من الأموات .

وفي «المسند» و«جامع الترمذی»: من حديث أبي صالح عن أبي هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلق قلبه ، فذلك الران الذي ذكره عز وجل » .

﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾^(١١١) (المطففين: ٤٤)

قال الترمذی : «هذا حديث حسن صحيح» .

وقال حذيفة : إذا أذنب العبد ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كالشاة الربداء .

[١١١] إن المؤمن إذا أذنب ذنباً...

صحيح .

رواه الإمام أحمد (٢/٢٩٧) ، والترمذی (٣٣٤) ، والنسائي في «الكبرى» (تحفة: ٤٤٣/٩) ، وفي «اليوم والليلة» (٤٢١) ، وابن ماجه (٤٢٤٤) من طرق : عن محمد بن عجلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة به .

وسنده صحيح .

(*) إسناده صحيح .

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب، حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ، قال: «أما بعد يا معشر قريش، فإنكم أهل لهذا الأمر ما لم تعصوا الله، فإذا عصيتموه بعث عليكم من يلحكم كما يلحي هذا القضيب بقضيب في يده ثم لحى قضيبه فإذا هو أبيض يصلد» (١١٢).

وذكر الإمام أحمد: عن وهب قال: إن الله عز وجل قال في بعض ما يقول لبنى إسرائيل: «إني إذا أطعت رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية، وإذا عصيت غضبت، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تبلغ السابع من الولد» (*).

وذكر أيضا: عن وكيع، حدثنا زكريا، عن عامر قال: كتبت عائشة إلى معاوية: أما بعد: فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذامًا. (**)

[١١٢] أما بعد : يا معشر قريش ..

منقطع .

رواه الإمام أحمد (٤٥٨/١) من الطريق الذي ذكره المصنف .
قال الحافظ في الفتح (٩٩/١٣): «رجالهم ثقات، إلا أنه من رواية عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عم أبيه عبد الله بن مسعود، ولم يدركه»، وهو كما قال.
وغفل العلامة الألباني - حفظه الله - عن هذه العلة، في «الصححة» (١٥٥٢)، فقال: «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين» .
كذا قال، وليس على شرط أحدهما، وإنما أخرج مسلم حديثًا، من رواية عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن مسعود في مقدمة «الصحيح» والمقدمة ليس لها شرط الصحيح فتنبه .

(*) سبق تخريجه برقم (٣٥).

(**) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٢٠٦)، ورجال إسناده ثقات، إلا أنه معلول بالإرسال بين الشعبي وعائشة رضي الله عنها، وكذلك فزكريا ابن أبي زائدة كثير التدليس عن الشعبي .

وذكر أبو نعيم : عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي الدرداء قال :
ليحذر امرؤ أن تلعه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر ، ثم قال :
تدرى مم هذا ؟ قلت : لا ، قال : إن العبد يخلو بمعاصي الله ، فيلقى الله
بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر .(*)

وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب « الزهد » لأبيه : عن محمد بن
سيرين : أنه لما ركب الدين اغتم لذلك ، فقال : إني لأعرف هذا الغم بذنوب
أصبته منذ أربعين سنة .

□ التأثير الآجل والعاجل للذنوب.

وها هنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب ، وهي : أنهم لا
يرون تأثيره في الحال ، وقد يتأخر تأثيره فينسى ، ويظن العبد أنه لا يغير بعد
ذلك ، وأن الأمر كما قال القائل :

إذا لم يغير حائط في وقوعه فليس له بعد الوقوع غبار .

وسبحان الله ! ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق ؟ وكم أزالته من
نعمة ؟ وكم جلبت من نقمة ؟ وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء ،
فضلاً عن الجاهل ! ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين كما
ينقض السم وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدغل .

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء : اعبدوا الله كأنكم ترونه
وعدوا أنفسكم في الموتى ، واعلموا أن قليلاً يغنيكم خير من كثير يلهيكم ،
واعلموا أن البر لا ييلي ، وأن الإثم لا ينسى .(**)

ونظر بعض العباد إلى صبي ، فتأمل محاسنه ، فأتى في منامه ، وقيل
له : لتجدن غيبها بعد أربعين سنة .

(*) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢١٥/١) وسنده مرسل ، سالم بن أبي الجعد لم يدرك أبا
الدرداء .

(**) رواه أحمد في « الزهد » (ص : ١٦٨) ، وأبو داود في « الزهد » (٢٤٠) بسند رجاله

ثقات .

وهذا مع أن الذنب نقداً معجلاً لا يتأخر عنه، قال سليمان التيمي : إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : عجبت من ذى عقل يقول فى دعائه : اللهم لا تشمت بى الأعداء ، ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : يعصى الله ويشمت به فى القيامة كل عدو .

وقال ذو النون : من خان الله فى السر ، هتك الله ستره فى العلانية .



فصل

من آثار المعاصى

* وللمعاصى من الآثار القبيحة المذمومة ، المضرة بالقلب والبدن فى الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله .

* فمنها : حرمان العلم ، فإن العلم نور يقذفه الله فى القلب ، والمعصية تطفى ذلك النور .

ولما جلس الإمام الشافعى بين يدى مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته ، وتوقد ذكائه ، وكمال فهمه ، فقال : إنى أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً ، فلا تطفئه بظلمة المعصية .

وقال الشافعى رحمه الله :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى فأرشدنى إلى ترك المعاصى

وقال اعلم بأن العلم فضل وفضل الله لا يؤتاه عاصى

* ومنها : حرمان الرزق وفى المسند « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب

يصيبه » (*) وقد تقدم ، وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق ، فترك التقوى مجلبة للفقر ، فما استجلب رزق بمثل ترك المعاصى .

(*) تقدم تخريجه برقم (١٣) .

* ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة، وما لجرح بميت إيلام، فلو لم تترك الذنوب إلا حذراً من وقوع تلك الوحشة، لكان العاقل حرياً بتركها.

وشكا رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه، فقال له :
إذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس
وليس على القلب أمرٌ من وحشة الذنب على الذنب، فإلله المستعان .

* ومنها : الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهم، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم، وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم، وحرم بركة الانتفاع بهم، وقرب من حزب الشيطان، بقدر ما بعد من حزب الرحمن، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم، فتقع بيه وبين امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبين نفسه، فتراه مستوحشاً من نفسه.
وقال بعض السلف :

إنى لأعصى الله، فأري ذلك في خلق دابتي وامراتي .

* ومنها: تعسير أموره عليه، فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه أو متعسراً عليه، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسراً، فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسراً، وبالله العجب ! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه وطرقها معسرة عليه، وهو لا يعلم من أين أتى؟

* ومنها : ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فإن الطاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته، حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشى وحده، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في

العين، ثم تقوى حتى تملو الوجه ، وتصير سواداً فيه يراه كل أحد .

قال عبد الله بن عباس : إن للحسنة ضياءً في الوجه ، ونوراً في القلب ، وسعة في الرزق ، وقوة في البدن ، ومحبة في قلوب الخلق ، وإن للسيئة سواداً في الوجه ، وظلمة في القلب ، وهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق وبغضة في قلوب الخلق .

* ومنها : أن المعاصي توهن القلب والبدن ، أما وهنها للقلب فأمر ظاهر ، بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية .

وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته في قلبه ، وكلما قوى قلبه قوى بدنه ، وأما الفاجر فإنه - وإن كان قوى البدن - فهو أضعف شيء عند الحاجة ، فتحونه قوته أحوج ما يكون إلى نفسه .

وتأمل قوة أبدان فارس والروم ، كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها ، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم ؟ !

* ومنها : حرمان الطاعة ، فلو لم يكن للذنوب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله ، وتقطع طريق طاعة أخرى ، فينقطع عليه بالذنوب طريق ثلاثة ، ثم رابعة ، وهلم جرا ، فينقطع عليه بالذنوب طاعات كثيرة ، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها ، وهذا كرجل أكل أكلة أو جبت له مرضة طويلة منعه من عدة أكالات أطيب منها ، والله المستعان .

□ طول العمر وقصره .

* ومنها : أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولا بد ، فإن البر كما يزيد في العمر ، فالفجور يقصر العمر .

وقد اختلف الناس في هذا الموضع .

فقالت طائفة : نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره ومحققها عليه ، وهذا حق ، وهو بعض تأثير المعاصي .

وقالت طائفة : بل تنقصه حقيقة ، كما تنقص الرزق ، فجعل الله سبحانه للبركة فى الرزق أسباباً كثيرة تكثره وتزيده ، وللبركة فى العمر أسباب تكثره وتزيده .

قالوا : ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب ، فالأرزاق والآجال ، والسعادة والشقاوة ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر ، وإن كانت بقضاء الرب عز وجل ، فهو يقضى ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها .

وقالت طائفة أخرى : تأثير المعاصى فى محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هى حياة القلب .

ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتاً غير حى ، كما قال تعالى :

﴿ أموات غير أحياء ﴾ (النحل : ٢١) .

فالحياة فى الحقيقة حياة القلب ، وعمر الإنسان مدة حياته ، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله ، فتلك ساعات عمره ، فالبر والتقوى والطاعة تزيد فى هذه الأوقات التى هى حقيقة عمره ، ولا عمر له سواها .

وبالجملة فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصى ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التى يجد غب إضاعتها يوم يقول :

﴿ يا ليتنى قدمت لحياتى ﴾ (الفجر : ٢٤) .

فلا يخلو ، إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية ، أو : لا ، فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله ، وذهبت حياته باطلاً ، وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق ، وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها وذلك نقصان حقيقى من عمره .

*وسر المسألة: أن عمر الإنسان مدة حياته ، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه ، والتنعم بحبه وذكره ، وإيثار مرضاته .

فصل

توالد المعاصي

*ومنها: أن المعاصي تزرع أمثالها ، ويولد بعضها بعضاً ، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها ، كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها ، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها : اعملني أيضاً ، فإذا عملها قالت الثالثة كذلك وهلم جرا ، فتضاعف الربح ، وتزايدت الحسنات .

وكذلك جانب السيئات أيضاً ، حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة ، وصفات لازمة ، وملكات ثابتة ، فلو عطل المحسن الطاعة لضاعت عليه نفسه ، وضاعت عليه الأرض بما رحبت ، وأحس من نفسه بأنه كالحوت ، إذا فارق الماء حتى يعاودها ، فتسكن نفسه وتقر عينه .

فلو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاعت عليه نفسه ، وضاع صدره ، وأعيت عليه مذاهبه ، حتى يعاودها ، حتى إن كثيراً من الفساق ليوافق المعصية من غير لذة يجدها ، ولا داعية إليها ، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها ، كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانئ ، حيث يقول :
وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها
وقال آخر :

فكانت دوائي ، وهي دائي بعينه كما يتداوى شارب الخمر بالخمير
ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزّه إليها أزاً ، وتحرضه عليها وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها .

ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشياطين ، فتؤزّه إليها أزاً ، فالأول قوى جند الطاعة بالمدد ، فصاروا من أكبر

أعوانه ، وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعواناً عليه .

فصل

المعصية تضعف إرادة الخير

* ومنها : وهو من أخوفها على العبد : أنها تضعف القلب عن إرادته ، فتقوى إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً ، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية ، فلو مات نصفه لما تاب إلى الله ، فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير ، وقلبه معقود بالمعصية ، مصر عليها عازم على موافقتها متى أمكنه .

وهذا من أعظم الأمراض ، وأقربها إلى الهلاك .

فصل

إلف المعصية

* ومنها : أنه ينسلخ من القلب استقباحها ، فتصير له عادة ، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ، ولا كلامهم فيه ، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهلكة وتمام اللذة ، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها ، فيقول : يا فلان عملت كذا وكذا .

وهذا الضرب من الناس لا يعافون ، ويسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها في الغالب ، كما قال النبي ﷺ : « كل أمتي معافي إلا المجاهرون ، وإن من الإجهار : أن يستر الله العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول : يا فلان عملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ، فهتك نفسه ، وقد بات يستره ربه » (١١٣) .

[١١٣] كل أمتي معافي .

صحيح .

رواه البخاري (٤/٦١) ، ومسلم (٤/٢٢٩١) من طريق : سالم بن عبد الله بن عمر ، عن أبي هريرة به .

□ المعاصي مواريث الأمم الهالكة.

* ومنها: أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله عز وجل .

فاللوطية : ميراث عن قوم لوط .

وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب .

والعلو في الأرض بالفساد ميراث عن قوم فرعون .

والتكبر والتجبر ميراث عن قوم هود .

فالمعاصي لابس ثياب بعض هذه الأمم ، وهم أعداء الله .

وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن مالك بن دينار قال : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: لا يدخلوا مداخل أعدائي ، ولا يلبسوا ملابس أعدائي ، ولا يركبوا مراكب أعدائي ، ولا يطعموا مطاعم أعدائي ، فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي .

وفى «مسند أحمد» من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال : «بعثت بالسيف بين يدي الساعة ، حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم» (١٤) .

[١١٤] بعثت بالسيف بين يدي الساعة ..

شاذ موصولا ، والصحيح أنه مرسل .

أما الموصول :

فأخرجه الإمام أحمد (٢/٩٢، ٥٠) ، وأبو داود (٤٠٣١) بالشطر الأخير منه من طريق : عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان ، حدثنا حسان بن عطية ، عن أبي منيب الجرشي ، عن ابن عمر به ...

فصل

هوان العاصي على ربه

* ومنها : أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه .
قال الحسن البصري : هانوا عليه فعصوه ، ولو عزوا عليه لعصمهم ،
وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد ، كما قال الله تعالى :
﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ (الحج : ١٨) .
وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم أو خوفاً من شرهم ، فهم
في قلوبهم أحقر شيء وأهونه .

= قلت : وهذا سند ضعيف ، لضعف عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان .
ولكن رواه الطحاوي في « مشكل الآثار » (٢٣١ - طبعة الرسالة) من طريق :
الوليد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية ، عن أبي منيب ، عن ابن
عمر به .

قلت : وهذا سند شاذ ، فقد خالف الوليد بن مسلم عيسى بن يونس ، فرواه عن
الأوزاعي ، عن سعيد بن جبلة ، عن طاوس ، عن النبي ﷺ رسلاً .
أخرجه ابن أبي شيبة (٣٢٢ / ٥) .
وتابع عيسى بن يونس ابن المبارك ، عن الأوزاعي بالشرط الأخير منه .
أخرجه القضاعي في « الشهاب » (٣٩٠) .
ولذا قال أبو حاتم - كما في العلل لابنه (٩٥٦) - :
« الحديث حديث الأوزاعي ، عن سعيد بن جبلة ، عن طاوس ، عن النبي ﷺ » .
قلت : وسعيد بن جبلة هذا مجهول الحال على أحسن الأحوال .
وقد رواه أيضاً أحد الضعفاء عن الأوزاعي فجعله من حديث أبي هريرة .
وانظر لذلك « علل » ابن أبي حاتم (٩٥٦) .

□ هوان المعاصى على المصرين .

ومنها: أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر فى قلبه، وذلك علامة الهلاك، فإن الذنب كلما صغر فى عين العبد عظم عند الله.

وقد ذكر البخارى فى «صحيحه» عن ابن مسعود، قال : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، فقال به هكذا فطار (١١٥).



فصل

شؤم الذنوب

* ومنها: أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه ، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم .

قال أبو هريرة : إن الحبارى لتموت فى وكرها من ظلم الظالم .
وقال مجاهد : إن البهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا اشتدت السنة وأمسك المطر ، وتقول : هذا بشؤم معصية ابن آدم .

[١١٥] إن المؤمن يرى ذنوبه .

صحيح .

رواه البخارى (٩٩/٤) ، ومسلم (٢١٠٩/٤) ، والترمذى (٢٤٩٧) ، والنسائى فى «الكبرى» (تحفة : ١٥/٧) من طريق : الأعمش ، عن عمارة بن عمير ، عن الحارث ابن سويد ، حدثنا عبد الله حديثين ، أحدهما عن النبى ﷺ ، والآخر عن نفسه .
فذكر البخارى كليهما ، وأما مسلم فذكر المرفوع ، وذكر الترمذى الموقوف .

وقال عكرمة : دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب ،
يقولون : منعنا القطر بذنوب بنى آدم .

فلا يكفيه عقاب ذنبه ، حتى يلعنه من لا ذنب له .



فصل

المعصية تورث الذل

* ومنها : أن المعصية تورث الذل ولا بد ، فإن العز كل العز فى طاعة
الله تعالى ، قال تعالى :

﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ (فاطر : ١٠) .

أى فليطلبها بطاعة الله ، فإنه لا يجدها إلا فى طاعة الله .

وكان من دعاء بعض السلف : اللهم أعزنى بطاعتك ، لا تذلى
بمعصيتك .

وقال الحسن البصرى : إنهم وإن طقطقت بهم البغال ، وهملجت بهم
البراذين ، إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه .

وقال عبد الله بن المبارك :

رأيت الذنوب تमित القلوب	وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب	وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك	وأحبار سوء ورهبانها ؟



فصل

المعاصى تفسد العقل

* ومنها : أن المعاصى تفسد العقل ، فإن للعقل نوراً ، والمعصية تطفئ نور العقل ولا بد ، وإذا تطفئ نوره ضعف ونقص .

وقال بعض السلف : ما عصى الله أحد حتى يغيب عقله ، وهذا ظاهر ، فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو فى قبضة الرب تعالى ، أو تحت قهره ، وهو مطلع عليه ، وفى داره وعلى بساطه ، وملائكته شهود عليه ، ناظرون إليه ! وواعظ القرآن ينهاه ، وواعظ الإيمان ينهاه ، وواعظ الموت ينهاه ، وواعظ النار ينهاه ، والذى يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها ، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله ، والاستخفاف به ذو عقل سليم ؟



فصل

الذنوب تطبع على القلب

* ومنها : أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها ، فكان من الغافلين ، كما قال بعض السلف فى قوله تعالى :

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين: ١٤) .

قال : هو الذنب بعد الذنب .

وقال الحسن : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب .

وقال غيره : لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية ، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير راناً ، ثم يغلب حتى يصير طبعاً ، وقفلاً وختماً ، فيصير القلب فى

غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله ، فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد .



فصل

الذنوب تدخل العبد تحت

لعنة رسول الله ﷺ

* ومنها : أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ ، فإنه لعن على معاصي والتي غيرها أكبر منها ، فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة .
فلعن الواشمة والمستوشمة ، والواصلة والمستوصلة ، والنامصة والمتنمصة ، والواشرة والمستوشرة .

ولعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده .

ولعن المحلل والمحلل له .

ولعن السارق .

ولعن شارب الخمر وساقيتها وعاصرها ، ومعتصرها ، وبائعها ومشتريها ، وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة إليه .

ولعن من غير منار الأرض ، وهي : أعلامها وحدودها .

ولعن من لعن والديه .

ولعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً يرميه بسهم .

ولعن الخنثيين من الرجال والمترجلات من النساء .

ولعن من ذبح لغير الله .

ولعن من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً .

ولعن المصورين .
ولعن من عمل عمل قوم لوط .
ولعن من سب أباه وأمه .
ولعن من كتم أعمى عن الطريق .
ولعن من أتى بهيمة .
ولعن من وسم دابة في وجهها
ولعن من ضار مسلماً أو مكر به .
ولعن زوارات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج .
ولعن من أفسد امرأة على زوجها ، أو مملوكاً على سيده .
ولعن من أتى امرأة في دبرها .
وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى
تصبح .

ولعن من انتسب إلى غير أبيه .
وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه .
ولعن من سب الصحابة .
من لعنه الله .

* وقد لعن الله في كتابه: من أفسد في الأرض وقطع رحمه ، وآذاه
وآذى رسول الله ﷺ .

ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدى .
ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة .
ولعن من جعل سبيل الكافرين أهدي من سبيل المسلمين .

ولعن رسول الله ﷺ الرجل الذى يلبس لبسة المرأة ، والمرأة التى تلبس لبسة الرجل .

ولعن الراشى والمرتشى والرائش (وهو الواسطة فى الرشوة) .

ولعن على أشياء أخرى غير هذه .

فلو لم يكن فى فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان فى ذلك ما يدعو إلى تركه .



فصل

حرمان دعوة رسول الله ﷺ

* ومنها: حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة ، فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وقال تعالى :

﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فأغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ . (غافر : ٧-٩) .

فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابته وسنة رسوله ، للذين لا سبيل له غيرهما ، فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها ، والله المستعان .



فصل

ما رآه النبي ﷺ من عقوبات العصاة

*ومن عقوبات المعاصي : ما رواه البخارى فى «صحيحه» من حديث سمرة بن جندب قال : كان النبي ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه :

« هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا فيقص عليه ما شاء الله أن يقص ، وإنه قال لنا ذات غداة : إنه أتانى الليلة آتيان وإنهما انبعثا لي ، وإنهما قالوا لى : انطلق ، وإنى انطلقت معهما ، وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة ، وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثقل رأسه فيتدعده الحجر ها هنا فيتبع الحجر ، فيأخذه ، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ، ثم يعود عليه ، فيفعل به مثل ما فعل فى المرة الأولى ، قال : قلت لهما : سبحان الله ما هذا ؟ قالوا لى : انطلق انطلق .

فانطلقنا ، فأتينا على رجل مستلق لقفاه ، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد ، وإذا هو يأتى أحد شقى وجهه ، ويشترشر شذقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، ثم يتحول إلى الجانب الآخر ، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول ، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب ، كما كان ، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل فى المرة الأولى ، قال : قلت : سبحان الله ! ما هذا ؟ فقالوا لى : انطلق انطلق .

فانطلقنا فأتينا على مثل التور ، فإذا فيه لغط وأصوات ، قال : فاطلعنا فيه ، فإذا فيه رجال ونساء عراة ، وإذا هم يأتهم لهب من أسفل منهم ، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا ، فقال : قلت لهما : ما هؤلاء ؟ قالوا لى : انطلق انطلق .

فانطلقنا ، فأتينا على نهر أحمر مثل الدم ، فإذا فى النهر رجل سابح يسبح ، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا

ذلك السابح يسبح ما شاء الله أن يسبح ، ثم يأتى ذلك الذى قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً ، فينطلق فيسبح ، ثم يرجع إليه ، كلما رجع إليه ، ففغر له فاه ، فيلقمه حجراً ، قلت لهما : ما هذان ؟ قال : لى : انطلق انطلق .

فانطلقنا ، فأتينا على رجل كره المرأة ، أو كأكره ما أنت راء رجلاً مرأى ، وإذا هو عنده نار يحشها ويسعى حولها ، قال : قلت لهما : ما هذا ؟ قال : قال لى : انطلق انطلق .

فانطلقنا حتى أتينا على روضة معتمة ، فيها من كل لون الربيع ، وإذا بين ظهرانى الروضة رجل طويل ، لا أكاد أرى رأسه طويلاً فى السماء ، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط ، قال : قلت : ما هذا ؟ ما هؤلاء ؟ قال : قال لى : انطلق انطلق .

فانطلقنا ، فأتينا إلى دوحة عظيمة لم أر دوحة قط أعظم منها ، ولا أحسن ، قال : قال لى : ارق فيها ، فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ، ولبن فضة ، قال : فأتينا باب المدينة ، فاستفتحنا ، ففتح لنا ، فدخلناها ، فتلقانا فيها رجال ، شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشطر منهم كأقبح ما أنت راء ، قال : قال لهم : اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر ، قال : وإذا نهر معترض يجرى كأن ماءه المحض فى البياض ، فذهبوا فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا ، قد ذهب ذلك السوء عنهم ، قال : قال لى : هذه جنة عدن ، وها ذاك منزلك .

قال : فسمما بصرى صعداً ، فإذا قصر مثل الرابطة البيضاء ، قال : قال لى : هذا منزلك قلت لهما ، بارك الله فيكما ، فذراني فأدخله ، قال : أما الآن فلا ، وأنت داخله .

قلت لهما : فيأنى رأيت منذ الليلة عجباً ، فما هذا الذى رأيت ؟

قال : قالاً لي : أما إنا سنخبرك .

أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر ، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه ، وينام عن الصلاة المكتوبة .

وأما الرجل الذى أتيت عليه يشر شر شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، فإنه الرجل يغدو من بيته ، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق .

وأما الرجال والنساء العراة الذين هم فى مثل بناء التنور ، فإنهم الزناة والزواني .

وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجارة ، فإنه أكل الربا .

وأما الرجل الكريه المرأة الذى عند النار يحشها ويسعى حولها ، فإنه مالك خازن جهنم .

وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة : فإنه إبراهيم .

وأما الولدان الذين حولهم ، فكل مولود مات على الفطرة - وفى رواية البرقانى : ولد على الفطرة - فقال بعض المسلمين : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ : وأولاد المشركين .

وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح ، فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم » (١١٦) .

[١١٦] حديث سمرة بن جندب - رضى الله عنه - الطويل .

صحیح .

رواه البخارى (٢١٩/٤-٢٢٠) ، ومسلم (١٧٨١/٤) ، والترمذى (٢٢٩٤) مختصراً عندهما ، والنسائى فى « الكبرى » (تحفة : ٨٢/٤) من طريق : عمران بن تيم ، عن أبى رجاء العطاردى ، عن سمرة به .

وانظر كتابنا « ضعيف الإسراء والمعراج » : (ص : ٥٥) .

فصل

الذنوب تحدث الفساد فى الأرض

* ومن آثار الذنوب والمعاصي : أنها تحدث فى الأرض أنواعاً من

الفساد فى المياه والهواء والزروع ، والثمار والمساكن ، قال تعالى :

﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم

بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ (الروم : ٤١) .

وقال مجاهد : إذا ولى الظالم سعى بالظلم والفساد ، فيحبس الله

بذلك القطر ، فيهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ثم قرأ :

﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم

بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ .

ثم قال : أما والله ما هو بحر كم هذا ، ولكن كل قرية على ماء جار

فهو بحر .

وقال عكرمة : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر ﴾ أما إني لا أقول لكم :

بحر كم هذا ، ولكن كل قرية على ماء .

وقال قتادة : أما البر فأهل العمود ، وأما البحر فأهل القرى والريف ،

قلت : وقد سمى الله تعالى الماء العذب بحراً فقال :

﴿ وما يستوى البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح

أجاج ﴾ (فاطر : ١٢) .

وليس فى العالم بحر حلو واقف ، وإنما هى الأنهار الجارية ، والبحر

المالح هو الساكن ، فسمى القرى التى عليها المياه الجارية باسم تلك المياه .

وقال ابن زيد : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر ﴾ ، قال : الذنوب .

قلت : أراد أن الذنوب سبب الفساد الذى ظهر ، وإن أراد أن الفساد

الذى ظهر هو الذنوب نفسها فيكون اللام فى قوله : ﴿ لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمَلُوا ﴾ لام العقبة والتعليل ، وعلى الأول : فالمراد بالفساد النقص والشر والآلام التى يحدثها الله فى الأرض عند معاصى العباد ، فكلمنا أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم عقوبة ، كما قال بعض السلف : كلما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة .

* والظاهر - والله أعلم - : أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمَلُوا ﴾ فهذا حالنا ، وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا ، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة .

□ المعاصى سبب الخسف والزلازل.

* ومن تأثير المعاصى فى الأرض ، ما يحل بها من الخسف والزلازل ، ويمحق بركتها ، وقد مر رسول الله ﷺ على ديار ثمود ، فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون ، ومن شرب مياههم ومن الاستسقاء من آبارهم ، حتى أمر أن يعلف العجين الذى عجن بمياههم للنواضح ، لتأثير شؤم المعصية فى الماء ، وكذلك تأثير شؤم الذنوب فى نقص الثمار وما ترى به من الآفات .

وقد ذكر الإمام أحمد فى «مسنده» فى ضمن حديث قال : وجد فى خزائن بني أمية ، حبة حنطة بقدر نواة التمرة ، وهى فى صرة مكتوب عليها : هذا كان ينبت فى زمن العدل .

وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب .

وأخبرنى جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مماهى الآن ، وكثير من هذه الآفات التى تصيبها لم يكونوا يعرفونها ، وإنما

حدثت من قرب .

❑ تأثير الذنوب في الصور .

* وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق ، فقد روى الترمذى فى جامعه عنه عليه السلام أنه قال : « خلق الله آدم وطوله فى السماء ستون ذراعاً ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن » (١١٧) .

فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمة والفجرة والخونة، يخرج عبداً من عباده من أهل بيت نبيه عليه السلام، فيملأ الأرض قسطاً كما ملئت جوراً، ويقتل المسيح اليهود والنصارى، ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله، وتخرج الأرض بركتها، وتعود كما كانت، حتى إن العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها، ويكون العنقود من العنب وقر بعير، وأن اللقحة الواحدة لتكفى الفئام من الناس، وهذا لأن الأرض لما ظهرت من المعاصى ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التى محقتها الذنوب والكفر، ولا ريب أن العقوبات التى أنزلها الله فى الأرض بقيت آثارها سارية فى الأرض، تطلب ما يشاكلها من الذنوب التى هى آثار تلك الجرائم التى عذبت بها الأمم، فهذه الآثار فى الأرض من آثار تلك العقوبات، كما أن هذه المعاصى من آثار تلك الجرائم، فتناسب كلمة الله وحكمه

[١١٧] خلق الله آدم وطوله فى السماء ستون ذراعاً ..

صحيح .

رواه البخارى (٢ / ٢٢٨) ، ومسلم (٤ / ٢١٨٣) من طريق :

عبد الرزاق، عن معمر عن همام بن منبه ، عن أبى هريرة بأطول من هذا اللفظ .

الكوني أولاً وآخرًا، وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية ، والأخف للأخف ، وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء .

وتأمل مقارنة الشيطان ومحلّه وداره ، فإنه لما قارن العبد واستولى عليه، نزعَت البركة من عمره، وعمله ، وقوله ، ورزقه ، ولما أثرت طاعته في الأرض ما أثرت، ونزعَت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته، وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة .



فصل

الذنوب تطفئ الغيرة

* ومن عقوبات الذنوب : أنها تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن ، فالغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة ، كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد ، وأشرف الناس وأعلامهم همّة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس ، ولهذا كان النبي ﷺ أغير الخلق على الأمة ، والله سبحانه أشد غيرة منه ، كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال :
« أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير مني » (١١٨).

[١١٨] أتعجبون من غيرة سعد ..

صحيح .

رواه البخارى (٢٨٠/٤) ، ومسلم (١١٣٦/٢) من طريق : وراد كاتب المغيرة،

عن المغيرة بن شعبة به .

وفى «الصحيح» أيضاً أنه قال فى خطبة الكسوف : « يا أمة محمد ما أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته » (١١٩)

* وفى «الصحيح» أيضاً عنه أنه قال : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك أثنى على نفسه » (١٢٠).

فجمع فى هذا الحديث بين الغيرة التى أصلها كراهة القبائح وبغضها، وبين محبة العذر الذى يوجب كمال العدل والرحمة والإحسان ، والله سبحانه - مع شدة غيـرته - يحب أن يعتذر إليه عبده ، ويقبل عذر من اعتذر إليه ، وأنه لا يؤاخذ عبـيده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر إليهم ، ولأجل ذلك أرسل رسـله ، وأنزل كتبه إـعذاراً وإنذاراً ، وهذا غاية المجد والإحسان ونهاية الكمال .

[١١٩] يا أمة محمد ما أحد أغير من الله ..

صحيح .

وهو جزء من خطبته ﷺ عند كسوف الشمس .

وقد رواه البخارى (١٨٤/١) ، ومسلم (٦١٨/٢) ، والنسائى (١٣٢/٣) من

طريق : مالك ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة به .

[١٢٠] لا أحد أغير من الله ...

صحيح .

رواه بهذا اللفظ مسلم (٢١١٤/٤) من طريق : عبد الرحمن بن يزيد ، عن ابن

مسعود به .

وهو عند مسلم وغيره من طرق أخرى عن ابن مسعود .

وانظر طريقه فى كتابنا «صفة خطبة النبي ﷺ» (ص: ٤٥).

فإن كثيراً ممن تشتد غيرته من المخلوقين يحمله شدة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذار منه ، ومن غير قبول لعذر من اعتذر إليه ، بل يكون له فى نفس الأمر عذر ، ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره ، وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع فى طرق المعاذير ، ويرى عذراً ما ليس بعذر ، حتى يعتذر كثير منهم بالقدر ، وكل منهما غير ممدوح على الإطلاق .

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال : « إن من الغيرة ما يحبها الله ، ومنها ما يبغضها الله ، فالتى يبغضها الله الغيرة فى غير رية » (١٢١) .

وذكر الحديث .

[١٢١] إن من الغيرة ما يحبها الله .

ضعيف .

رواه الإمام أحمد (٤٤٥/٥ ، ٤٤٦) ، وأبو داود (٢٦٥٩) والنسائي (٧٨/٥) ، وابن حبان (موارد : ١٣١٣) والبيهقى فى « الكبرى » (١٥٦/٩) من طريق : يحيى بن أبى كثير ، عن محمد بن إبراهيم ، عن ابن جابر بن عتيك ، عن أبيه به ، بزيادة .

« وأما الغيرة التى يحب الله فالغيرة التى فى الرية »

قلت : وهذا سند ضعيف لجهالة ابن جابر بن عتيك .

وقد اختلف فى سند هذا الخبر على يحيى بن أبى كثير .

فرواه ابن ماجه (١٩٩٦) من طريق : شيبان أبى معاوية ، عنه ، عن أبى سهم ، عن أبى هريرة به .

وسنده شاذ ، فقد خالف شيبان كل من رواه عن يحيى بن أبى كثير منهم الأوزاعى وأبان ، والحجاج الصواف ، وكذلك فأبوسهم هذا مجهول .

وله شاهد ضعيف من حديث عقبة بن عامر الجهنى بنحو هذا اللفظ ، عند أحمد (١٥٤/٤) بسند فيه ضعف .

وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر ، فيغار فى محل الغيرة ، ويعذر فى موضع العذر ، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقاً .

* ولما جمع الله سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ، ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغى له ، بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه ، فالغيور قد وافق ربه سبحانه فى صفة من صفاته ، ومن وافق الله فى صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزماتها ، وأدخلته على ربه ، وأدنته منه ، وقربته من رحمته وصيرته محبوباً له ، فإنه سبحانه رحيم يحب الرحماء ، كريم يحب الكرماء ، عليم يحب العلماء ، قوى يحب المؤمنين القوى ، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف ، حى يحب أهل الحياء ، جميل يحب أهل الجمال ، وتر يحب أهل الوتر .

* ولو لم يكن فى الذنوب والمعاصى إلا أنها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة ، فإن الخطرة تنقلب وسوسة ، والوسوسة تصير إرادة ، والإرادة تقوى فتصير عزيمة ، ثم تصير فعلاً ، ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة ، وحينئذ يتعذر الخروج منها كما يتعذر الخروج من صفاته القائمة به .

* والمقصود: أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس . وقد تضعف فى القلب جداً حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح ، لا من نفسه ولا من غيره ، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل فى باب الهلاك .

وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقبح ، بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ويزينه له ، ويدعوه إليه ، ويحثه عليه ، ويسعى له

فى تحصيله ، ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله ، والجنة حرام عليه ، وكذلك محلل الظلم والبغى لغيره ومزينه له ، فانظر ما الذى حملت عليه قلة الغيرة .

وهذا يدل على أن أصل الدين الغيرة ، ومن لا غيرة له لا دين له ، فالغيرة تحمى القلب فتحمى له الجوارح ، فتدفع السوء والفواحش ، وعدم الغيرة تميم القلب ، فتموت له الجوارح ، فلا يبقى عندها دفع ألبته .
ومثل الغيرة فى القلب مثل القوة التى تدفع المرض وتقاومه ، فإذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلاً ، ولم يجد دافعاً ، فتمكن فكان الهلاك ، ومثلها مثل صياصى الجاموس التى يدفع بها عن نفسه وولده ، فإذا كسرت طمع فيه عدوه .



فصل

المعاصى تذهب الحياء

* ومن عقوباتها : ذهاب الحياء الذى هو مادة حياة القلب ، وهو أصل كل خير ، وذهابه ذهاب الخير أجمعه .

وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : «الحياء خير كله» (١٢٢) .

[١٢٢] الحياء خير كله .

صحيح .

رواه مسلم (٦٤/١) وأبو داود (٤٧٩٦) من طريق : أبى قتادة العدوى ، عن عمران بن حصين رضى الله عنه به .

وقال : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت » (١٢٣) وفيه تفسيران :

أحدهما : أنه على التهديد والوعيد ، والمعنى : من لم يستح فإنه يصنع ما شاء من القبائح إذ الحامل على تركها الحياء ، فإذا لم يكن هناك حياء يردعه عن القبائح فإنه يواقعها ، وهذا تفسير أبي عبيدة .

والثاني : أن الفعل إذا لم تستح من الله فافعله ، وإنما الذى ينبغى تركه هو ما يستحى منه من الله ، وهذا تفسير الإمام أحمد فى رواية ابن هانئ .
فعلى الأول يكون تهديداً كقوله تعالى :

﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ (فصلت : ٤٠) .

وعلى الثانى يكون إذناً وإباحة .

* فإن قيل : فهل من سبيل إلى حمله على المعنيين؟

قلت : لا ، ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه ، لما بين الإباحة والتهديد من المنافاة ، ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر .

والمقصود أن الذنوب تضعف الحياء من العبد ، حتى ربما انسلخ منه بالكلية ، حتى إنه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه ،

[١٢٣] إن مما أدرك الناس من كلام النبوة . .

صحيح .

رواه البخارى (٢٦٣ / ٢) ، وأبو داود (٤٧٩٧) ، وابن ماجه (٤١٨٣) من طريق :
ربعى بن حراش ، عن أبى مسعود به .

بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل ، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء ، وإذا وصل العبد إلى هذه الحال ، لم يبق فى صلاحه مطمع .

وإذا رأى إبليس طلعة وجهه حيا ، وقال : فديت من لا يفلح

والحياء مشتق من الحياة ، والغيث يسمى حيا- بالقصر- لأن به حياة الأرض والنبات والدواب ، وكذلك سميت بالحياء حياة الدنيا والآخرة ، فمن لا حياء فيه فهو ميت فى الدنيا، شقى فى الآخرة، وبين الذنوب وبين قلة الحياء ، وعدم الغيرة تلازم من الطرفين ، وكل منهما يستدعى الآخر ويطلبه حثيثاً، ومن استحى من الله عند معصيته ، استحى الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستخ من معصيته لم يستح من عقوبته .



فصل

المعاصى تضعف فى القلب تعظيم الرب

*ومن عقوبات الذنوب : أنها تضعف فى القلب تعظيم الرب جل جلاله ، وتضعف وقاره فى قلب العبد ولا بد ، شاء أم أبى ، ولو تمكن وقار الله وعظمته فى قلب العبد لما تجرأ على معاصيه ، وربما اغتر المغتر ، وقال : إنما يحملنى على المعاصى حسن الرجاء ، وطمعى فى عفوه ، لا ضعف عظمته فى قلبى ، وهذا من مغالطة النفس ، فإن عظمة الله تعالى وجلاله فى قلب العبد تقتضى تعظيم حرماته ، وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب والمتجرئون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره ، وكيف يقدره حق قدره ، أو يعظمه ويكبره ويرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه ؟ هذا من أمحل المحال ، وأبين الباطل ، وكفى بالمعاصى عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله ، وتعظيم حرماته ، ويهون عليه حقه

* ومن بعض عقوبة هذا : أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق، ويهون عليهم، ويستخفون به ، كما هان عليه أمره واستخف به ، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس ، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الخلق، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظمه الناس ، وكيف ينتهك عبد حرمت الله ويطمع ألا ينتهك الناس حرماته؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس؟ أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب ، وأنه أركس أربابها بما كسبوا ، وغطى على قلوبهم ، فطبع عليها بذنوبهم ، وأنه نسيهم كما نسوه ، وأهانهم كما أهانوا دينه ، وضيعهم كما ضيعوا أمره ، ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له :

﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ (الحج : ١٨) .

فإنهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم الله ، فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم الله ، ومن ذا يكرم من أهانه الله ؟ أو يهين من أكرمه الله .



فصل

المعاصي تنسى الله

* ومن عقوباتها : أنها تستدعى نسيان الله لعبده ، وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، وهناك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة، قال الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ (الحشر : ١٨ و ١٩) .

فأمر بتقواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه، بترك تقواه، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه، أى أنساه مصالحها، وما ينجيها من عذابه، وما يوجب له الحياة الأبدية، وكمال لذتها وسرورها ونعيمها، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمتته وخوفه، والقيام بأمره، فترى العاصي مهملاً لمصالح نفسه، مضيعاً لها، وقد أغفل قلبه عن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فرطاً، وقد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته، وقد فرط فى سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة، إنما هى سحابة صيف أو خيال طيف، كما قيل :

أحلام نوم أو كطل زائل إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه، وإهماله لها، وإضاعته حظها ونصيبتها من الله، وبيعه ذلك بالغبن والهوان، وأبغض الثمن، فضيع من لا غنى له عنه، ولا عوض له منه، واستبدل به من عنه كل الغنى، أو منه كل العوض .

من كل شيء إذا ضيعته عوض وما من الله إن ضيعته عوض

فأله سبحانه وتعالى يعوض عن كل ما سواه، ولا يعوض منه شيء، ويغنى عن كل شيء، ولا يغنى عنه شيء، ويجير من كل شيء ولا يجير منه شيء، ويمنع من كل شيء ولا يمنع منه شيء، فكيف يستغنى العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين؟ وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه، فيخسرهما، ويظلمهما أعظم الظلم؟ فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه ولكن هو الذى ظلم نفسه .



فصل

المعاصي تخرج صاحبها من دائرة الإحسان

* ومن عقوباتها : أنها تخرج العبد من دائرة الإحسان وتمنعه ثواب المحسنين ، فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي ، فإن من عبد الله كأنه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذكره - أى ذكر الله - ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه ، بحيث يصير كأنه يشاهده ، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية ، فضلاً عن موانعها ، فإذا خرج من دائرة الإحسان فإنه صحبة رفقة الخاصة ، وعيشهم الهنىء ، ونعيمهم التام ، فإن أراد الله به خيراً أقره فى دائرة عموم المؤمنين ، فإن عصاه بالمعاصي التى تخرجه من دائرة الإيمان كما قال النبى ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع إليه فيها الناس أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » (١٢٤) ، فإياكم وإياكم والتوبة معروضة بعد



فصل

العاصي يفوته ثواب المؤمنين

* ومن فاته رفقة المؤمنين وحسن دفاع الله عنهم ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وفاته كل خير رتبته الله فى كتابه على الإيمان ، وهو نحو مائة

[١٢٤] لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ...

صحيح .

رواه البخارى (٣/٣٢٠) ومسلم (١/٧٦) من طريق :

يونس بن يزيد ، عن الزهرى ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، وسعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة به .

خصلة، كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها .

* فمنها : الأجر العظيم :

﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾ (النساء : ١٤٦) .

* ومنها : الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة :

﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ (الحج : ٣٨) .

* ومنها : استغفار الملائكة حملة العرش لهم :

﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ (غافر : ٧) .

* ومنها : موالة الله لهم ، ولا يذل من مولاه الله .

قال الله تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾ (البقرة : ٢٥٧) .

* ومنها : أمره ملائكته بشيئهم :

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ (الأنفال : ١٢) .

* ومنها : أن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم .

* ومنها : العزة :

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾

(المنافقون : ٨)

* ومنها : معية الله لأهل الإيمان :

﴿ وأن الله مع المؤمنين ﴾ (الأنفال : ١٩) .

* ومنها : الرفعة فى الدنيا والآخرة :

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾

(المجادلة : ١١)

* ومنها : إعطاؤهم كفلين من رحمته، وإعطاؤهم نوراً يمشون به،
ومغفرة ذنوبهم .

* ومنها : الود الذى يجعله الله سبحانه لهم ، وهو أنه يحبهم
ويحبهم إلى ملائكته ، وأنبيائه وعباده الصالحين :

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾

(مريم: ٩٦)

* ومنها : أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف :

﴿فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾

(الأنعام : ٤٨) .

* ومنها : أنهم المنعم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلى
صراطهم فى كل يوم وليلة سبع عشرة مرة .

* ومنها : أن القرآن إنما هو هدى لهم وشفاء :

﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم

وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ (فصلت : ٤٤) .

* والمقصود: أن الإيمان سبب جالب لكل خير، وكل خير فى الدنيا
والآخرة فسببه الإيمان، وكل شر فى الدنيا والآخرة فسببه عدم الإيمان ،
فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئاً يخرج به من دائرة الإيمان ، ويحول
بينه وبينه ، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين ؟ فإن استمر على
الذنوب ، وأصر عليها خيف عليه أن يرين على قلبه ، فيخرجه عن الإسلام
بالكلية ، ومن ههنا اشتد خوف السلف ، كما قال بعضهم : أنتم تخافون
الذنوب وأنا أخاف الكفر .



فصل

المعاصي تضعف القلب

* ومن عقوباتها : أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة ، أو تعوقه أو توقفه وتقطعه عن السير ، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة ، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه ، فالذنب يحجب الواصل ، ويقطع السائر وينكس الطالب ، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته ، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره ، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعاً يبعد تداركه ، والله المستعان .

فالذنب إما أن يميئ القلب ، أو يمرضه مرضاً مخوفاً ، أو يضعف قوته ولا بد ، حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي ﷺ وهي الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن ، والبخل ، وضلع الدين ، وغلبة الرجال ، وكل اثنين منها قرينان .

فالهم والحزن : قرينان : فإن المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم ، وإن كان من أمر ماض ، قد وقع أحدث الحزن .

والعجز والكسل قرينان : فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز ، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل .

والجبن والبخل قرينان : فإن عدم النفع منه إن كان ببسده فهو الجبن ، وإن كان بماله فهو البخل .

وضلع الدين وقهر الرجال قرينان : فإن استعلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدين ، وإن كان بباطل فهو قهر الرجال .

* والمقصود : أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة : لجهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء

القضاء ، وشماتة الأعداء، ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال نعم الله، وتحول عافيته إلى نقمته، وتجلب جميع سخطه .



فصل

المعاصي تزيل النعم

* ومن عقوبات الذنوب : أنها تزيل النعم، وتحل النقم ، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب ، ولا حلت به نقمة إلا بذنب ، كما قال على بن أبي طالب رضى الله عنه : ما نزل بلاء إلا بذنب ، ولا رفع إلا بتوبة .

وقد قال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ (الشورى: ٣٠)

وقال تعالى :

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (الأنفال: ٥٣).

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذى يغير ما بنفسه ، فيغير طاعة الله بمعصيته ، وشكره بكفره ، وأسباب رضاه بأسباب سخطه ، فإذا غير غير عليه ، جزاءً وفاقاً ، وما ربك بظلام للعبيد .

فإن غير المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية ، والذل بالعز ، وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ (الرعد : ١١) .

وفى بعض الآثار الإلهية ، عن الرب تبارك وتعالى أنه قال : وعزتى وجلالى ، لا يكون عبد من عبيدى على ما أحب ، ثم ينتقل عنه إلى ما

أكره، إلا انتقلت له مما يحب إلى ما يكره، ولا يكون عبد من عبيدى على ما أكره ثم ينتقل عنه إلى ما أحب، إلا انتقلت له مما يكره إلى ما يحب .
ولقد أحسن القائل :

إذا كنت فى نعمة فارعها	فإن الذنوب تزيل النعم
وحطها بطاعة رب العباد	فرب العباد سريع النقم
وإياك والظلم مهما استطعت	فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبك بين الورى	لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم	شهود عليهم، ولا تتهم
وما كان شىء عليهم أضر	من الظلم وهو الذى قد قصم
فكم تركوا من جنان ومن	قصور ، وأخرى عليهم أطم
صلوا بالجحيم وفات النعيم	وكان الذى نالهم كالحلم



فصل

المعاصى من أسباب الخوف فى القلوب

* ومن عقوباتها : ما يلقيه الله سبحانه وتعالى من الرعب والخوف فى قلب العاصى ، فلا تراه إلا خائفاً مرعوباً .

فإن الطاعة حصن الله الأعظم ، الذى من دخله كان من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف فى حقه أمناً، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف ، فلا تجدد العاصى إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر ، إن حركت الريح الباب قال : جاء الطلب ، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً

بالعطب، يحسب أن كل صيحة عليه ، وكل مكروة قاصداً إليه ، فمن
خاف الله آمنه من كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء .

بذا قضى الله بين الناس مذ خلقوا أن المخاوف والإجرام فى قرن
■ المعاصى توقع فى الوحشة .

* ومن عقوباتها : أنها توقع الوحشة العظيمة فى القلب، فيجد المذنب
نفسه مستوحشاً ، قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه ، وبين الخلق وبين نفسه ،
وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة ، وأمر العيش عيش المستوحشين
الخائفين ، وأطيب العيش عيش المستأنسين ، فلو نظر العاقل ووازن لذة
المعصية وما توقعه من الخوف والوحشة ، لعلم سوء حاله ، وعظيم غبنه ، إذ
باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف
والضرر الداعى له .

كما قيل :

فإن كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس

* وسر المسألة : أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه، فكلما
اشتد القرب قوى الأنس ، والمعصية توجب البعد عن الرب ، وكلما ازداد
البعد قويت الوحشة .

ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذى بينهما ، وإن كان
ملابساً له قريباً منه ، ويجد أنساً وقرباً بينه وبين من يحب ، وإن كان بعيداً
عنه .

والوحشة سببها الحجاب ، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة ،
فالغفلة توجب الوحشة، وأشد منها وحشة المعصية ، وأشد منها وحشة

الشرك والكفر ، ولا تجد أحداً ملابساً شيئاً من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب مالا بسه منه، فتعلو الوحشة وجهه وقلبه ، فيستوحش ويستوحش منه.



فصل

المعاصي تمرض القلوب

* ومن عقوباتها : أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه ، فلا يزال مريضاً معلولاً ، لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه ، فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان ، بل الذنوب أمراض القلوب ودأؤها ، ولا دواء لها إلا تركها .

وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تعطى منها حتى تصل إلى مولاها ، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة ، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب دأؤها فيصير نفس دوائها ، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها ، فهوها مرضها ، وشفائها مخالفتها ، فإن استحکم المرض قتل أو كاد .

وكما أن من نهى نفسه عن الهوى، كانت الجنة مأواه ، فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة ، لا يشبه نعيم أهلها نعيماً ألبتة ، بل التفاوت الذي بين النعيمين ، كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة ، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا .

ولا تحسب أن قوله تعالى :

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾

(الأنفطار : ١٣ و ١٤) .

مقصود على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل فى دورهم الثلاث هم كذلك - أعنى دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار - فهؤلاء فى نعيم ، وهؤلاء فى جحيم ، وهل النعيم إلا نعيم القلب ؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب ؟ وأى عذاب أشد من الخوف أو الهم والحزن ، وضيق الصدر ، وإعراضه عن الله والدار الآخرة ، وتعلقه بغير الله ، وانقطاعه عن الله ، بكل واد منه شعبة ؟ وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب .

فكل من أحب شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات فى هذه الدار ، فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل ، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته والتغيب والتكيد عليه ، وأنواع من العذاب فى هذه المعارضات ، فإن سلبه اشتد عليه عذابه ، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب فى هذه الدار .

وأما فى البرزخ : فعذاب يقارنه ألم الفراق الذى لا يرجو عوده ، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده ، وألم الحجاب عن الله ، وألم الحسرة التى تقطع الأكباد ، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل فى نفوسهم نظير ما يعمل الهوام والديدان فى أبدانهم ، بل عملها فى النفوس دائم مستمر ، حتى يردّها الله إلى أجسادها ، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر ، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه واشتياقاً إليه ، وارتياحاً بحبه ، وطمأنينة بذكره ؟ حتى يقول بعضهم فى حال نزعه : واطرباه .

ويقول الآخر : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا الحال ، إنهم لفى عيش طيب .

ويقول الآخر : مساكين أهل الدنيا ، خرجوا منها وما ذاقوا لذيد العيش فيها ، وما ذاقوا أطيب ما فيها .

ويقول الآخر : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .

ويقول الآخر: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .
فيا من باع حظه الغالى بأبخس الثمن ، وغبن كل الغبن في هذا العقد، وهو يرى أنه قد غبن ، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقومين .

فيا عجباً من بضاعة معك الله مشتريها وثمرها جنة المأوى ، والسفير الذى جرى على يديه عقد التبائع وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول ﷺ ، وقد بعثها بغاية الهوان ، كما قال القائل :

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه فمن ذا له من بعد ذلك يكرم .

﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾

(الحج : ١٨)



فصل

المعاصى تعمى البصيرة

* ومن عقوباتها : أنها تعمى بصيرة القلب ، وتطمس نوره ، وتسد طرق العلم ، وتحجب مواد الهداية .

وقد قال مالك للشافعى لما اجتمع به ورأى تلك الخايل : إني أرى الله تعالى قد ألقى عليك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية .

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل ، وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب فى مثل الليل البهيم ، فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصره ،

كأعمى خرج بالليل فى طريق ذات مهالك ، ومعاطب ، فى عزة السلامة
ويا سرعة العطب ، ثم تقوى تلك الظلمات ، وتفيض من القلب إلى
الجوارح ، فيغشى الوجه منها سواد ، بحسب قوتها وتزايدها ، فإذا كان عند
الموت ظهرت فى البرزخ ، فامتلاً القبر ظلمة ، كما قال النبي ﷺ : « إن هذه
القبور ممتلئة على أهلها ظلمة ، وإن الله منورها بصلاتي عليهم » (١٢٥)

فإذا كان يوم المعاد ، وحشر العباد ، علت الوجوه علواً ظاهراً يراه كل
أحد ، حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة ، فيالها من عقوبة لا توازن لذات
الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها ، فكيف بقسط العبد المنغص المنكد
المتعب فى زمن ؟ إنما هو ساعة من حلم ، فالله المستعان .



فصل

المعاصى تصغر النفوس

* ومن عقوباتها : أنها تصغر النفس وتقمعها ، وتدسيها ، وتحقرها ،
حتى تكون أصغر من كل شيء وأحقره ، كما أن الطاعة تنميها وتركيها
وتكبرها ، قال تعالى :

﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ (الشمس : ١٠ و ٩) .

* والمعنى : قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها ، وقد
خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله ، وأصل التدسية : الإخفاء ،
ومنه قوله تعالى : ﴿ أم يدسه فى التراب ﴾ (النحل : ٥٩) .

[١٢٥] إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة

صحيح .

رواه البخارى (فتح ١٥٩/٣) ، ومسلم (٦٥٩/٢) ، وأبو داود (٣٢٠٣) ، وابن
ماجة (١٥٢٧) من طريق : ثابت البنانى ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة به .

فالعاصي يدس نفسه فى المعصية ، ويخفى مكانها ، يتوارى من الخلق من سوء ما يأتى به ، قد انقمع عند نفسه ، وانقمع عند الله ، وانقمع عند الخلق ، فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها ، وتعليها ، حتى تصير أشرف شىء وأكبره ، وأزكاه وأعلاه ، ومع ذلك فهى أذل شىء وأحقره وأصغره لله تعالى ، وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو ، فما صغر النفوس مثل معصية الله ، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله .



فصل

العاصى أسير شيطانه

* ومن عقوباتها : أن العاصى دائماً فى أسر شيطانه وسجن شهواته ، وقيود هواه ، فهو أسير مسجون مقيد ، ولا أسير أسوأ حالاً من أسير أسرته أعدى عدو له ، ولا سجن أضيق من سجن الهوى ، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة ، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد ؟ وكيف يخطو خطوة واحدة ؟

وإذا قيد القلب طرقة الآفات من كل جانب ، بحسب قيوده ، ومثل القلب مثل الطائر ، كلما علا بعد عن الآفات ، وكلما نزل احتوشته الآفات .

وفى الحديث : « الشيطان ذئب الإنسان » (١٢٦) .

[١٢٦] الشيطان ذئب الإنسان ..

ضعيف .

رواه الإمام أحمد (٢٣٢/٥ - ٢٣٣) ، والطبرانى فى « الكبير » (١٦٤/٢٠) ، وأبو نعيم فى « الحلية » (٢٤٧/٢) ، والحرث بن أبى أسامة فى « مسنده » (بغية الباحث : ٦٠٥) وابن الجوزى فى « تلبيس إبليس » (ص : ٥) من طرق : عن سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن العلاء بن زياد ، عن معاذ بن جبل مرفوعاً :

=

وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهى بين الذئب سريعة العطب ، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله ، فذئبه مفترسه ولا بد ، وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى ، فهى وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذئبه ، كما هى وقاية بينه بين عقوبة الدنيا والآخرة ، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعى كانت أسلم من الذئب ، وكلما بعدت عن الراعى كانت أقرب إلى الهلاك ، فأسلم ما تكون الشاة إذا قربت من الراعى ، وإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم وهى أبعد من الراعى .

* وأصل هذا كله : أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع ، وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات .

والبعد من الله مراتب بعضها أشد من بعض ، فالغفلة تبعد القلب عن الله .

= « إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم ، يأخذ الشاة القاصية والناحية ، فإياكم والشعاب ، وعليكم بالجماعة ، والعامّة ، والمسجد » .

وسنده منقطع ، بين العلاء بن زياد ومعاذ بن جبل .

وقد اختلف فى سنده على قتادة .

فأخرج أحمد (٢٤٣/٥) من طريق : عمر بن إبراهيم ، حدثنا قتادة ، عن العلاء بن زياد عن رجل حدثه يثق به ، عن معاذ بن جبل به .

قلت : وهذا سند منكر ، عمر بن إبراهيم هو العبدى ، صاحب مناكير عن قتادة ، ويخالف فى حديثه ، وليس هو من ثبت ابن أبى عروبة فى قتادة بمكان ، والأصح رواية سعيد الناقصة .

وله طريق آخر رواه عند عبد بن حميد كما فى « المنتخب من مسنده » (١١٤) من رواية : فضيل بن عياض ، عن أبان ، عن شهر بن حوشب ، عن معاذ به .
وأبان هو ابن أبى عياش ، وهو رواه متروك .

وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة ، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية ، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله .



فصل

المعاصي تسقط الكرامة

* ومن عقوباتها : سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم ، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له ، وعلى قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده ، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه ، فأسقطه من قلوب عباده ، وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك ، فعاش بينهم أسوأ عيش : خامل الذكر ، ساقط القدر ، زرى الحال ، لا حرمة له ولا فرح له ولا سرور ، فإن خمول الذكر وسقوط القدر والجاه جالب كل غم وهم وحزن ، ولا سرور معه ولا فرح ، وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة ؟

ومن أعظم نعم الله على العبد : أن يرفع له بين العالمين ذكره ، ويعلى قدره ، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم كما قال تعالى : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ (ص : ٤٥ و ٤٦) .

أى خصصناهم بخصيصة ، وهو الذكر الجميل الذى يذكرون به في هذه الدار ، وهو لسان الصدق الذى سأله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال :

﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾ (الشعراء : ٨٤)

وقال سبحانه وتعالى عنه وعن نبيه :

﴿ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً﴾

(مريم : ٥٠) .

وقال لنبية ﷺ :

(الشرح : ٤) .

﴿ورفعنا لك ذكرك﴾

فأتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم
ومتابعتهم ، وكل من خالفهم فإنه بعيد عن ذلك بحسب مخالفتهم
ومعصيتهم . □ □ □

فصل

المعصية مجلبة للذم

* ومن عقوباتها : أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف ،
وتكسوه أسماء الذم والصغار ، فتسلبه اسم المؤمن والبر والمحسن ، والمتقى
، والمطيع ، والمنيب ، والولى ، والورع والصالح ، والعابد ، والخائف ،
والأواب ، والطيب ، والمرضى ونحوها .

وتكسوه اسم الفاجر ، والعاصى ، والمخالف ، والمسىء ، والمفسد
والخبث ، والمسخوط ، والزانى ، والسارق ، والقاتل ، والكذاب ، والخائن
واللوطى ، وقاطع الرحم ، والغادر ، وأمثالها .

فهذه أسماء الفسوق و﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾

(الحجرات : ١١) .

الذى يوجب غضب الديان ، ودخول النيران ، وعيش الخزى
والهوان .

وتلك أسماء توجب رضا الرحمن ودخول الجنان ، وتوجب شرف المسمى بها على سائر نوع الإنسان ، فلو لم يكن فى عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان فى العقل ناه عنها ، ولو لم يكن فى ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الأسماء وموجباتها لكان فى العقل أمر بها ، ولكن لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، ولا مقرب لما باعد ، ولا مبعد لمن قرب .

﴿ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾

(الحج : ١٨) .



فصل

المعصية تؤثر فى العقل

* ومن عقوباتها: أنها تؤثر بالخاصة فى نقصان العقل ، فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص ، إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل ، وفكره أصح ، ورأيه أسد ، والصواب قرينه ، ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولي العقول والألباب ، كقوله تعالى : ﴿واتقون يا أولي الألباب﴾ (البقرة : ١٩٧) .

وقوله : ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون﴾

(المائدة : ١٠٣) .

وقوله تعالى :

﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ (البقرة : ٢٦٩) .

ونظائر ذلك كثيرة .

وكيف يكون عاقلاً وافر العقل من يعصى من هو فى قبضته وفى داره ، وهو يعلم أنه يراه ويشاهده فيعصيه وهو بعينه غير متوار عنه ،

ويستعين بنعمه على مساخطه ، ويستدعى كل وقت غضبه عليه ، ولعنته له وإبعاده من قرب ، وطرده عن بابه ، وإعراضه عنه ، وخذلانه له ، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه ، وسقوطه من عينه ، وحرمانه من روح رضاه وحبه ، وقرة العين بقربه ، والفوز بجواره ، والنظر إلى وجهه في زمرة أوليائه ، إلى أضعاف أضعاف ذلك من كرامة أهل الطاعة ، وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية .

فأى عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ، ثم تنقضى كأنها حلم لم يكن ، على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم ؟ بل هو سعادة الدنيا والآخرة ، ولولا العقل الذى تقوم به عليه الحجة لكان بمنزلة المجانين ، بل قد تكون المجانين أحسن حالاً منه وأسلم عاقبة ، فهذا من هذا الوجه .

وأما تأثيرها فى نقصان العقل المعيش ، فلولا الاشتراك فى هذا النقصان ، لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا ، ولكن الجائحة عامة ، والجنون فنون .

ويا عجباً لو صحت العقول لعلمت أن طريق تحصيل اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش ، إنما هو فى رضاء من النعيم كله فى رضاه ، والألم والعذاب كله فى سخطه وغضبه ، وفى رضاه قرة العيون وسرور النفوس ، وحياة القلوب ، ولذة الأرواح ، وطيب الحياة ولذة العيش ، وأطيب النعيم ، مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم يف به ، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضاً منه ، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها ، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات ، بل قد حصل على النعيمين ، وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما ، وما يحصل له فى خلال ذلك من الآلام ، فالأمر كما قال تعالى :

﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا
يرجون﴾ (النساء : ١٠٤) .

فلا إله إلا الله ، ما أنقص عقل من باع الدر بالبر ، والمسك بالرجيع ،
ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ،
بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً .



فصل

المعاصي توجب القطيعة بين العبد والرب

* ومن أعظم عقوباتها : أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك
وتعالى ، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب
الشر ، فأى فلاح ، وأى رجاء ، وأى عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير ،
وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذى لا غنى عنه طرفه عين ، ولا بدل له منه ،
ولا عوض له عنه ، واتصلت به أسباب الشر ، ووصل ما بينه وبين أعدى
عدو له : فتولاه عدوه وتخلى عنه وليه ؟ فلا تعلم نفس ما فى هذا الانقطاع
والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب .

قال بعض السلف : رأيت العبد ملقى بين الله سبحانه وبين الشيطان ،
فإن أعرض الله عنه تولاه الشيطان ، وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان ،
وقد قال تعالى :

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من
الجن ففسق عن أمر ربه أفستخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو
بئس للظالمين بدلاً﴾ (الكهف : ٥٠) .

يقول سبحانه لعباده : أنا أكرمت أباكم ، ورفعت قدره ، وفضلته

على غيره ، فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له ، تكريماً له وتشريفاً ، فأطاعوني وأبى عدوى وعدوه ، فعصى أمرى ، وخرج عن طاعتي ، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني فتطيعونه في معصيتي ، وتوالونه في خلاف مرضاتي وهم أعدى عدو لكم ؟ فواليتم عدوى وقد أمرتكم بمعاداته ، ومن والى أعداء الملك ، كان هو وأعداؤه عنده سواء ، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع ، وموالاته أوليائه ، وأما أن توالى أعداء الملك ثم تدعى أنك موال له ، فهذا محال ، وهذا لو لم يكن عدو الملك عدواً لكم ، فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة ، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة والذئب ، فكيف يليق بالعاقل أن يوالى عدوه وعدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه ؟!

ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاته بقوله :

﴿ وهم لكم عدو ﴾ (الكهف : ٥٠) .

كما نبه على قبحها بقوله :

﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ (الكهف : ٥٠) .

فتبين أن عداوته لربه ، وعداوته لنا ، كل منهما سبب يدعو إلى معاداته ، فما هذه الموالاته ؟ وما هذا الاستبدال ؟ بغس للظالمين بدلاً .

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب ، وهو : أنى عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي ، فكانت معاداته لأجلكم ، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة .



فصل

المعاصى تحقق البركة

* ومن عقوباتها : أنها تحقق بركة العمر ، وبركة الرزق ، وبركة العلم ، وبركة العمل ، وبركة الطاعة .

وبالجملة تحقق بركة الدين والدنيا ، فلا تجد أقل بركة فى عمره ودينه ودينه ممن عصى الله ، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصى الخلق قال الله تعالى :

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾
(الأعراف : ٩٦) .

وقال تعالى :

﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتهم فيه ﴾
(الجن : ١٦ و ١٧) .

وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه .

وفى الحديث : « إن روح القدس نفث فى روعى : أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته » (١٢٧) و« إن الله جعل الروح والفرح فى الرضى

[١٢٧] إن روح القدس نفث فى روعى

ضعيف بهذا اللفظ ، وله شاهد صحيح بمعناه .

رواه أبو نعيم فى « الحلية » (٢٦/١٠ - ٢٧) من حديث عفير بن معدان ، عن سليم ابن عامر ، عن أبى أمامة ، - رضى الله عنه - .

وفى سنده عفير بن معدان وهو ضعيف جداً ، حتى قال أبو حاتم : « يكثر عن =

.....

= سليم، عن أبي أمامة بما لا أصل له .

وروى من حديث ابن مسعود ، وفيه اختصار .

أخرجه القضاعى فى « الشهاب » (١١٥١) من طريق : زبيد اليا مى ، عمن أخبره ،
عن عبد الله بن مسعود به .

وسنده ضعيف لجهالة راويه عن ابن مسعود

ولكن رواه الحاكم (٤/٢) من طريق : يحيى بن أبى بكير ، حدثنى الليث بن سعد ،
عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن سعيد بن أبى أمية الثقفى ، عن يونس بن
بكير ، عن ابن مسعود بنحوه .

وفى أوله زيادة : « ليس من عمل يقرب إلى الجنة إلا قد أمرتكم به ، ولا عمل
يقرب إلى النار إلا قد نهيتكم عنه » .

قلت : سعيد بن أبى أمية لم أقف له على ترجمة ، ولكن ترجم ابن أبى حاتم
فى « الجرح والتعديل » (٥/٢/١) لسعيد بن أبى أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص الذى
يروى عن أبى أمامة ، وليس هو ، فهذا الأخير متقدم ، ورواية يونس بن بكير عن ابن
مسعود مرسله ، بل لعلها معضلة .

وقد اختلف فى إسناد هذا الحديث على سعيد بن أبى هلال .

فرواه ابن حبان (موارد : ١٠٨٤ و ١٠٨٥) من طريق عمرو بن الحارث عنه ، عن
محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - مرفوعاً بلفظ :

« لا تستبطلوا الرزق ، فإنه لن يموت العبد حتى يبلغ آخر رزق هو له ، فأجملوا فى
الطلب ، أخذ الحلال وترك الحرام » .

قلت : وهذا سند صحيح لولا الاختلاف فيه على سعيد بن أبى هلال ، وأخشى أن
يكون قد اضطرب فيه ، فمن اختلف عليه فيه ثقات ، وهو دون الثقة الثبت فى الضبط =

واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط» (١٢٨).

= قال الإمام أحمد : « ما أدرى أى شىء يخلط » فلعل الآفة منه في هذا الاختلاف .
ولكن مما يقوي أن الوجه الراجح هو روايته من حديث جابر - رضى الله عنه - :
ما أخرجه ابن ماجة (٢١٤٤) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (٤٢٠) من طريق :
الوليد بن مسلم ، عن ابن جريج ، عن أبي الزبير ، عن جابر به .
وهذا السند رجاله ثقات ، إلا أن ابن جريج والوليد بن مسلم موصوفان بالتدليس ،
وقد عنعناه ، إلا أن هذا الطريق يرجح رواية سعيد من حديث جابر ، والله أعلم .
ثم إنى بعد ذلك وقفت على طريق آخر له عن ابن المنكدر من رواية شعبة عنه .
أخرجه أبو نعيم (١٥٦/٣ - ١٥٧ و ١٥٨/٧) ، حدثنا محمد بن المظفر الحافظ [فى
جماعة ، قالوا] ، حدثنا إسحاق بن بنان ، حدثنا حبيش بن محمد الفقيه ، حدثنا وهب بن
جرير ، حدثنا شعبة به .

قلت : وهذا سند رجاله ثقات وإسحاق بن بنان ترجمه الخطيب فى «تاريخه»
(٣٩١/٦) ونقل توثيق الدارقطني له ، إلا بعض الكلام فى وهب بن جرير وفى سماعه من
شعبة ، وقد صرح بالسماع منه فى هذا الحديث فلا مجال لرده ، والله أعلم .

[١٢٨] إن الله جعل الروح والفرح فى الرضى ..

واه جداً وووى موقوفاً بسند منقطع .

روى من حديث ابن مسعود وحديث أبى سعيد - رضى الله عنهما - .

فأما حديث ابن مسعود :

فأخرجه القضاعى فى الشهاب (١١١٦) من طريق : محمد بن روح القتيرى ،
حدثنا خالد بن نجيح ، عن سفيان الثورى ، عن سليمان ، عن خيثمة ، عن ابن مسعود -
رضى الله عنه - مرفوعاً بلفظ :

« إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح .. » .

قلت : وهذا سند تالف فيه خالد بن نجيح ، قال أبو حاتم : « كذاب يفتعل
الحديث ، وهذه الأحاديث التى أنكرت على أبى صالح يتوهم أنها من فعله » ، ومحمد بن
روح القتيرى ، قال فيه ابن يونس : « منكر الحديث » .

وقد رواه أبو نعيم فى الحلية (١٣٠/٧) من وجه آخر من طريق : خالد بن يزيد
العمري ، وحدثنا سفيان الثورى ، وشريك ، وسفيان بن عيينة ، عن سليمان الأعمش ، =

.....

= عن خيثمة ، عن ابن مسعود به ، وفي أوله زيادة .

قال أبو نعيم : « غريب من حديث الثوري والأعمش ، تفرد به العمري » .
قلت : وهذا الإسناد كسابقه في الوهاء ، فالعمري هذا كذبه أبو حاتم وابن معين ،
وقال ابن حبان : « يروى الموضوعات عن الأثبات » وله سند آخر عن ابن مسعود عند
البيهقي في « الشعب » (٢٠٤) من طريق :

جعفر بن شعيب الشاشي ، حدثنا أبو حمة ، حدثنا أبو قررة ، عن سفيان بن سعيد ، عن
منصور بن المعتمر ، عن خيثمة ، عن ابن مسعود به .

قلت : الشاشي هذا ترجمه الخطيب في « تاريخه » (١٩٥/٧) ولم يذكر فيه جرحاً
ولا تعديلاً ، وأبو حمة هو محمد بن يوسف ، ذكره ابن حبان في « الثقات » (١٠٤/٩) ،
وقال : « ربما أخطأ وأغرب » ، ورواية خيثمة وهو ابن عبد الرحمن ، عن ابن مسعود -
رضي الله عنه - مرسله .

وأجود ما روى فيه :

ما أخرجه البيهقي في « الشعب » (٢٠٥ - الطبعة السلفية) من طريق : ابن أبي
الدنيا ، حدثنا الحسن بن الصباح ، حدثنا سفيان ، عن أبي هارون المدني ، قال : قال ابن
مسعود :

« الرضا أن لا ترضى الناس بسخط الله ، ولا تحمد أحداً على رزق الله ، ولا تلم
أحداً على ما لم يؤتك الله ، فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره ،
والله بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك
والسخط » .

قلت : وهذا سند صحيح إلى أبي هارون المدني ، وهو موسى بن أبي عيسى الحنطاط ،
إلا أنه منقطع بينه وبين ابن مسعود - رضي الله عنه - .

وأما حديث أبي سعيد الخدري :

فأخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١٠٦/٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٠٣) من
طريق : محمد بن مروان السدي حدثنا عمرو بن قيس الملائي ، عن عطية العوفي عن أبي
سعيد به .

قلت : محمد بن مروان السدي واه تالف ، كذبه جرير بن عبد الحميد ، وقال
صالح بن محمد : « كان يضع » ، وعطية العوفي ضعيف .

وقد تقدم الأثر الذى ذكره أحمد فى «كتاب الزهد» :

أنا الله ، إذا رضيت باركت ، وليس لبركتى منتهى ، وإذا غضبت لعنت ولعنتى تدرك السابع من الولد .

وليست سعة الرزق والعمل بكثرتة ، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه .

وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته ، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره ، بل حياة البهائم خير من حياته ، فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبه وعبادته ، وحده ، والإنابة إليه ، والطمأنينة بذكره ، والأنس بقربه ، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله، ولو تعوض عنها بما تعوض مما فى الدنيا ، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضاً عن هذه الحياة ، فمن كل شئ يفوت العبد عوض ، وإذا فاته الله لم يعوض عنه شئ ألبتة .

وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغنى بالذات ، والعاجز بالذات عن القادر بالذات ، والميت عن الحى الذى لا يموت ، والمخلوق عن الخالق ، ومن لا وجود له ولا شئ له من ذاته ألبتة، عمن غناه وحياته وكماله ووجوده ورحمته من لوازم ذاته ؟ وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والأرض .

وإنما كانت معصية الله سبباً لحق بركة الرزق والأجل، لأن الشيطان موكل بها، وبأصحابها ، فسلطانه عليهم ، وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه، وكل شئ يتصل به الشيطان ويقارنه، فبركته محققة، ولهذا شرع ذكر اسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع لما فى مقارنة اسم الله من البركة، وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة،

ولا معارض له ، وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة ، فإن الرب هو الذى يبارك وحده ، والبركة كلها منه ، وكل ما نسب إليه مبارك ، فكلامه مبارك ، ورسوله مبارك ، وعبيده المؤمن النافع لخلقه مبارك ، وبيته الحرام مبارك ، وكنانته من أرضه ، وهى الشام أرض البركة ، وصفها بالبركة فى ست آيات من كتابه ، فلا مبارك إلا هو وحده ، ولا مبارك إلا ما نسب إليه ، أعنى إلى ألوهيته ومحبته ورضاه ، وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقه ، وكل ما بابعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه ، ولا خير فيه ، وكل ما كان قريباً من ذلك ففيه من البركة على حسب قربه منه .

و ضد البركة اللعنة ، فأرض لعنها الله ، أو شخص لعنه الله ، أو عمل لعنه الله أبعد شيء من الخير والبركة ، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه ألبتة .

وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه ، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه واتصاله به ، فمن هاهنا كان للمعاصى أعظم تأثير فى محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل .

وكل وقت عصيت الله فيه ، أو مال عصى الله به ، أو بدن أو جاه أو علم أو عمل فهو على صاحبه ليس له ، فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعمله وعلمه إلا ما أطاع الله به .

ولهذا فمن الناس من يعيش فى هذه الدار مائة سنة أو نحوها ، ويكون عمره لا يبلغ عشر سنين أو نحوها ، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله فى الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو

نحوها ، وهكذا الجاه والعلم.

وفى الترمذى عنه رحمه الله : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله عز وجل وما والاه ، وعالم أو متعلم » (١٢٩).

وفى أثر آخر : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله » (١٣٠) فهذا هو الذى فيه البركة خاصة ، والله المستعان.

[١٢٩] الدنيا ملعونة...

منكر.

رواه الترمذى (٢٣٢٢) ، وابن ماجه (٤١١٢) والعقيلي فى « الضعفاء » (٣٢٦/٢) من طريق : عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان ، عن عطاء بن قرة ، عن عبد الله بن ضمرة السلولى ، عن أبى هريرة به.

قال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب ».

يشير بذلك إلى نكارتة ، وكيف لا ، وقد تفرد به بهذا الإسناد عبد الرحمن بن ثابت ابن ثوبان ، وهو ضعيف الحديث صاحب مناكير ، وعبد الله بن ضمرة السلولى مجهول الحال.

[١٣٠] الدنيا ملعونة..

شاذ ، والصحيح الإرسال.

رواه أبو نعيم فى « الحلية » (١٥٧/٣ و ٩٠/٧) ، والبيهقى فى « الشعب » (١٠٥١٢) من طريق : عبد الله بن الجراح القهستانی ، عن عبد الملك بن عمرو أبى عامر العقدى ، عن سفيان الثورى ، عن ابن المنكدر ، عن جابر ، مرفوعا به.

قال أبو نعيم : « غريب من حديث محمد والثورى ، تفرد به عبد الله بن الجراح ».

ونقل ابن الجوزى فى « العلل » (٧٩٧/٢) عن الدارقطنى قوله : « غير محفوظ ».

قلت : وهو كما قال.

فقد رواه الإمام أحمد - رحمه الله - فى « الزهد » (ص: ٣٧) : حدثنا يحيى ، عن سفيان ، عن محمد بن المنكدر ، قال : قال رسول الله ﷺ فذكره مرسلًا.

قلت : ويحيى هو القطان ، وروايته الأصح والحمل فى الرواية الزائدة على عبد الله بن الجراح ، والله أعلم.

فصل

المعصية تجعل صاحبها من السفلة

* ومن عقوباتها :

أنها تجعل صاحبها من السفلة بعد أن كان مهيبًا لأن يكون من العلية ، فإن الله خلق خلقه قسمين : عليّة ، وسفلة ، وجعل عليين مستقر العلية ، وأسفل سافلين مستقر السفلة ، وجعل أهل طاعته الأعلى في الدنيا والآخرة ، وأهل معصيته الأسفلين في الدنيا والآخرة ، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه ، وأهل معصيته أهون خلقه عليه ، وجعل العزة لهؤلاء ، والذلة والصغار لهؤلاء ، كما في مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال :

« بعثت بالسيف بين يدي الساعة ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري » (١٣١).

فكلما عمل العبد معصية نزل إلى أسفل درجة ، ولا يزال في نزول حتى يكون من الأسفلين ، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة ، ولا يزال في ارتفاع حتى يكون من الأعلىين.

وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه ، والنزول من وجه ، وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله ، فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة ، كمن كان بالعكس.

[١٣١] بعثت بالسيف بين يدي الساعة .

سبق تخريجه والكلام عليه برقم (١١٤).

ولكن يعرض هاهنا للنفس غلط عظيم ، وهو أن العبد قد ينزل نزولاً بعيداً أبعد مما بين المشرق والمغرب ، ومما بين السماء والأرض ، فلا يفى صعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد ، كما فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة لا يلقي لها بالاً يهوى بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب » (١٣٢).

فأى صعود يوازى هذه المنزلة ؟ والنزول أمر لازم للإنسان ، ولكن من الناس من يكون نزوله إلى غفلة ، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد إلى درجته ، أو إلى أرفع منها بحسب يقظته.

ومنهم من يكون نزوله إلى مباح لا ينوى به الاستعانة على الطاعة: فهذا متى رجع إلى الطاعة فقد يعود إلى درجته ، وقد لا يصل إليها ، وقد يرتفع عنها ، فإنه قد يعود أعلى همة مما كان ، وقد يكون أضعف همة ، وقد تعود همته كما كانت.

ومنهم من يكون نزوله إلى معصية ، إما صغيرة أو كبيرة ، فهذا قد يحتاج فى عوده إلى توبة نصوح ، وإنابة صادقة.

* واختلف الناس : هل يعود بعد التوبة إلى درجته التى كان فيها ، بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب ، وتجعل وجوده كعدمه ، فكأنه لم يكن ، أولاً يعود ، بناء على أن التوبة ، تأثيرها فى إسقاط العقوبة ، وأما الدرجة التى فاتته فإنه لا يصل إليها.

[١٣٢] إن العبد ليتكلم بالكلمة...

صحيح.

رواه البخارى (١٢٦/٤) ، ومسلم (٢٢٩٠/٤) ، والترمذى (٢٣١٤) ، والنسائى فى « الكبرى » (تحفة: ٢٩٤/١٠) من طريق : عيسى بن طلحة ، عن أبى هريرة به.

قالوا : وتقرير ذلك : أنه كان مستعداً باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصى فيه لصعود آخر ، وارتقاء تحمله أعماله السالفة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذي يملكه ، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح ، فقد راح عليه في زمن المعصية ارتفاع وربح بجملة أعماله ، فإذا استأنف العمل استأنف صعوداً من نزول ، وكان قبل ذلك صاعداً من أسفل إلى أعلى ، وبينهما بون عظيم.

قالوا : ومثل ذلك مثل رجلين يرتقيان في سلمين لا نهاية لهما ، وهما سواء ، فنزل أحدهما إلى أسفل ، ولو درجة واحدة ، ثم استأنف الصعود ، فإن الذي لم ينزل يعلو عليه ولا بد.

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بين الطائفتين حكماً مقبولاً فقال : التحقيق أن من التائبين من يعود إلى أرفع من درجته ، ومنهم من يعود إلى مثل درجته ، ومنهم من لا يصل إلى درجته.

قلت : وهذا بحسب قوة التوبة وكمالها ، وما أحدثته المعصية للعبد من الذل والخضوع ، والإنابة ، والحذر والخوف من الله ، والبكاء من خشية الله ، فقد تقوى هذه الأمور حتى يعود التائب إلى أرفع من درجته ، ويصير بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة ، فإنها نفت عنه داء العجب ، وخلصته من ثقته بنفسه وإدلاله بأعماله ، ووضعت خد ضراسته وذله وانكساره على عتبة باب سيده ، ومولاه ، وعرفته قدره ، وأشهدته فقره وضرورته إلى حفظ سيده ومولاه له وإلى عفوه عنه ومغفرته له وأخرجت من قلبه صولة الطاعة ، وكسرت أنفه أن يشمخ أو يتكبر بها ، أو يرى نفسه بها خيراً من غيره ، وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين ، ناكس الرأس بين يدي ربه ، مستحيياً منه

خائفاً وجللاً ، محتقراً لطاعته ، مستعظماً لمعصيته ، قد عرف نفسه بالنقص والذم ، وربّه متفرد بالكمال والحمد والوفاء .

كما قيل :

استأثر الله بالوفاء وبالأحـمد ، وولى الملامة الرجال

فأى نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه ، ورأى نفسه دونها ، ولم يرها أهلاً .

وأى نقمة أو بلية وصلت إليه رأى نفسه أهلاً لما هو أكبر منها ، ورأى مولاه قد أحسن إليه ، إذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره ، ولا أدنى جزء منه .

فإن ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات ، فضلاً عن هذا العبد الضعيف العاجز ، فإن الذنب وإن صغر ، فإن مقابلة العظيم الذى لا شيء أعظم منه ، الكبير الذى لا شيء أكبر منه ، الجليل الذى لا أجل منه ولا أجمل ، المنعم بجميع أصناف النعم دقيقها وجليلها - من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها ، فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر ، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالردائل ، فكيف بعظيم السموات والأرض وملك السموات والأرض ، وإله السموات والأرض ؟ ولولا أن رحمته غلبت غضبه ، ومغفرته سبقت عقوبته وإلا لتكدكت الأرض بمن قابله بما لا يليق بمقابلته به ، ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السموات والأرض من معاصى العباد ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (فاطر : ٤١) .

فتأمل : ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما « الحليم والغفور »
كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت
السموات والأرض؟

وقد أخبر سبحانه عن بعض كفر عباده أنه:

﴿تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً﴾

(مريم : ٩٠).

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه وخالفا
فيه نهيه ، ولعن إبليس وطرده ، وأخرجه من ملكوت السموات والأرض
بذنب واحد ارتكبه ، وخالف فيه أمره ، ونحن معاشر الحمقى كما قيل:

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجى درج الجنان لدى النعيم الخالد

ولقد علمنا أخرج الأبوين من ملكوته الأعلى بذنب واحد

* والمقصود : أن العبد قد يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة

وأرفع درجة ، وقد تضعف الخطيئة همته ، وتوهن عزمه ، وتمرض قلبه ،
فلا يقوى دواء التوبة على إعادته إلى الصحة الأولى ، فلا يعود إلى درجته ،
وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود إلى مثل عمله ،
فيعود إلى درجته.

هذا كله إذا كان نزوله إلى معصية ، فإن كان نزوله إلى أمر يقدر في
أصل إيمانه ، مثل الشكوك والريب والنفاق ، فذاك نزول لا يرجى لصاحبه
صعود إلا بتجديد إسلامه.



فصل

المعاصي تجرئ على الإنسان أعداءه

* ومن عقوباتها : أنها تجرئ على العبد من لم يكن يجترئ عليه من أصناف المخلوقات ، فتجترئ عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتحزين ، وإنسائه ما به مصلحته في ذكره ، ومضرته في نسيانه ، فتجترئ عليه الشياطين حتى تؤزه إلى معصية الله أزاً.

وتجترئ عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره ، ويجترئ عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم.

قال بعض السلف : إنى لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق امرأتى ودابتى.

وكذلك يجترئ عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود الله ، وتجترئ عليه نفسه فتأسد عليه وتستضعف عليه ، فلو أرادها لخير لم تطاوعه ، ولم تنقذ له ، وتسوقه إلى ما فيه هلاكه ، شاء أم أبى.

وذلك أن الطاعة حصن الرب تبارك وتعالى الذي من دخله كان من الآمنين.

فإذا فارق الحصن اجترأ عليه قطاع الطريق وغيرهم ، وعلى حسب اجترائه على معاصي الله ، يكون اجترأ هذه الآفات والنفوس عليه ، وليس له شيء يرد عنه ، فإن ذكر الله وطاعته ، والصدقة وإرشاد الجاهل ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر - وقاية ترد عن العبد ، بمنزلة القوة التي ترد المرض وتقاومه ، فإذا سقطت القوة غلب واراد المرض فكان الهلاك

فلا بد للعبد من شيء يرد عنه ، فإن موجب السيئات والحسنات تتدافع ، ويكون الحكم للغالب كما تقدم ، وكلما قوى جانب الحسنات كان الرد أقوى كما تقدم ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، والإيمان قول وعمل ، فبحسب قوة الإيمان يكون الدفع ، والله المستعان .



فصل

المعاصي تضعف العبد أمام نفسه

ومن عقوباتها : أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه ، فإن كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ، ومعاده ، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل .

وأقواهم وأكيسهم من قوى على نفسه وإرادته ، فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره .

وفى ذلك تفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم ، فأعرفهم من كان عارفاً بأسباب السعادة والشقاوة وأرشدهم من أثر هذه على هذه ، كما أن أسفهم من عكس الأمر .

والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان إلى نفسه في تحصيل هذا العلم . وإيثار الحظ الأشرف العالى الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع ، فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم ، وعن الاشتغال بما هو أولى به ، وأنفع له فى الدارين .

فيذا وقع فى مكروه واحتاج إلى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه ، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدأ ، ولزم قرابه

بحيث لا ينجذب مع صاحبه إذا جذبه ، فعرض له عدو يريد قتله ، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه ، فلم يخرج معه ، فدهمه العدو وظفر به .

كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخنًا بالمرض . فإذا احتاج إلى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئاً ، والعبد إنما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه ، والجوارح تبع للقلب ، فإذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع بها فما الظن بها؟

وكذلك النفس فإنها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف ، أعنى النفس المطمئنة ، وإن كانت الأمانة تقوى وتأسد ، وكلما قويت هذه ضعفت تلك ، فيبقى الحكم والتصرف للأمانة ، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتاً لا يرتجى معه حياة ، فهذا ميت في الدنيا ، ميت في البرزخ ، غير حي في الآخرة حياة ينتفع بها ، بل حياته يدرك بها الألم فقط .

* والمقصود : أن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خانته قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له ، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والإنابة إليه والجمعية عليه ، والتضرع والتذلل والاستكثار بين يديه ، ولا يطاوعه لسانه لذكره ، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه ، فينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر الذكر ، ولا ينحبس القلب واللسان على المذكور ، بل إن ذكر أو دعا ذكر بقلب لا به ساه غافل ، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقذ له ولم تطاوعه ، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي ، كمن له جند يدفعون عنه الأعداء ، فأهمل جنده وضعفهم وأضعفهم ، وقطع أخبارهم ، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة .

هذا ، وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى منه ، وأمر وهو أن يخونه قلبه
ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى فربما تعذر عليه النطق
بالشهادة ، كما شاهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك ، حتى قيل
لبعضهم ، قل : « لا إله إلا الله » فقال : آه آه ، لا أستطيع أن أقولها ، وقيل
لآخر : قل « لا إله إلا الله » فقال :

شاه ، رخ ، غلبتكَ ، ثم قضى .

وقيل لآخر : قل : « لا إله إلا الله » فقال :

يارب قائلة يوماً وقد تعبت كيف الطريق إلى حمام منجاب
ثم قضى .

وقيل لآخر : قل « لا إله إلا الله » فجعل يهذى بالغناء ، ويقول : تننا
تنننا ، حتى قضى .

وقيل لآخر ذلك ، فقال : ما ينفعنى ما تقول ، ولم أدع معصية إلا
ركبتها ، ثم قضى ولم يقلها .

وقيل لآخر ذلك ، فقال : وما يغنى عنى ، وما أعرف أنى صليت لله
صلاة ؟ ولم يقلها .

وقيل لآخر ذلك ، فقال : هو كافر بما تقول ، وقضى .

وقيل لآخر ذلك ، فقال : كلما أردت أن أقولها ولسانى يمسك عنها .

وأخبرنى من حضر بعض الشحاذين عند موته ، فجعل يقول : لله :
فلس لله ، فلس لله ، حتى قضى .

وأخبرنى بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده ، وجعلوا

يلقنونه «لا إله إلا الله» ، وهو يقول : هذه القطعة رخيصة ، هذا مشترى جيد ، هذه كذا ، حتى قضى .

وسبحان الله ! كم شاهد الناس من هذا عبراً ؟ والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم .

فإذا كان العبد فى حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان ، واستعمله فيما يريد من معاصى الله ، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى ، وعطل لسانه عن ذكره ، وجوارحه عن طاعته ، فكيف الظن به عند سقوط قواه ، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزاع ؟

وجمع الشيطان له كل قوته وهمته ، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته ، فإن ذلك آخر العمل ، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت وأضعف ما يكون هو فى تلك الحال ، فمن ترى يسلم على ذلك ؟ فهناك .

﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضلل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ (إبراهيم : ٢٧) .

فكيف يوفق بحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطاً ؟ فبعيد من قلبه بعيد من الله تعالى غافل عنه ، متعبد لهواه ، أسير لشهواته ، ولسانه يابس من ذكره ، وجوارحه معطلة من طاعته ، مشغولة بمعصيته - أن يوفق للخاتمة بالحسنى .

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين ، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعاً بالأمان : ﴿أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ (القلم : ٣٩ و ٤٠) .

كما قيل:

يا آمناً مع قبح الفعل منه أهل
جمعت شيتين : آمناً ، واتباع هوى
والمحسنون على درب المخاوف قد
فرطت في الزرع وقت البذر من سفه
هذا ، وأعجب شيء فيك زهدك في
من السفية إذا بالله؟ أنت ، أم الـ

أتاك توقيع أمن أنت تملكه؟
هذا ، وإحداهما في المرء تهلكه
ساروا ، وذلك درب لست تسلكه
فكيف عند حصاد الناس تدركه؟
دار البقاء بعيش سوف تتركه
مغبون في البيع غبناً سوف تدركه.



فصل

المعاصي تعمى القلب

* ومن عقوباتها : أنها تعمى القلب ، فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولا بد ، وقد تقدم بيان أنها تضعفه ولا بد ، فإذا عمى القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه في نفسه ، وفي غيره بحسب ضعف بصيرته وقوته.

فإن الكمال الإنساني مداره على أصلين : معرفة الحق من الباطل ، وإيثاره عليه ، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين ، وهما اللذان أثنى الله سبحانه على أنبيائه بهما في قوله تعالى :

﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار﴾

فالأيدي : القوى في تنفيذ الحق ، والأبصار : البصائر في الدين ،

فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه ، وانقسم الناس فى هذا المقام أربعة أقسام ، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى .

القسم الثانى : عكس هؤلاء ، من لا بصيرة له فى الدين ، ولا قوة على تنفيذ الحق ، وهم أكثر هذا الخلق ، وهم الذين رؤيتهم قذى العيون وحمى الأرواح ، وسقم القلوب ، يضيقون الديار ، ويغلون الأسعار ، ولا يستفاد بصحبتهم إلا العار والشنار .

القسم الثالث : من له بصيرة بالحق ومعرفة به ، لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة إليه ، وهذا حال المؤمن الضعيف ، والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله منه .

القسم الرابع : من له قوة وهمة وعزيمة ، لكنه ضعيف البصيرة فى الدين ، لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، بل يحسب كل سوداء تمر ، وكل بيضاء شحمة ، يحسب الورم شحماً ، والدواء النافع سماً .

وليس فى هؤلاء من يصلح للإمامة فى الدين ، ولا هو موضع لها سوى القسم الأول .

قال الله تعالى : ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ (السجدة: ٢٤) .

فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة فى الدين ، هؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين ، وأقسم بالعصر - الذى هو زمن سعى الخاسرين والرابحين - على أن من عداهم فهو من الخاسرين .

فقال تعالى :

﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ (العصر: ١، ٣).

ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه ، حتى يوصى بعضهم بعضاً به ، ويرشده إليه ، ويحضه عليه ، وإذا كان من عدا هؤلاء خساراً ، فمعلوم أن المعاصي والذنوب تعمى بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغي ، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه ، بل قد يتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره ، فيدرك الباطل حقاً والحق باطلاً ، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً ، فينتكس في سيره ، ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة ، إلى سفره إلى مستقر النفوس المبجلة ، التي رضيت بالحياة الدنيا ، واطمأنت لها ، وغفلت عن الله وآياته ، وتركت الاستعداد للقاءه ، ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها ، لكانت داعية إلى تركها والبعد منها ، والله المستعان.

وهذا : كما أن الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصقله ، وتقويه وتثبتته ، حتى يصير كالمرآة المجلوس في جلائها وصفائها فيمتلئ نوراً ، فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب ، فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد ، حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعاً ، فيجتمع عليه الشياطين ، فيقول بعضهم لبعض : ما شأنه ؟ فيقال : أصابه إنسى ، وبه نظرة من الإنس .

فيا نظرة من قلب حر منور يكاد لها الشيطان بالنور يحرق

أفيستوى هذا القلب وقلب مظلمة أرجاؤه ، مختلفة أهواؤه ، قد اتخذها الشيطان وطنه ، وأعدده مسكنه ، إذا تصبح بطلعته حياه ، وقال :

فديت من قرين لا يفلح فى دنياه ولا فى آخراه؟

قرينك فى الدنيا وفى الحشر بعدها فأنت قرين لى بكل مكان.

فإن كنت فى دار الشقاء فإننى وأنت جميعاً فى شقاء وهوان.

قال الله تعالى :

﴿ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ، ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون﴾ (الزخرف : ٣٦-٣٩).

فأخبر سبحانه أن من عشا عن ذكره ، وهو كتابه الذى أنزله على رسوله فأعرض عنه ، وعمى عنه ، وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ، ومعرفة مراد الله منه ، قيض الله له شيطاناً عقوبة له بإعراضه عن كتابه ، فهو قرينه الذى لا يفارقه فى الإقامة ولا فى السير ، ومولاه وعشيرته الذى هو بئس المولى وبئس العشير.

رضيعا لبان ثدى أم ، تقاسما بأسحم داج عوض ، لا نتفرق ثم أخبر سبحانه أن الشيطان يصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته ، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى ، حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين كنت لى فى الدنيا ، أضللتنى عن الهدى بعد إذ جاءنى ، وصددتنى عن الحق وأغويتنى ، حتى هلكت ، وبئس القرين أنت لى اليوم.

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره فى مصيبته ، حصل له بالتأسى نوع

تخفيف وتسليّة ، أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب ، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه ، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة ، كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ، ولكن أعزى النفس عنه بالتأسي .
فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال:
﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾
(الزخرف: ٣٩).



فصل

المعاصي عدو لدود

* ومن عقوباتها : أنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه ، وجيش يقويه به على حربه ، وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين ، ولا ينام منه ولا يغفل عنه ، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه ، يبذل جهده في معاداته في كل حال ، ولا يدع أمراً يكيد به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله إليه ، ويستعين عليه ببني جنسه من شياطين الجنة ، وغيرهم من شياطين الإنس : فقد نصب له الحبائل ، وبغى له الغوائل ، ومد حوله الأشرار ، ونصب له الفخاخ والشباك ، وقال لأعدائه: دونكم عدوكم وعدو أيكم لا يفوتكم ، ولا يكون حظّه الجنة وحظكم النار ، ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة ، وقد علمتم أن ما جرى على وعليكم من

الحزى واللعن والإبعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله ، فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا فى هذه البلية ، إذ فاتتنا شركة صالحهم فى الجنة ، وقد أعلمنا الله سبحانه بذلك كله من عدونا ، وأمرنا أن نأخذ له أهبتة ، ونعد له عدته .

ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وأنه قد سلط عليهم أمدهم بعساكر وجند يلقونه بها ، وأمد عدوهم أيضاً بجند وعساكر يلقاهاهم بها ، وأقام سوق الجهاد فى هذه الدار فى مدة العمر ، التى هى بالإضافة إلى الآخرة كنفس واحد من أنفاسها ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه فى أشرف كتبه ، وهى التوراة والإنجيل والقرآن ، وأخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه ، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التى من أراد أن يعرف قدرها فلي نظر إلى المشتري من هو ؟ وإلى الثمن المبذول فى هذه السلعة ، وإلى من جرى على يديه هذا العقد .

فأى فوز أعظم من هذا ؟ وأى تجارة أربح منه ؟

ثم أكد سبحانه معهم هذا الأمر بقوله :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُوْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَى تَجْوِبُهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الصف : ١٠-١٣) .

ولم يسلط هذا العدو على عبده المؤمن الذى هو أحب أنواع

المخلوقات إليه ، إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه ، وأهله أرفع الخلق عنده درجات ، وأقربهم إليه وسيلة ، فعقد سبحانه لواء هذه الحرب لخلاصة مخلوقاته ، هو القلب الذى هو محل معرفته ومحبه ، وعبوديته والإخلاص له ، والتوكل عليه والإنابة إليه ، فولاه أمر هذه الحرب ، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ (الرعد : ١١).

يعقب بعضهم بعضاً ، كلما ذهب بدل جاء بدل آخر ، يثبتونه ويأمرونه بالخير ، ويحضونه عليه ، ويعدون بكرامة الله ويصبرونه ويقولون : إنما هو صبر ساعة ، وقد استرحت راحة الأبد.

ثم أمده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه ، فأرسل إليه رسوله ﷺ ، وأنزل إليه كتابه فازداد قوة إلى قوته ، ومدداً إلى مدده ، وعدة إلى عدته ، وأيده مع ذلك بالعقل وزيراً له ومدبراً ، وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له ، وبالإيمان مثبتاً له ومؤيداً وناصرأ ، وباليقين كاشفاً له عن حقيقة الأمر ، حتى كأنه يعاين ما وعد الله تعالى به أوليائه وحزبه على جهاد أعدائه فالعقل يدبر أمر جيشه ، والمعرفة تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها ، والإيمان يثبت ويقويه ويصبره ، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة.

ثم أمد سبحانه القائم بهذه الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة ، فجعل العين طليعته ، والأذن صاحب خبره ، واللسان ترجمانه ، واليدين والرجلين أعوانه ، وأقام ملائكته وحمله عرشه يستغفرون له ، ويسألون له أن يقيه السيئات ، ويدخله الجنات ، وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه ، وقال : هؤلاء حزبي وحزب الله هم المفلحون ، قال الله تعالى :

﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ (المجادلة: ٢٢).
وهؤلاء جندي.

﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ (الصفات: ١٧٣).

وعلم سبحانه عباده كيفية هذه الحرب والجهاد ، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ (آل عمران : ٢٠٠).

ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة ، فلا يتم له الصبر إلا بمصابرة العدو ، وهي مقاومته ومنازلته ، فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهو المراقبة ، وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل معه العدو ، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه ، فالمرابطة لزوم هذه الثغور ، ولا يخلى مكانها فيصادف العدو الثغر خالياً فيدخل منه.

فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين ، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان ، وقد أدخلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد فدخل منه العدو ، فكان ما كان.

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو: تقوى الله تعالى ، فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المراقبة إلا بالتقوى ، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر.

■ التقاء الجيشين.

* فانظر الآن فيك إلى التقاء الجيشين ، واصطدام العسكرين ، وكيف تدال مرة ، ويدال عليك مرة أخرى ؟ أقبل ملك الكفرة بجنوده وعساكره

فوجد القلب فى حصنه جالساً على كرسي مملكته ، أمره نافذ فى أعوانه ،
وجنده قد حفوا به ، يقاتلون عنه ويدافعون عن حوزته ، فلم يمكنه الهجوم
عليه إلا بمخامرة بعض امرائه وجنده عليه ، فسأل عن أخص الجند به
وأقربهم منه منزلة ، فقليل له : هى النفس ، فقال لأعوانه : ادخلوا عليه من
مرادها ، وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها ، فعدوها به ، ومنوها إياه ،
وانقشوا صورة المحبوب فيها فى يقظتها ومنامها ، فإذا اطمأنت إليه وسكنت
عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطايفها ، ثم جروها بها إليكم ،
فإذا خامرت على القلب وصارت معكم عليه ملكتم ثغور العين والأذن
واللسان ، والفم واليد والرجل ، فرابطوا على هذه الثغور كل المراقبة ،
فمتى دخلتم منها إلى القلب فهو قتيل أو أسير ، أو جريح مثخن
بالجراحات ، ولا تخلوا هذه الثغور ، ولا تمكنوا سرية تدخل فيها إلى القلب
فتخرجكم منها ، وإن غلبتم فاجتهدوا فى إضعاف السرية ووهنها ، حتى لا
تصل إلى القلب ، وإن وصلت إليه وصلت ضعيفة لا تغنى عنه شيئاً .



فصل

ثغر العين

فإذا استوليتم على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين أن يكون نظره اعتباراً بل اجعلوا نظره تفرجاً واستحساناً وتلهياً ، فإن استرق نظرة عبدة فأفسدوها عليه بنظرة الغفلة والاستحسان والشهوة ، فإنه أقرب إليه وأعلق بنفسه ، وأخف عليه ، ودونكم ثغر العين ، فإن منه تنالون بغيتكم ، فإنى ما أفسدت بنى آدم بشيء مثل النظر ، فإنى أبذر به فى القلب بذر الشهوة ، ثم أسقيه بماء الأمنية ، ثم لا أزال أعده وأمنيه حتى أقوى عزيمته ، وأقوده بزمam الشهوة إلى الانخلاع من العصمة.

فلا تهملوا أمر هذا الثغر ، وأفسدوه بحسب استطاعتكم ، وهونوا عليه أمره وقولوا له : مقدار نظرة تدعوك إلى تسييح الخالق ، والتأمل لبديع صنيعة ، وحسن هذه الصورة التى إنما خلقت ليستدل بها الناظر عليه ، وما خلق الله لك العينين سدى ، وما خلق هذه الصورة ليحجبها عن النظر .

وإن ظفرتم به قليل العلم فاسد العقل ، فقولوا له : هذه الصورة مظهر من مظاهر الحق ومجلى من مجاليه ، فادعوه إلى القول بالاتحاد ، فإن لم يقبل فالقول بالحلول العام أو الخاص .

ولا تقنعوا منه بدون ذلك ، فإنه يصير به من إخوان النصارى ، فمروه حينئذ بالعفة والصيانة والعبادة والزهد فى الدنيا ، واصطادوا عليه وبه الجهال ، فهذا من أكبر خلفائى وأكبر جندى ، بل أنا من جنده وأعوانه.



فصل ثغر الاذن

* ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يفسد عليكم الأمر ، فاجتهدوا أن لا تدخلوا منه إلا الباطل ، فإنه خفيف على النفس ، تستحليه وتستحسنه ، تخيروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب ، وامزجوه بما تهوى النفس مزجاً .

وألقوا الكلمة ، فإن رأيتم منه إصغاءً إليها فزجوه بأخواتها ، وكلما صادقتم منه استحسان شيء فالهجوا له بذكره ، وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله - ﷺ - أو كلام النصحاء ، فإن غلبتم على ذلك ودخل من ذلك شيء ، فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكير فيه والعظة به ، إما بإدخال ضده عليه ، وإما بتحويل ذلك وتعظيمه ، وأن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه ، وهو حمل يثقل عليها لا تستقل به ونحو ذلك ، وإما بإرخاصه على النفوس وأن الاشتغال ينبغي أن يكون بما هو أعلى عند الناس ، وأعز عليهم ، وأغرب عندهم وزبونه القائلون له أكثر ، وأما الحق فهو مهجور ، وقائله معرض نفسه للعداوة والرابع بين الناس أولى بالإيثار ونحو ذلك ، فتدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله ويخف عليه وتخرجون له الحق في كل قالب يكرهه ويثقل عليه .

وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر إلى إخوانهم من شياطين الإنس ، كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول ، وتتبع عثرات الناس والتعرض من البلاء لما لا يطيق ، وإلقاء الفتن بين الناس ، ونحو ذلك ، ويخرجون أتباع السنة ووصف الرب تعالى بما وصف به

نفسه ووصفه به رسوله ﷺ في قالب التجسيم والتشبيه والتكييف ،
 ويسمون علو الله على خلقه واستواءه على عرشه ومبايئته لمخلوقاته تحيزاً ،
 ويسمون نزوله إلى السماء الدنيا وقوله : « من يسألني فأعطيه » (١٣٣) : تحركاً
 وانتقالاً ، ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح ،
 ويسمون ما يقوم به من أفعاله حوادث ، وما يقوم به من صفاته أعراضاً ، ثم
 يتوصلون إلى نفى ما وصف به نفسه بنفى هذه الأمور ، ويوهمون الأغمار ،
 وضعفاء البصائر أن إثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله وسنة رسوله
 ﷺ تستلزم هذه الأمور ، ويخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه
 والتعظيم ، وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظه ، ويردونه بعينه
 بلفظ آخر ، قال الله تعالى :

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى
 بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ (الأنعام : ١١٢) .

فسماه زخرفاً ، وهو باطل ، لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع ،
 ويلقيه إلى سمع المغرور فيغتر به .

والمقصود : أن الشيطان قد لزم ثغر الأذن أن يدخل فيها ما يضر العبد
 ولا ينفعه ، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه ، وإن دخل بغير اختياره أفسده عليه .

[١٣٣] من يسألني فأعطيه .

صحيح .

رواه البخارى (١٠١/٤) ، ومسلم (٥٢٢/١) ، وأبو عوانة (٢٨٨/٢) ، وأبو داود
 (١٣١٥) ، والترمذى (٣٤٩٨) ، والنسائى فى « اليوم والليلة » (٩٤٨٤) ، وابن ماجه
 (١٣٦٦) من طريق : الزهرى ، عن أبى عبد الله الأغر ، وأبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن
 أبى هريرة بحديث نزول الرب عز وجل فى الثلث الأخير من الليل .

فصل

ثغر اللسان

* ثم يقول : قوموا على ثغر اللسان ، فإنه الثغر الأعظم ، وهو قبالة الملك ، فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه ، وامنعوه أن يجرى عليه شيء مما ينفعه من : ذكر الله تعالى واستغفاره ، وتلاوة كتابه ، ونصيحة عباده ، والتكلم بالعلم النافع ، ويكون لكم في هذا الثغر أمران عظيمان ، لا تبالون بأيهما ظفرتم :

أحدهما : التكلم بالباطل ، فإن المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم .

والثاني : السكوت عن الحق : فإن الساكت عن الحق أخ لكم أخرس كما أن الأول أخ ناطق ، وربما كان الأخ الثاني أنفع أخويكم لكم ، أما سمعتم قول الناصح : المتكلم بالباطل شيطان ناطق ، والساكت عن الحق شيطان أخرس .

فالرباط الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن الباطل ، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق ، وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق . واعلموا يا بني أن ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بنى آدم ، وأكبهم منه على مناخرهم في النار ، فكم لى من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر ؟

وأوصيكم بوصية فاحفظوها : لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة ، ويكون الآخر على لسان السامع ، ينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها ، ويطلب من أخيه إعادتها ، وكونوا أعواناً على

الإنس بكل طريق ، وادخلوا عليهم من كل باب ، واقعدوا لهم كل مرصد،
أما سمعتم قسمى الذى أقسمت به لربهم حيث قلت:

﴿فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين
أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم
شاكرين﴾ (الأعراف: ١٦ و ١٧).

أوما ترونى قد قعدت لابن آدم بطرقه كلها ، فلا يفوتنى من طريق إلا
قعدت له بطريق غيره ، حتى أصيب منه حاجتى أو بعضها ؟ وقد حذرهم
ذلك رسولهم ﷺ وقال لهم : « إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها ،
وقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ فخالفه
وأسلم ، فقعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ؟
فخالفه وهاجر ، وقعد له بطريق الجهاد ، فقال : أتجاهد فتقتل فيقسم المال
وتنكح الزوجة » (١٣٤).

فهكذا فاقعدوا لهم بكل طرق الخير ، فإذا أراد أحدهم أن يتصدق
فاقعدوا له على طريق الصدقة ، وقولوا له فى نفسه : أتخرج المال فتبقى

[١٣٤] إن الشيطان قد قعد لابن آدم..

حسن.

رواه الإمام أحمد (٤٨٣/٣) وابن أبى عاصم فى « الأحاد والمثانى » (١٣٦/٥)
والبخارى فى « التاريخ الكبير » (١٨٧/٢-١٨٨) والنسائى (٢١/٦) ، وابن حبان
(موارد : ١٦٠١) من طرق عن أبى جعفر الثقفى موسى بن المسيب ، عن سالم بن أبى
الجعد ، عن سبرة به.

قال الحافظ فى « الإصابة » (١٤/٢) : « إسناده حسن ».

قلت : وهو كما قال ، فموسى بن المسيب هذا وسط حسن الحديث.

مثل هذا السائل، وتصير بمنزلته أنت وهو سواء؟ أو ما سمعتم ما ألقيت على لسان رجل سألته آخر أن يتصدق عليه ، فقال : هي أموالنا إن أعطيناكموها صرنا مثلكم.

واقعدوا له بطريق الحج ، فقولوا : طريقه مخوفة مشقة ، يتعرض سالكها لتلف النفس والمال ، وهكذا فاقعدوا على سائر طرق الخير بالتنفير عنها وذكر صعوبتها وآفاتهما ، ثم اقعدوا لهم على طرق المعاصي فحسنوها فى أعين بنى آدم ، وزينوها فى قلوبهم ، واجعلوا أكثر أعوانكم على ذلك النساء ، فمن أبوابهن فادخلوا عليهم ، فنعم العون هن لكم .
ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين ، فامنعوها أن تبطش بما يضركم وتمشى فيه .

■ النفس الأمانة .

* واعلموا أن أكبر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمانة ، فأعينوها واستعينوا بها ، وأمدوها واستمدوا منها ، وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة ، فاجتهدوا فى كسرها وإبطال قواها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع موادها عنها ، فإذا انقطعت موادها وقويت مواد النفس الأمانة ، وانطاعت لكم أعوانها فاستنزلوا القلب من حصنه واعزلوه عن مملكته ، وولوا مكانه النفس الأمانة ، فإنها لا تأمر إلا بما تهوونه وتحبونه ، ولا تجيئكم بما تكرهونه ألبتة ، مع أنها لا تخالفكم فى شيء تشيرون به عليها ، بل إذا أشرتم عليها بشيء بادرت إلى فعله ، فإن أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته ، وأردتم الأمن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس عقد النكاح ، فزينوها وجملوها ، وأروها إياه فى أحسن صورة عروس توجد ،

وقولوا له : ذق طعم هذا الوصال ، والتمتع بهذه العروس كما ذقت طعم الحرب وباشرت مرارة الطعن والضرب ، ثم وازن بين لذة هذه المسألة ومرارة تلك المحاربة ، فدع الحرب تضع أوزارها ، فليست بيوم وتنقضى ، وإنما هو حرب متصل بالموت ، وقواك تضعف عن حرب دائم.

واستعينوا يابنى بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما :

أحدهما : جند الغفلة ، فأغفلوا قلوب بنى آدم عن الله تعالى والدار الآخرة بكل طريق ، فليس لكم شيء أبلغ فى تحصيل غرضكم من ذلك ، فإن القلب إذا غفل عن الله تعالى تمكنت منه ومن إغوائه.

والثانى : جند الشهوات فزينوها فى قلوبهم ، وحسنوها فى أعينهم ، ووصلوا عليهم بهذين العسكرين ، فليس لكم من بنى آدم أبلغ منهما ، واستعينوا على الغفلة بالشهوات ، وعلى الشهوات بالغفلة ، واقنونا بين الغافلين ، ثم استعينوا بهما على الذاكر ، ولا يغلب واحد خمسة ، فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة ، وشيطان الذاكر معهم ، وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم - من ذكر الله أو مذاكرة أمره ونهيه ودينه - ولم تقدروا على تفريقهم فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الإنس البطالين ، فقربوهم منهم ، وشوشوا عليهم بهم.

* وبالجملة فأعدوا للأمور أقرانها وادخلوا على كل واحد من بنى آدم من باب إرادته وشهوته ، فساعده عليها وكونوا أعواناً له على تحصيلها ، وإذا كان الله قد أمرهم أن يصبروا لكم ويصابروكم ، ويرابطوا عليكم الثغور ، فاصبروا أنتم وصابروا ورابطوا عليهم بالثغور وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب ، فلا تصطادون بنى آدم فى أعظم من هذين الوطنين.

واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مقهور ، فخذوا عليه طريق الشهوة ودعوا طريق الغضب ، ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب ، فلا تخلوا طريق الشهوة قلبه ، ولا تعطلوا ثغرها ، فإن من لم يملك نفسه عند الغضب فإنه بالحرى أن لا يملك نفسه عند الشهوة ، فزوجوا بين غضبه وشهوته ، وامزجوا أحدهما بالآخر ، وادعوه إلى الشهوة من باب الغضب ، وإلى الغضب من طريق الشهوة.

واعلموا أنه ليس لكم فى بنى آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين ، وإنما أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة ، وإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب ، فبه قطعت أرحامهم ، وسفكت دماءهم ، وبه قتل أحد ابنى آدم أخاه.

واعلموا أن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، والشهوة نار تثور من قلبه ، وإنما تطفأ النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير ، فإياكم أن تمكثوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة ، فإن ذلك يطفئ عنهم نار الغضب والشهوة ، وقد أمرهم نبيهم بذلك ، فقال :

« إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم من احمرار عينيه وانتفاخ أوداجه ، فمن أحس بذلك فليتوضأ » (١٣٥).

[١٣٥] إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم.

ضعيف.

أخرجه أحمد (١٩/٣) ، والترمذى (٢١٩١) ، وابن ماجه (٤٠٠٠) مختصرا من طريق : على بن زيد بن جعدان ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - به ضمن حديث طويل ، وليس فيه : « فمن أحس بذلك فليتوضأ » ، وإنما فيه : « فمن أحس بذلك فالأرض الأرض ».

وقال لهم: «إنما تطفأ النار بالماء» (١٣٦) وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة فحولوا بينهم وبين ذلك ، وأنسوهم إياه ، واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب ، وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاهم : الغفلة واتباع الهوى.

وأعظم أسلحتهم فيكم ، وأمنع حصونهم : ذكر الله ومخالفة الهوى، فإذا رأيتم الرجل مخالفاً لهواه فاهربوا من ظله ولا تدنوا منه. والمقصود: أن الذنوب والمعاصي سلاح ومدد يمد بها العبد أعداءه ويعينهم بها على نفسه فيقاتلونه بسلاحه ، ويكون معهم على نفسه ، وهذا غاية الجهل.

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

= قلت : وهذا سند ضعيف لضعف على بن زيد بن جدعان.

ورواه عبد الرزاق (٢٠٢٨٩) عن معمر ، عن الحسن مرفوعاً بنحوه ، وسنده ضعيف لإرساله ، ولا يستبعد إعضاله.

[١٣٦] إنما تطفأ النار بالماء.

ضعيف.

رواه الإمام أحمد (٢٢٦/٤) ، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٠/٣) ، وأبو داود (٤٧٨٤) ، والطبراني في «الكبير» (١٦٧/١٧) من طريق : عروة بن محمد بن عطية السعدي ، عن أبيه ، عن جده مرفوعاً بلفظ:

«إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، والماء يطفئ النار ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ».

قلت : وهذا سند ضعيف ، عروة بن محمد وأبوه مجهول الحال ، والله أعلم.

ومن العجائب أن العبد يسعى بجهد في هوان نفسه ، وهو يزعم أنه لها مكرم ، ويجتهد في حرمانها أعلى حظوظها وأشرفها وهو يزعم أنه يسعى في حفظها ، ويبدل جهده في تحقيرها وتصغيرها وتدنيسها وهو يزعم أنه يعليها ويرفعها ويكبرها.

وكان بعض السلف يقول في خطبته : ألا رب مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ، ومذل لنفسه وهو يزعم أنه لها معز ، ومصغر لنفسه وهو يزعم أنه لها مكبر ، ومضيع لنفسه وهو يزعم أنه مراعى لحفظها ؟ وكفى بالمرء جهلاً أن يكون مع عدوه على نفسه ، يبلغ منها بفعله ما لم يبلغ منه عدوه ، والله المستعان.



فصل

المعصية تنسى العبد نفسه

* ومن عقوباتها : أنها تنسى العبد نفسه ، وإذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها.

فإن قيل : كيف ينسى العبد نفسه ؟ وإذا نسي نفسه فأى شيء يذكر ؟ وما معنى نسيانه نفسه ؟

قيل : نعم ينسى نفسه أعظم نسيان ، قال تعالى :

﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم

(الحشر: ١٩).

الفاسقون ﴾

فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم ، كما قال الله

(التوبة: ٦٧).

تعالى : ﴿ نسوا الله فأنسيهم ﴾

فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين:

إحداهما : أنه سبحانه نسيه .

والثانية : أنه أنساه نفسه.

ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته فالحهلاك أدنى إليه من اليد للقم ، وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية ، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به ينسيه ذلك جميعه فلا يخطره بباله ، ولا يجعله على ذكره ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه ، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره.

وأيضاً فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتهما ، فلا يخطر بباله إزالتها .
وأيضاً ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها ، فلا يخطر بقلبه مداواتها ، ولا السعى في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك ، فهو مريض مثخن بالمرض ، ومرضه مترام به إلى التلف ، ولا يشعر بمرضه ، ولا يخطر بباله مداواته ، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة.

فأى عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ، ونسى مصالحها وداءها ودواءها ، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم؟

ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا حقيقة أنفسهم وضيعوها وأضاعوا حظها من الله ، وباعوها رخيصة بثمان بخس بيع الغبن ، وإنما يظهر لهم هذا عند الموت ، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن ، يوم يظهر للعبد أنه غبن في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار ، والتجارة التي اتجر فيها لمعاده.

فإن كل أحد يتجر في هذه الدنيا لآخرته.

فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الريح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة، وحظهم فيها ، فأذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا ، واستمتعوا بها ، ورضوا بها ، واطمأنوا إليها ، وكان سعيهم لتحصيلها ، فباعوا واشتروا واتجروا ، وباعوا آجلاً بعاجل ، ونسيئة بنقد ، وغائباً بناجز ، وقالوا : هذا هو الخزم ، ويقول أحدهم :
خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به.

فكيف أبيع حاضراً نقداً مشاهداً في هذه الدار بغائب نسيئة في دار أخرى غير هذه ؟ وينضم إلى ذلك ضعف الإيمان ، وقوة داعي الشهوة ومحبة العاجلة والتشبه ببنى الجنس ، فأكثر الخلق في هذه التجارة الخاسرة التي قال الله سبحانه في أهلها :

﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعصرون﴾ (البقرة: ٨٦).

وقال فيهم :

﴿فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ (البقرة: ١٦).

فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة ، فتقطع عليها النفوس حسرات.

وأما الرابحون فإنهم باعوا فانياً بباق ، وخسيساً بنفيس ، وحقيراً بعظيم ، وقالوا : ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها ، حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها ؟ فكيف ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم ، لا نسبة له إلى دار القرار ألبتة.

قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ
بَيْنَهُمْ﴾ (يونس: ٤٥).

وقال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاها . فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا إِلَى
رَبِّكَ مُنْتَهَاها ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا . كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا
عَشِيَةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (النازعات : ٤٢/٤٦).

وقال تعالى : ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ
نَّهَارٍ بَلَاغٌ﴾ (الأحقاف : ٣٥).

وقال تعالى :

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ
يَوْمٍ ، فَسْئَلُ الْعَادِينَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
(المؤمنون : ١١٢/١١٤).

وقال تعالى :

﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ
إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ
إِلَّا يَوْمًا﴾ (طه: ١٠٢/١٠٤).

فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة ، فلما علموا قلة لبثهم
فيها ، وأن لهم داراً غير هذه الدار ، هي دار الحيوان ودار البقاء - رأوا من
أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء ، فاتجروا تجارة الأكياس ، ولم يغتروا

بتجارة السفهاء من الناس ، فظهر لهم يوم التغابن ربح تجارتهم ومقدار ما اشتروه ، وكل أحد فى هذه الدار الدنيا بائع ، غير مشتر متجر ، وكل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها.

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ (التوبة: ١١١).

فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة ، فتاجروا أياها المفلسون ، ويامن لا يقدر على هذا الثمن ، ها هنا ثمن آخر ، فإن كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن.

﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾ (التوبة: ١١٢).

﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ (الصف: ١٠-١١).

والمقصود : أن الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة الرابعة ، وتشغله بالتجارة الخاسرة ، وكفى بذلك عقوبة ، والله المستعان.



فصل

المعاصي تزيل النعم

ومن عقوباتها: أنها تزيل النعم الحاضرة ، وتقطع النعم الواصلة ، فتزيل الحاصل ، وتمنع الواصل ، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته ، ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته ، فإن ما عنده لا ينال إلا بطاعته ، وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سبباً وآفة ، سبباً يجلبه ، وآفة تبطله ، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته ، وآفات المانعة منها معصيته ، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها ، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها.

ومن العجيب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره ، وسماعاً لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه ، وهو مقيم على معصية الله ، كأنه مستثنى من هذه الجملة أو مخصوص من هذا العموم ، وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه ، وواصل إلى الخلق لا إليه.

فأى جهل أبلغ من هذا ؟ وأى ظلم للنفس فوق هذا ؟ فالحكم لله العلي الكبير.



فصل

المعصية تباعد بين العبد والملك

* ومن عقوباتها : أنها تباعد عن العبد وليه ، وأنفع الخلق له ، وأنصحهم له ، ومن سعادته في قربه منه ، وهو الملك الموكل به ، وتدنى منه عدوه ، وأغش الخلق له وأعظمهم ضرراً له ، وهو الشيطان ، فإن العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية ، حتى إنه يتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة.

وفي بعض الآثار: « إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلاً من نتن ريحه » (١٣٧) فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة ، فماذا يكون مقدار بعده منه مما هو أكبر من ذلك ، وأفحش منه؟

[١٣٧] إذا كذب العبد...

منكر جداً.

رواه الترمذى (١٩٧٢) ، وابن عدى فى « الكامل » (١٩٢١/٥) ، وأبو نعيم فى « الحلية » (١٩٧/٨) من طريق : عبد الرحيم بن هارون ، عن عبد العزيز بن أبى رواد ، عن نافع ، عن ابن عمر به ، إلا أنه قال : « من نتن ما جاء به » ..

قال الترمذى : « حسن غريب » ، ووقعت فى « المطبوعة » : (حسن جيد غريب) . وقال أبو نعيم : « غريب من حديث عبد العزيز ، عن نافع ، تفرد به عبد الرحيم » . يشيران بذلك إلى نكارتة .

وكيف لا ، وقد تفرد به عبد الرحيم هذا ، وهو تالف الحال ، قال أبو حاتم : « مجهول ، لا أعرفه » ، وقال الدارقطنى : « متروك الحديث يكذب » . ولكن للحديث طريق آخر عند ابن عدى (٢٥/١) :

من رواية سليمان بن الربيع بن هشام النهدى ، حدثنا الفضل بن عوف - عم الأحنف - حدثنا عبد العزيز به .

قلت : وهذا سند تالف ، ولا أراه محفوظاً ، فإن النهدى هذا ترجمه الذهبى فى « الميزان » (٢٠٧/٢) ، وقال : تركه أبو الحسن الدارقطنى ، وقال : غير أسماء مشايخ .

وشيوخه لم أقف له على ترجمة ، فلعله مما غير اسمه ، والحديث معروف من رواية عبد الرحيم بن هارون والله أعلم .

وقال بعض السلف : إذا ركب الذكر الذكر عجت الأرض إلى الله
وهربت الملائكة إلى ربها ، وشكت إليه عظيم ما رأت .

وقال بعض السلف : إذا أصبح العبد ابتدره الملك والشیطان ، فإذا
ذكر الله وكبره وحمده وهله طرد الملك الشیطان وتولاه ، وإن افتتح بغير
ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشیطان .

ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم ، والطاعة والغلبة
له ، فتتولاه الملائكة فى حیاته وعند موته وعند بعثه كما قال الله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا
تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نحن أولياؤكم فى
الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾ (فصلت: ٣٠ و ٣١) .

وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق وأنفعهم وأبرهم ، فثبته وعلمه ،
وقوى جنانه ، وأيده ، قال الله تعالى :

﴿إِذْ يُوْحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

(الأنفال: ١٢) .

فيقول له الملك عند الموت : « لا تخف ولا تحزن وأبشُر بالذى
يسرك » (١٣٨) وتثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه فى الحياة الدنيا ،
وعند الموت ، وفى القبر عند المسألة .

[١٣٨] لا تخف ولا تحزن ..

ظاهر إسناد الحسن .

وهو جزء من حديث البراء بن عازب الطويل فى حال الميت وما يكون بعد الموت .

وقد أخرجه الإمام أحمد (٢٨٧/٤) ، وابنه عبد الله فى « السنة » (١٤٣٨) ، وأبو داود

(٤٧٥٣) ، وغيرهم بسند ظاهره الحسن ولكن ليس فيه : « لا تخف ولا تحزن » .

فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له ، وهو وليه فى يقظته
ومنامه ، وحياته وعند موته وفى قبره ، ومؤنسه فى وحشته ، وصاحبه فى
خلوته ، ومحدثه فى سره ، يحارب عنه عدوه ، ويدافع عنه ويعينه عليه
ويعده بالخير ويشره به ، ويحثه على التصديق بالحق ، كما جاء فى الأثر
الذى يروى مرفوعاً وموقوفاً : « إن للملك بقلب ابن آدم لمة وللشيطان لمة
فلمة الملك إيعاد بالبر وتصديق بالوعد ، ولمة الشيطان إيعاد بالشر
وتكذيب بالحق » (١٣٩).

[١٣٩] إن للملك بقلب ابن آدم لمة..

شاذ مرفوعاً ، صحيح موقوفاً.

قد تفرد بروايته مرفوعاً أبو الأحوص سلام بن سليم ، عن عطاء بن السائب ، عن مرة
الهمذاني ، عن ابن مسعود به .

أخرجه الترمذى (٢٩٨٨) ، وابن حبان (موارد : ٤٠) ، والطبرى فى « تفسيره »
(٥٩/٣) من طريق : هناد بن السرى ، عن أبى الأحوص به .

قال الترمذى : « حسن غريب ، لا نعلمه مرفوعاً إلا من حديث أبى الأحوص ».

يشير بذلك إلى نكارتة ، والآفة فى ذلك من عطاء بن السائب ، فإنه كان قد اختلط .

وقد رواه الطبرى فى « التفسير » وغيره من طريق جماعة - وهم ابن عليه وعمرو
وحماة بن سلمة وجريز عند الطبرى ، ومسعر : ذكره ابن كثير فى « تفسيره » (٢٢١/١)
عن عطاء ، عن أبى الأحوص ، كما فى رواية مسعر ، وفى رواية ابن عليه زاد : أو عن
مرة ، وفى رواية عمرو وحماة وجريز قال : عن مرة ، عن ابن مسعود موقوفاً به .

والأصح الوقف .

فعند الطبرى هذا الخبر من طريق : معمر ، عن الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله بن
عتبة ، عن ابن مسعود به موقوفاً .

وهذا الخبر وإن كان مرسلأ إلا أنه يقوى الحكم بالوقف ، وخصوصاً أن حماد بن
سلمة سمع من عطاء قبل الاختلاط وبعده كما بينته فى كتابى « ضعيف الإسراء والمعراج »
(ص: ٢٨-٢٩) .

وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه ، وألقى على لسانه القول السديد ، وإذا بعد منه وقرب منه الشيطان تكلم على لسانه ، وألقى عليه قول الزور والفحش ، حتى يرى الرجل يتكلم على لسانه الملك ، والرجل يتكلم على لسانه الشيطان.

وفى الحديث : « إن السكينة تنطق على لسان عمر » (١٤٠) رضى الله عنه ، وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول : ما ألقاه على لسانك إلا الملك ، ويسمع ضدها فيقول : ما ألقاه على لسانك إلا الشيطان ، فالملك يلقي بالقلب الحق ، ويلقيه على اللسان والشيطان يلقي الباطل فى القلب ، ويجريه على اللسان.

فمن عقوبة المعاصي : أنها تبعد من العبد وليه الذى سعادته فى قربه ومجاورته وموالاته ، وتدنى منه عدوه الذى شقاؤه وهلاكه وفساده فى قربه وموالاته ، حتى إن الملك لينافح عن العبد ، ويرد عنه إذا سفه عليه السفیه وسبه ، كما اختصم بين يدي النبى ﷺ رجلا ، فجعل أحدهما يسب الآخر ، وهو ساكت ، فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه ، فقام النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله لما رددت عليه بعض قوله قمت ، فقال : « كان الملك ينافح عنك ، فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لأجلس » (١٤١).

[١٤٠] إن السكينة تنطق على لسان عمر

حسن موقفاً

رواه الإمام أحمد (١٠٦/١) بسند حسن من قول على رضى الله عنه.

[١٤١] كان الملك ينافح عنك ..

منكر.

لم أقف عليه بهذا اللفظ.

وإذا دعا العبد المسلم لأخيه بظهر الغيب أمن الملك على دعائه ،
وقال: « لك بمثله ».

وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمنت الملائكة على دعائه.

وإذا أذنب العبد المؤمن الموحد المتبع لسبيله وسنة رسوله ﷺ ، استغفر
له حملة العرش ومن حوله.

وإذا نام على وضوء بات في شعاره ملك.

فملك المؤمن يرد عنه ويحارب ويدافع عنه ويعلمه ويثبته ويشجعه ،

= وإنما رواه أبو داود (٤٨٩٦) من طريق : الليث بن سعد ، عن سعيد المقبري ، عن
بشير بن الحرر ، عن سعيد بن المسيب ، أنه قال : .. فذكره ، ولفظ هذا الحرف عنده :
« نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك ، فلما انتصرت وقع الشيطان ، فلم أكن
لأجلس إذا وقع الشيطان ».

قلت : وهذا سند ضعيف ، بل منكر فإن فيه بشير بن الحرر ، وهو مجهول ، قال
الذهبي : « لا يعرف » ، وقد تفرد به على الصحيح .
وقد اختلف في إسناد هذا الحديث .

فرواه أحمد (٤٣٦/٢) وأبو داود (٤٨٩٧) من طريق : محمد بن عجلان ، قال :
حدثنا سعيد بن أبي سعيد ، عن أبي هريرة به ، وفيه زيادة في آخره .
قلت : وهذا سند شاذ ، محمد بن عجلان فيه ضعف في روايته عن سعيد ، وقد خالفه
الليث بن سعد ، وروايته هي الأصح لا شك .

والعجب من العلامة الألباني - حفظه الله - كيف جعل المخالفة في هذا الحديث بين
بشير بن الحرر وبين محمد بن عجلان كما في « الصحيحة » (٢٣٧٦) ، مع أن الاختلاف
وقع فيه على سعيد بن أبي سعيد .

فلا يليق به أن يسيء ، جواره ، ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده ، فإنه ضيفه وجاره.

وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لوازم الإيمان وموجباته ، فما الظن بإكرام أكرم الأضياف ، وخير الجيران وأبرهم؟ وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصي ، والظلم والفواحش دعا عليه ربه ، وقال : « لا جزاك الله خيراً » كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان.

قال بعض الصحابة رضى الله عنهم : إن معكم من لا يفارقكم ، فاستحيوا منهم وأكرمواهم .

ولا ألام ممن لا يستحي من الكريم العظيم القدر ولا يجعله لا يوقره ، وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله:

﴿وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون﴾
(الانفطار: ١٠-١٢).

أى استحيوا من هؤلاء الحفاظ الكرام وأكرمواهم ، وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم ، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصى بين يديه ، وإن كان قد يعمل مثل عمله ، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين !!؟
والله المستعان.



فصل

المعاصي مجلبة الهلاك

* ومن عقوباتها : أنها تستجلب مواد هلاك العبد من دنياه وآخرته
فإن الذنوب هي أمراض متى استحكمت قتلت ولا بد ، وكما أن البدن لا
يكون صحيحاً إلا بغذاء يحفظ قوته ، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة ،
والأخلاق الردية التي متى غلبت عليه أفسدته ، وحمية يتمتع بها بما يؤذيه
ويخشى ضرره ، فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال
الصالحة تحفظ قوته ، واستفراغ بالتوبة النصوح تستفرغ بها المواد الفاسدة ،
والأخلاق الردية منه ، وحمية توجب له حفظ الصحة وتجنب ما يضادها ،
وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة.

والتقوى : اسم متناول لهذه الأمور الثلاثة ، فما فات منها ، فات من
التقوى بقدره.

وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة ، فإنها تستجلب
المواد المؤذية ، وتوجب التخليط المضاد للحمية ، وتمنع الاستفراغ بالتوبة
النصوح.

فانظر إلى بدن عليل قد تراكت عليه الأخلاط ومواد المرض ، وهو
لا يستفرغها ، ولا يحتمى لها ، كيف تكون صحته وبقاؤه ؟
ولقد أحسن القائل :

جسمك بالحمية حصنته مخافة من ألم طارى
وكان أولى بك أن تحتمى من المعاصي خشية الباري
فمن حفظ القوة بامثال الأوامر ، واستعمل الحمية باجتنب النواهي ،

واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح ، لم يدع للخير مطلباً ، ولا من الشر مهرباً ، والله المستعان.



فصل

العقوبات الشرعية على المعاصي

فإن لم تردعك هذه العقوبات ، ولم تجد لها تأثيراً فى قلبك ، فأحضره العقوبات الشرعية التى شرعها الله ورسوله على الجرائم ، كما قطع اليد فى سرقة ثلاثة دراهم ، وقطع اليد والرجل فى قطع الطريق على معصوم المال والنفس ، وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن ، أو قطرة خمر يدخلها جوفه ، وقتل بالحجارة أشنع قتلة فى إيلاج الحشفة فى فرج حرام وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة الإحصان بمائة جلدة ، وينفى سنة عن وطنه وبلده إلى بلد الغربة ، وفرق بين رأس العبد وبدنه ، إذا وقع على ذات رحم محرم منه ، أو ترك الصلاة المفروضة ، أو تكلم بكلمة كفر ، وأمر بقتل من وطء ذكراً مثله ، وقتل المفعول به ، وأمر بقتل من أتى بهيمة ، وقتل البهيمة معه ، وعزم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة فى الجماعة وغير ذلك من العقوبات التى رتبها على الجرائم وجعلها بحكمته على حسب الدواعى إلى تلك الجرائم ، وحسب الوازع عنه.

فما كان الوازع عنه طبيعياً وليس فى الطباع داع إليه اكتفى فيه بالتحريم مع التعزير ، ولم يرتب عليه حداً ، كأكل الرجيع ، وشرب الدم ، وأكل الميتة.

وما كان فى الطباع داع إليه رتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته ،
وبقدر داعى الطبع إليه.

ولهذا لما كان داعى الطباع إلى الزنا من أقوى الدواعى كانت عقوبته
العظمى من أشنع القتلات وأعظمها ، وعقوبته السهلة أعلى أنواع الجلد مع
زيادة التغريب.

ولما كانت جريمة اللواط فيها الأمران كان حده القتل بكل حال ، ولما
كان داعى السرقة قوياً ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد.

وتأمل حكمته فى إفساد العضو الذى باشر العبد به الجناية ، كما
أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه ، ولم يفسد على
القاذف لسانه الذى جنى به إذ مفسدته تزيد على مفسدة الجناية ولا يبلغها،
فاكتفى من ذلك بإيلام جميع بدنه بالجلد.

فإن قيل : فهلا أفسد على الزانى فرجه الذى باشر به المعصية؟
قيل : لوجوه.

أحدها: أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية ، إذ فيه قطع النسل
وتعريضه للهلاك.

الثانى : أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من
الردع والزجر لأمثاله من الجناة ، بخلاف قطع اليد.

الثالث : أنه إذا قطع يده أبقى له يداً أخرى تعوض عنها بخلاف
الفرج.

الرابع : أن لذة الزنى عمت جميع البدن ، فكان الأحسن أن تعم
العقوبة جميع البدن ، وذلك أولى بتخصيصها ببضعة منه.

فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقول وأقومها بالمصلحة.

والمقصود : أن الذنوب إنما تترتب عليها العقوبات الشرعية أو القدرية أو يجمعهما الله للعبد ، وقد يرفعهما عن تاب وأحسن.



فصل

عقوبات الذنوب شرعية وقدرية

وعقوبات الذنوب نوعان : شرعية وقدرية ، فإذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبة القدرية أو خففتها ، ولا يكاد الرب تعالى يجمع على العبد من العقوبتين إلا إذا لم يف أحدهما برفع موجب الذنب ، ولم يكف في زوال دائه ، وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية ، وربما كانت أشد من الشرعية ، وربما كانت دونها ، ولكنها تعم ، والشرعية تخص ، فإن الرب تبارك وتعالى لا يعاقب شرعاً إلا من باشر الجناية أو تسبب إليها.

وأما العقوبة القدرية فإنها تقع عامة وخاصة ، فإن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة ، وإذا رأى الناس المنكر فاشتركوا في إنكاره أو شك أن يعمهم الله بعقابه.

وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب وتقاضى الطبع لها ، وجعلها الله سبحانه ثلاثة أنواع : القتل والقطع والجلد ، وجعل القطع بإزاء الكفر وما يليه ويقرب منه ، وهو الزنى واللوأط ، فإن هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد الأنساب ، ونوع الإنسان.

قال الإمام أحمد : لا أعلم بعد القتل ذنباً أعظم من الزنى ، واحتج

بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال :

يا رسول الله : أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» ، قال : قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » ، قال : قلت : ثم أى؟ قال : « أن تزاني بحليلة جارك» (١٤٢) ، فأنزل الله تصديقها .

﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾ (الفرقان: ٦٨).

والنبي ﷺ ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل : فإنه سأله عن أعظم الذنب ، فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها ، وما هو أعظم كل نوع .

فأعظم أنواع الشرك : أن يجعل العبد لله نداً.

وأعظم أنواع القتل : أن يقتل ولده خشية أن يشاركه فى طعامه وشرابه.

وأعظم أنواع الزنى : أن يزنى بحليلة جاره ، فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق.

[١٤٢] أن تجعل لله نداً وهو خلقك..

صحيح.

رواه البخارى (١٨٥/٤) ، وفى غير موضع ، ومسلم (٩١/١-٩٢) ، وأبو داود (٢٣١٠) ، والترمذى (٣١٨٢) ، والنسائى (٨٩/٧) من طريق : عمرو بن شرحبيل ، عن ابن مسعود به.

فالزنى بالمرأة التى لها زوج أعظم إثماً من التى لا زوج لها ، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فرائشه، وتعليق نسب عليه لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه ، فهو أعظم إثماً وجرمًا من الزنى بغير ذات البعل.

فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار ، فإن كان زوجها جاراً له انضاف إلى ذلك سوء الجوار وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى وذلك من أعظم البوائق.

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه »^(١٤٣) ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأة الجار.

فإن كان الجار أخاً أو قريباً من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم له ، فإن كان الجار غائباً فى طاعة الله كالصلاة والعلم والجهاد تضاعف له الإثم ، حتى إن الزانى بامرأة الغازى فى سبيل الله يوقف له يوم القيامة ، ويقال : خذ من حسناته ماشئت.

قال النبى ﷺ « فما ظنكم »^(١٤٤) أى ما ظنكم أنه يترك له من الحسنات ،

[١٤٣] لا يدخل الجنة من لا يأمن ...

صحيح.

رواه مسلم (٦٨/١) من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه -.

ورواه البخارى (٥٣/٤) من حديث أبى شريح - رضى الله عنه -.

[١٤٤] فما ظنكم؟

صحيح.

رواه مسلم (نوى : ٤٢-٤١/١٣) ، وأبو داود (٢٤٩٦) ، والنسائى (٥٠/٦-٥١)

من طريق : سليمان بن بريدة ، عن أبيه ، مرفوعاً:

« حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم ، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين فى أهله فيخونه فيهم ، إلا وقف له يوم القيامة ، فيأخذ من عمله ما شاء ، فما ظنكم. »

قد حكم فى أن يأخذ منها ما شاء ؟ على شدة الحاجة إلى حسنة واحدة، حيث لا يترك الأب لابنه ، ولا الصديق لصديقه حقاً يجب عليه ، فإن اتفق أن تكون المرأة رحماً منه انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها ، فإن اتفق أن يكون الزانى محصناً كان الإثم أعظم ، فإن كان شيخاً كان أعظم إثماً وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيكهم ولهم عذاب أليم ، فإن اقترن بذلك أن يكون فى شهر حرام أو بلد حرام ، أو وقت معظم عند الله ، كأوقات الصلاة ، وأوقات الإجابة ، تضاعف الإثم ، وعلى هذا فاعتبر مفسد الذنوب وتضاعف درجاتها فى الإثم والعقوبة، والله المستعان.



فصل

القطع لإفساد الأموال

وجعل سبحانه القطع بإزاء إفساد الأموال الذى لا يمكن الاحتراز منه، لأنه يأخذ الأموال فى الاختفاء ، وينقب الدور ، ويتسور من غير الأبواب ، فهو كالسنور والحية التى تدخل عليك من حيث لا تعلم ، فلم ترتفع مفسدة سرقة إلى القتل ، ولا تندفع بالجلد ، فأحسن ما دفعت به مفسدته إبانة العضو الذى يتسلط به على الجناية ، وجعل الجلد بإزاء إفساد العقول وتمزيق الأعراض بالقذف.

فدارت عقوباته سبحانه الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة ، كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع : العتق ، وهو أعلاها ، والإطعام ، والصيام.

❑ أقسام الذنوب.

* ثم إنه سبحانه جعل الذنوب ثلاثة أقسام:

قسماً فيه الحد ، فهذا لم يشرع فيه كفارة اكتفاء بالحد.

وقسماً لم يرتب عليه حداً ، فشرع فيه الكفارة ، كالوطء فى نهار رمضان ، والوطء فى الإحرام والظهار ، وقتل الخطأ ، والحنث فى اليمين وغير ذلك.

وقسماً لم يرتب عليه حداً ولا كفارة ، وهو نوعان:

أحدهما : ما كان الوازع عنه طبيعياً ، كأكل العذرة ، وشرب البول والدم.

والثانى : ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد ، كالنظر والقبلة واللمس والمحاذة ، وسرقة فلس ونحو ذلك.

❑ الكفارات فى ثلاثة أنواع

وشرع الكفارات فى ثلاثة أنواع :

أحدها : ما كان مباح الأصل ، ثم عرض تحريمه فباشره فى الحالة التى عرض فيها التحريم ، كالوطء فى الإحرام والصيام ، وطرده : الوطء فى الحيض والنفاس ، بخلاف الوطء فى الدبر ، ولهذا كان إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء فى الحيض لا يصح ، فإنه لا يباح فى وقت دون وقت ، فهو بمنزلة التلوط ، وشرب المسكر.

النوع الثانى : ما عقد لله من نذر أو بالله من يمين أو حرمه الله ، ثم أراد حله ، فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماها تحلة ، وليست هذه

الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث ، كما ظنه بعض الفقهاء ، فإن الحنث قد يكون واجباً ، وقد يكون مستحباً ، وقد يكون مباحاً ، وإنما الكفارة حل لما عقده.

النوع الثالث: ما تكون فيه جابرة لما فات ، ككفارة قتل الخطأ ، إن لم يكن هناك إثم ، وكفارة قتل الصيد خطأ ، فإن ذلك من باب الجواهر ، والنوع الأول من باب الزواجر ، والنوع الوسط من باب التحلة لما منعه العقد.

❑ لا يجتمع الحد والتعزير .

لا يجتمع الحد والتعزير في معصية ، بل إن كان فيها حد اكتفى به وإلا اكتفى بالتعزير ، ولا يجتمع الحد والكفارة في معصية ، بل كل معصية فيها حد فلا كفارة فيها ، وما فيه كفارة فلا حد فيه ، وهل يجتمع التعزير والكفارة في المعصية التي لا حد فيها ؟ فيه وجهان : وهذا كالوطء في الإحرام والصيام ، ووطء الحائض ، إذا أوجبنا فيه الكفارة ، فقليل : يجب التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجنابة ، وقيل : لا تعزير في ذلك اكتفاء بالكفارة : لأنها جابرة وماحية.



فصل

العقوبات القدرية

أما العقوبات القدرية فهي نوعان :

نوع على القلوب والنفوس ، ونوع على الأبدان والأموال.

■ العقوبات القدرية على القلوب.

والتي على القلوب نوعان:

أحدهما : آلام وجودية يضرب بها القلب.

والثاني : قطع المواد التي بها حياته وصلاحه عنه.

وإذا قطعت عنه حصل له أضدادها ، وعقوبة القلوب أشد العقوبتين وهي أصل عقوبة الأبدان.

وهذه العقوبة تقوى وتزايد ، حتى تسرى من القلب إلى البدن ، كما يسرى ألم البدن إلى القلب ، فإذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقاً بها، فظهرت عقوبة القلب حينئذ ، وصارت علانية ظاهرة ، وهي المسماة بعذاب القبر ، ونسبته إلى البرزخ كنسبة عذاب الأبدان إلى هذه الدار.



فصل

العقوبات القدرية على الأبدان

والتي على الأبدان أيضاً نوعان: نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة.

وشدتها ودوامها بحسب مفاصد ما ربت عليه في الشدة والخفة، فليس في الدنيا والآخرة شر أصلاً إلا الذنوب وعقوباتها ، فالشر اسم لذلك كله ، وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال، وهما الأصلان اللذان كان النبي ﷺ يستعيز منهما في خطبته بقوله : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » (١٤٥).

[١٤٥] ونعوذ بالله من شرور أنفسنا..

صحيح.

وهو جزء من خطبة الحاجة.

=

وسیئات الأعمال : من شرور النفس ، فعاد الشر كله إلى شر النفس ، فإن سیئات الأعمال من فروعہ وثمراته .

وقد اختلف فی معنی قوله : « ومن سیئات أعمالنا » هل معناه السیئ من أعمالنا فیکون من باب إضافة الفرع إلى جنسه ؟ أو تكون « من » بیانية ، وقیل : معناه من عقوباتها التي تسوء ، فیکون التقدير : ومن عقوبات أعمالنا التي تسوؤنا ، ويرجح هذا القول : أن الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر ، فإن شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة ، وهي تستلزم العقوبات السيئة ، فبیه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال ، واكتفى بذكرها منه ، إذ هو أصله ، ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه ، فهو السیئات التي تسوء العبد عن عمله ، من العقوبات والآلام ، فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفرعه وغايته ومقتضاه .

ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم .

﴿وقهم السیئات ومن تق السیئات يومئذ فقد رحمته﴾ (غافر : ٩) .

فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سیئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها ، فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السیئ وقاهم جزاء السیئ ، وإن كان قوله :

﴿ومن تق السیئات يومئذ فقد رحمته﴾ أظهر فی عقوبات الأعمال المطلوب وقايتها يومئذ .

فإن قيل : فقد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم ، وهذا هو وقاية العقوبات السيئة ، فدل على أن المراد بالسيئة التي سألوا وقايتها :

= وقد أخرج حديثها أبو داود (٢١١٨) ، والترمذی (١١٠٥) ، والنسائي (٨٩/٦) ، وفي « اليوم والليلة » (٤٩٢ و ٤٩٣) ، وابن ماجه (١٨٩٢) من طرق : عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص ، عن ابن مسعود به .

وسنده صحيح .

وروى عن غير واحد من الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين .

الأعمال السيئة ، ويكون الذى سألہ الملائكة نظير ما استعاذ منه النبى ﷺ .

ولا يرد على هذا قوله : ﴿يَوْمئذٍ﴾ فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم ، وهى سيئات فى أنفسها .

قيل : وقاية السيئات نوعان :

أحدهما : وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه .

والثانى : وقاية جزائها بالمغفرة ، فلا يعاقب عليها ، فتضمنت الآية سؤال الأمرين ، والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية .

وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان ، والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم ، وقدموا بين يدى استغفارهم توسلهم إلى الله تعالى بسعة علمه ، وسعة رحمته ، فسعة علمه تتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة ، واستيلاء عدوهم وأنفسهم ، وهواهم وطباعهم ، وما زين لهم من الدنيا وزينتها ، وعلمه بهم إذ أنشأهم من الأرض ، وإذ هم أجنة فى بطون أمهاتهم ، وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه ، وأنه يحب العفو والمغفرة ، وغير ذلك من سعة علمه الذى لا يحيط به أحد سواه ، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به أهل توحيدهم ، ومحبتهم ، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء ، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التى وسعت كل شيء ، ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله ، وهو صراطه الموصل إليه الذى هو معرفته ومحبتهم ، وطاعته ، فتابوا مما يكره ، واتبعوا السبيل التى يحبها ، ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم ، وأن يدخلهم المؤمنين من أصولهم ، وفروعهم ، وأزواجهم - جنات عدن التى وعدهم بها ، وهو

سبحانه ، وإن كان لا يخلف الميعاد ، فإنه وعدهم بها بأسباب ، ومن جملتها : دعاء ملائكته لهم أن يدخلهم إياها برحمته التي منها وفقهم لأعمالهم ، وأقام ملائكته يدعون لهم بها .

ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة :

(البقرة : ١٢٩) .

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

أى مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك ، فإن العزة كمال القدرة ، والحكمة كمال العلم ، وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى ما شاء ، ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب ، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر .

* والمقصود : أن عقوبات السيئات تنوع إلى عقوبات شرعية وعقوبات قدرية ، وهى إما فى القلب ، وإما فى البدن ، وإما فيهما ، وعقوبات فى دار البرزخ بعد الموت ، وعقوبات يوم حشر الأجساد ، فالذنب لا يخلو من عقوبة ألبتة ، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما فيه من العقوبة ، لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذى لا يشعر بالألم : فإذا استيقظ وصحا أحس بالألم ، فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الإحراق على النار ، والكسر على الانكسار ، والفرق على الماء ، وفساد البدن على السموم والأمراض على الأسباب الجالبة لها ، وقد تقارن المضرة الذنب وقد تتأخر عنه ، إما يسيراً وإما مدة ، كما يتأخر المرض عن سببه أو يقارنه ، وكثيراً ما يقع الغلط للعبد فى هذا المقام ، ويذنب فلا يرى أثره عقبه ، ولا يدرى أنه يعمل عمله على التدريج شيئاً فشيئاً ، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القذة بالقذة ، فإن تدارك العبد بالأدوية والاستفراغ

والحمية ، وإلا فهو صائر إلى الهلاك ، هذا إذا كان ذنباً واحداً لم يتداركه
بما يزيل أثره ، فكيف بالذنب على الذنب على كل يوم وكل ساعة ؟!
والله المستعان.



فصل

بعض عقوبات المعاصي

فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله سبحانه وتعالى على
الذنوب ، وجوز وصول بعضها إليك ، واجعل ذلك داعياً للنفس إلى
هجرانها ، وأنا أسوق لك منها طرفاً يكفى العاقل مع التصديق ببعضه.
■ الختم على القلب.

فمنها : الختم على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الأبصار ،
والإقفال على القلوب ، وجعل الأكنة عليها ، والرین عليها والطبع ، وتقليب
الأفئدة ، والأبصار ، والحيلولة بين المرء وقلبه ، وإغفال القلب عن ذكر
الرب ، وإنساء الإنسان نفسه ، وترك إرادة الله تطهير القلب ، وجعل
الصدر ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ، وصرف القلوب عن الحق ،
وزيادتها مرضاً على مرضها ، وإركاسها وإنكاسها ، بحيث تبقى منكوسة
كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أنه قال :

«القلوب أربعة : فقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن ،
وقلب أغلف فذلك قلب الكافر وقلب منكوس : فذلك قلب المنافق ، وقلب

تمده مادتان: مادة إيمان ، ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منهما» (١٤٦).

ومنها : التشبیط عن الطاعة ، والإقعاد عنها.

ومنها : جعل القلب أصم لا يسمع ، أبكم لا ينطق به ، أعمى لا يراه ، فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذى لا ينفعه غيره ، كالنسبة بين أذن الأصم ، والأصوات وعين الأعمى والألوان ، ولسان الأخرس والكلام ، وبهذا يعلم أن العمى والصمم والبكم للقلب بالذات والحقيقة ، وللجوارح بالعرض والتبعية.

﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾

(الحج: ٤٦).

[١٤٦] القلوب أربعة..

مرسل من حديث حذيفة ، ومنكر مرفوعاً من حديث أبى سعيد - رضى الله عنهما -.

فأما حديث أبى سعيد - رضى الله عنه - المرفوع.

فأخرجه الإمام أحمد (١٧/٣) ، والطبرانى فى «الصغير» (الروض الدانى ١٠٧٥) ، وأبو نعيم فى «الحلية» (٣٨٥/٤) من طريق : ليث بن أبى سليم ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى البختري ، عن أبى سعيد به.

قلت : ليث بن أبى سليم ضعيف الحديث ، وقد خولف فى رواية هذا الحديث.

فأخرجه ابن أبى شيبه فى «الإيمان» (٥٤) ، وعبد الله بن الإمام أحمد فى «السنة» (٨٢٠) من طريق : الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى البختري ، عن حذيفة بن اليمان موقوفاً به.

قلت : وهذا سند رجاله ثقات ، إلا أنه منقطع بين أبى البختري سعيد بن فيروز ، وبين حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه -.

وليس المراد نفى العمى الحسى عن البصر، كيف ، وقد قال الله تعالى:
﴿ليس على الأعمى حرج﴾ (النور: ٦١).

وقال: ﴿عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى﴾ (عبس: ٢٠، ١).

وإنما المراد أن العمى التام فى الحقيقة عمى القلب، حتى إن عمى
البصر بالنسبة إليه كالأعمى، حتى إنه يصح نفيه بالنسبة إلى كماله،
وقوته، كما قال النبى ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، ولكنه الذى يملك
نفسه عند الغضب» (١٤٧) وقوله ﷺ: «ليس المسكين بالطواف الذى ترده
اللقمة واللقتان، ولكن المسكين الذى لا يسأل الناس ، ولا يفطن له
فيتصدق عليه» (١٤٨)، ونظائره كثيرة.

والمقصود : أن من عقوبات المعاصى جعل القلب أعمى أصم أبكم.

■ خسف القلب.

ومنها الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه ، فيخسف به إلى
أسفل السافلين ، وصاحبه لا يشعر ، وعلامة الخسف به ، أنه لا يزال جوالاً
حول السفليات والقاذورات والرذائل ، كما أن القلب الذى رفعه الله
وقربه إليه لا يزال جوالاً حول العرش.

[١٤٧] ليس الشديد بالصرعة...

صحيح.

رواه مالك فى «الموطأ» (٩٠٦/٢) - ومن طريقه البخارى (٦٨/٤) ، ومسلم
(٢٠١٤/٤) ، والنسائى فى «اليوم والليلة» (٣٩٦) - عن الزهرى ، عن ابن المسيب ، عن
أبى هريرة به.

[١٤٨] ليس المسكين بالطواف.

صحيح.

رواه البخارى (٢٥٨/١) ، ومسلم (٧١٩/٢) من حديث أبى هريرة - رضى الله

عنه -.

ومنها : البعد عن البر والخير ومعالي الأعمال والأقوال والأخلاق.
قال بعض السلف : إن هذه القلوب جواله ، فمنها ما يجول حول
العرش ، ومنها ما يجول حول الحش.

■ مسخ القلب.

ومنها : مسخ القلب ، فيمسخ كما تمسخ الصورة ، فيصير القلب
على قلب الحيوان الذى شابهه فى أخلاقه وأعماله وطبيعته ، فمن القلوب ما
يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به ، ومنها ما يمسخ على خلق
قلب كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك ، وهذا تأويل سفيان بن
عيينة فى قوله تعالى :

﴿وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾
(الأنعام: ٣٨).

قال : منهم من يكون على أخلاق السباع العادية ، ومنهم من يكون
على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير ، ومنهم من يتطوس
فى ثيابه كما يتطوس الطاووس فى ريشه ، ومنهم من يكون بليداً
كالحمار ، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك ، ومنهم من يألف ويؤلف
كالحمام ، ومنهم الحقود كالجمل ، ومنهم الذى هو خير كله كالغنم ،
ومنهم أشباه الثعالب التى تروغ كروغانها ، وقد شبه الله تعالى أهل
الجحيم والغى بالحر تارة ، وبالكلب تارة ، وبالأنعام تارة ، وتقوى هذه
المشابهة باطنا حتى تظهر فى الصورة الظاهرة ظهوراً خفياً ، يراه المتفرسون
وتظهر فى الأعمال ظهوراً يراه كل أحد ، ولا يزال يقوى حتى تستشنع
الصورة ، فتقلب له الصورة بإذن الله ، وهو المسخ التام ، فيقلب الله

سبحانه وتعالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان ، كما فعل باليهود وأشباههم ، ويفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير .

فسبحان الله ! كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر ؟ وقلب ممسوخ ، وقلب مخسوف به ؟

وكم من مفتون بثناء الناس عليه ؟ ومغرور بستر الله عليه ؟ ومستدرج بنعم الله عليه ؟ وكل هذه عقوبات وإهانات ، ويظن الجاهل أنها كرامة .

ومنها : مكر الله بالماكر ومخادعته للمخادع ، واستهزاؤه بالمستهزئ ، وإزاغته للقلب الزائغ عن الحق .

■ نكس القلب .

ومنها : نكس القلب حتى يرى الباطل حقاً ، والحق باطلاً ، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً ، ويفسد ويرى أنه يصلح ، ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو إليها ، ويشترى الضلالة بالهدى ، وهو يرى أنه على الهدى ، ويتبع هواه وهوى عَمَّ أنه مطيع لمولاه ؟ وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلب .

■ حجب القلب عن الرب .

ومنها : حجاب القلب عن الرب في الدنيا ، والحجاب الأكبر يوم القيامة ، كما قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ (المطففين : ١٤ / ١٥) .

فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم ، فيصلوا إليها فيروا ما يصلحها ويزكيها ، وما يفسدها ويشقيها ، وأن يقطعوا المسافة بين

قلوبهم وبين ربهم ، فتصل القلوب إليه فتفوز بقربه وكرامته ، وتقر به عيناً وتطيب به نفساً بل كانت الذنوب حجاً بينهم وبين قلوبهم ، وحجاً بينهم وبين ربهم وخالقهم.

□ المعيشة الضنك.

ومنها : المعيشة الضنك فى الدنيا وفى البرزخ والعذاب فى الآخرة ، قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (طه : ١٢٤) .

وفسرت المعيشة الضنك : بعذاب القبر ، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك ، والآية تتناول ما هو أعم منه ، وإن كانت نكرة فى سياق الإثبات ، فإن عمومها من حيث المعنى ، فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره ، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وإن تنعم فى الدنيا بأصناف النعم . ففى قلبه من الوحشة والذل والحسرات التى تقطع القلوب ، والأمانى الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه . وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة ، وإن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر ، فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر ، فإنه يفيق صاحبه ويصحو ، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه فى عسكر الأموات ، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذى أنزله على رسوله ﷺ فى دنياه وفى البرزخ ويوم معاده ، ولا تقر العين ، ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذى هو حق ، وكل معبود سواه باطل ، فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحاً كما قال تعالى :

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (النحل: ٩٧).

فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء فى الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة ، فلهم أطيب الحياتين ، فهم أحياء فى الدارين .
ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾ (النحل: ٣٠).

ونظيرها قوله تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾ (هود: ٣).

ففاض المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة ، وحصلوا على الحياة الطيبة فى الدارين ، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته ، من ترك الشهوات المحرمة ، والشبهات الباطلة ، وهو النعيم على الحقيقة ، ولا نسبة لنعيم البدن إليه .
فقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف .

وقال آخر : إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا ، إنهم لفى عيش طيب .

وقال آخر : إن فى الدنيا جنة هى فى الدنيا كالجنة فى الآخرة ، فمن دخلها دخل تلك الجنة ، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، وقد أشار النبى ﷺ إلى هذه الجنة بقوله : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : « حلق الذكر » (١٤٩)

[١٤٩] إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا .

واه جداً .

وسوف يأتى تخريجه برقم (٢٣٢) .

وقال : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » (١٥٠).

■ نعيم الأبرار وجحيم الفجار.

ولا تظن أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ (الانفطار: ١٣/١٤).

مختص بيوم المعاد فقط ، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة ، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة ، وأى لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب ، وسلامة الصدر ومعرفة الرب تبارك وتعالى ومحبته ، والعمل على موافقته ؟ وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم ؟ وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال :

﴿ وَإِنْ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ . إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

(الصافات: ٨٣ و ٨٤).

وقال حاكياً عنه أنه قال : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٨ و ٨٩).

والقلب السليم هو الذى سلم من الشرك والغل والحقْد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة ، فسلم من كل آفة تبعده عن الله ، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره ، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده ، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله ، فهذا القلب السليم فى جنة معجلة فى الدنيا ، وفى جنة فى البرزخ ، وفى جنة يوم المعاد.

[١٥٠] ما بين بيتي ومنبري ..

صحيح.

وسوف يأتي تخريجه برقم (٢٣٣).

□ سلامة القلب.

* ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد ، وبدعة تخالف السنة ، وشهوة تخالف الأمر ، وغفلة تناقض الذكر ، وهوى يناقض التجريد والإخلاص .

وهذه الخمسة حجب عن الله ، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة ، تتضمن أفراداً لا تنحصر .

□ الصراط المستقيم.

ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته ، إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم ، فليس العبد أحوج منه إلى هذه الدعوة ، وليس شيء أنفع له منها .

فإن الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادات وأعمالاً وتروكاً ظاهرة وباطنة تجرى عليه كل وقت .

فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد ، وقد لا يعلمها ، وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه ، وما يعلمه قد يقدر عليه ، وقد لا يقدر عليه ، وهو الصراط المستقيم وإن عجز عنه ، وما يقدر عليه قد تريده نفسه . وقد لا تريده ، كسلاً وتهاوناً ، أو لقيام مانع وغير ذلك ، وما تريده قد يفعله وقد لا يفعله ، وما يفعله قد يقوم فيه بشرط الإخلاص وقد لا يقوم ، وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم ، وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يصرف قلبه عنه ، وهذا كله واقع سار في الخلق ، فمستقل ومستكثر .

وليس في طباع العبد الهداية إلى ذلك ، بل متى وكل إلى طباعه حيل

بينه وبين ذلك كله، وهذا هو الإركاس الذى أركس الله به المنافقين بذنوبهم، فأعادهم إلى طباعهم وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم، والرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم فى قضائه وقدره ، ونهيه وأمره فيهدى من يشاء إلى صراط مستقيم بفضله ورحمته ، وجعله الهداية حيث تصلح ، ويصرف من يشاء عن صراطه المستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية المحل ، وذلك موجب صراطه المستقيم الذى هو عليه ، فإذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطاً مستقيماً يوصلهم إليه فهو على صراط مستقيم.

ونصب لعباده من أمره صراطاً مستقيماً دعاهم جميعاً إليه، حجة منه وعدلاً ، وهدى من شاء منهم إلى سلوكه نعمة منه وفضلاً ، ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذى هو عليه ، فإذا كان يوم لقائه نصب لخلقه صراطاً مستقيماً يوصلهم إلى جنته ، ثم صرف عنه من صرف عنه فى الدنيا ، وأقام عليه من أقامه عليه فى الدنيا وجعل نور المؤمنين به ورسوله وما جاء به الذى كان فى قلوبهم فى الدنيا نوراً ظاهراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم فى ظلمة الحشر ، وحفظ عليهم نورهم حتى قطعوه . كما حفظ عليهم الإيمان به حتى لقوه وأطفأ نور المنافقين أحوج ما كانوا إليه، كما أطفأه من قلوبهم فى الدنيا .

وأقام أعمال العصاة بجنتى الصراط كلاليب وحسكا تخطفهم كما خطفتهم فى الدنيا عن الاستقامة عليه ، وجعل قوة سيرهم وسرعتهم عليه على قدر قوة سيرهم وسرعتهم إليه فى الدنيا ، ونصب للمؤمنين حوضاً يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه فى الدنيا ، وحرم من الشرب منه هناك من حرم من الشرب من شرعه ودينه ههنا .

* فانظر إلى الآخرة كأنها رأى عين ، وتأمل حكمة الله سبحانه في الدارين ، تعلم حينئذ علماً يقيناً لا شك فيه : أن الدنيا مزرعة الآخرة وعنوانها وأتمودجها ، وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم في هذه الدار في الإيمان والعمل الصالح وضدهما ، وبالله التوفيق.

فمن أعظم عقوبات الذنوب : الخروج عن الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة.



فصل أصل الذنوب

ولما كانت الذنوب متفاوتة فى درجاتها ، ومفاسدها تفاوتت عقوباتها فى الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها .

ونحن نذكر فيها بعون الله وحسن توفيقه فصلاً وجيزاً جامعاً ، فنقول:

أصلها نوعان : ترك مأمور ، وفعل محظور ، وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه بهما أبوى الجن والإنس .

وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح ، وباطن فى القلوب ، وباعتبار متعلقه إلى حق الله ، وحق خلقه .

وإن كان كل حق لخلقفه فهو متضمن لحقه ، لكن سمي حقاً للخلق ، لأنه يجب بمطالبتهم ويسقط بإسقاطهم .

ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام : ملكية وشيطانية ، وسبعية ، وبهيمية ، ولا تخرج عن ذلك .



فصل الذنوب الملكية

— فالذنوب الملكية أن يتعاطى مالا يصلح له من صفات الربوبية ، كالعظمة والكبرياء والجبروت ، والقهر ، والعلو ، واستعباد الخلق ، ونحو ذلك .

ويدخل فى هذا الشرك بالله تعالى ، وهو نوعان : شرك به فى أسمائه وصفاته ، وجعل آلهة أخرى معه وشرك به فى معاملته ، وهذا الثانى قد لا يوجب دخول النار ، وإن أحبط العمل الذى أشرك فيه مع الله غيره .

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب ويدخل فيه القول على الله بلا علم فى خلقه وأمره ، فمن كان من أهل هذه الذنوب ، فقد نازع الله سبحانه فى ربوبيته وملكه ، وجعل له ندا . وهذا أعظم الذنوب عند الله ، ولا ينفع معه عمل .



فصل

الذنوب الشيطانية

- وأما الشيطانية : فالتشبه بالشيطان فى الحسد ، والبغى ، والغش ، والغل والخداع والمكر ، والأمر بمعاصى الله وتحسينها ، والنهى عن طاعته وتهجينها ، والابتداع فى دينه ، والدعوة إلى البدع والضلال .
وهذا النوع يلى النوع الأول فى المفسدة ، وإن كانت مفسدته دونه .



فصل

الذنوب السبعية

- وأما السبعية : فذنوب العدوان ، والغضب ، وسفك الدماء ، والتوثب على الضعفاء والعاجزين ، ويتولد منها أنواع أذى النوع الإنسانى والجرأة على الظلم والعدوان .

فصل

الذنوب البهيمية

- وأما الذنوب البهيمية : فمثل الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، ومنها يتولد الزنى ، والسرقه ، وأكل أموال اليتامى ، والبخل ، والشح ، والجبن ، والهلع والجزع وغير ذلك .

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام . فهو يجبرهم إليها بالزمام ، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية ، ثم إلى الشيطانية ، ثم إلى منازعة الربوبية والشرك فى الوجدانية .

ومن تأمل هذا حق التأمل ، تبين له أن الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبيته .



فصل

الذنوب : كبائر وصغائر

- وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة ، على أن من الذنوب كبائر وصغائر ، قال الله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سِيئَاتِكُمْ وَنَدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ۝ ﴾ .

(النساء : ٣١) .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۝ ﴾

(النجم : ٣٢) .

وفى الصحيح عنه عليه السلام أنه قال :

« الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » (١٥١).

وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات .

إحداها : أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها والقيام بحقوقها ، بمنزلة الدواء الضعيف الذى ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية .

الثانية : أن تقاوم الصغائر ، ولا ترقى إلى تكفير شىء من الكبائر .

الثالثة : أن تقوى على تكفير الصغائر ، وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر فتأمل هذا ، فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة .

وفى الصحيحين عنه عليه السلام أنه قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » قلنا : بلى يا رسول الله ، فقال : « الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور » .(*)

[١٥١] الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة..

صحيح.

رواه الإمام أحمد (٤٠٠/٢) ، ومسلم (٢٠٩/١) من طريق : عمر بن إسحاق ، عن أبيه ، عن أبي هريرة به .

وله طرق أخرى عن أبي هريرة .

[*] ألا أنبئكم بأكبر الكبائر

صحيح.

رواه البخاري (١٠٢/٢) ، ومسلم (٩١/١) ، والترمذي (١٩٠١) ومواضع أخرى من طريق :

عبد الرحمن بن أبي بكر ، عن أبيه به .

وفي « الصحيحين » عنه عليه السلام : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الإشرار بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » (١٥٢).

وفي « الصحيحين » عنه عليه السلام أنه سئل : أى الذنب أكبر عند الله ؟ قال : « أن تدعو لله ندا وهو خلقك ، قيل : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قيل : ثم أى ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك » (١٥٣).
فأنزل الله تعالى تصديقها :

﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ الآية
(الفرقان : ٦٨) .



[١٥٢] اجتنبوا السبع الموبقات ..

صحيح.

رواه البخارى (١٣١/٢) ، ومسلم (٩٢/١) ، وأبو داود (٢٨٧٤) ، والنسائى (٢٥٧/٦) من حديث : سالم أبى الغيث ، عن أبى هريرة به.

[١٥٣] أن تدعو لله نداً وهو خلقك ..

صحيح.

وقد سبق تخريجه برقم (١٤٢).

❑ عدد الكبائر.

- واختلف الناس في الكبائر : هل لها عدد يحصرها ؟ على قولين .

ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا في عددها ، فقال عبد الله بن مسعود: هي أربع ، وقال عبد الله بن عمر : هي سبع ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : هي تسعة وقال غيره : هي إحدى عشرة ، وقال آخر : هي سبعون .

وقال أبو طالب المكي : جمعتها من أقوال الصحابة ، فوجدتها أربعة في القلب ، وهي : الشرك بالله ، والإصرار على المعصية ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله ، وأربعة في اللسان : وهي شهادة الزور ، وقذف المحصنات ، واليمين الغموس ، والسحر ، وثلاث في البطن : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، واثنان في الفرج ، وهما : الزنى ، واللواط ، واثنان في اليدين وهما : القتل والسرقة ، وواحد في الرجلين ، وهو الفرار من الزحف ، وواحد يتعلق بجيع الجسد ، وهو : عقوق الوالدين .

* والذين لم يحصروها بعدد ، منهم من قال : كل ما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة وما نهى عنه الرسول ﷺ فهو صغيرة .

* وقالت طائفة : ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة وما لم يقترن به شيء من ذلك فهو صغيرة .

* وقيل : كل ما يرتب عليه حد في الدنيا ، أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة ، وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة .

* وقيل : كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر ، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة .

* وقيل : كل ما لعن الله ورسوله فاعله فهو كبيرة .

* وقيل : كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله : ﴿ إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ [النساء : ٣١] .

* والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا : الذنوب كلها - بالنسبة إلى الجراءة على الله سبحانه ومعصيته ومخالفة أمره - كبائر ، فالنظر إلى من عصى أمره ، وانتهك محارمه يوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر وهي مستوية في هذه المفسدة .

قالوا : ويوضح هذا أن الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها ، فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض ، فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته ولا فرق في ذلك بين ذنب وذنب .

قالوا : ويدل عليه أن مفسدة الذنوب إنما هي تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى ، ولهذا لو شرب رجل خمرًا أو وطئ فرجًا حرامًا ، وهو لا يعتقد تحريمه ، لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام ، ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان آتياً بإحدى المفسدتين ، وهو الذى يستحق العقوبة دون الأول ، فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب .

قالوا : ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع ونهيه وانتهاك حرمة ، وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب .

قالوا : فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره في نفسه ، ولكن ينظر إلى قدر من عصاه ، وعظمته ، وانتهاك حرمة بالمعصية ، وهذا لا يفرق فيه الحال بين معصية ومعصية ، فإن ملكاً مطاعاً عظيماً لو أمر أحد مملوكيه أن

يذهب فى مهمة له إلى بلد بعيد ، وأمر آخر أن يذهب فى شغل له إلى جانب الدار فعصياه وخالفأ أمره ، لكنا فى مقته والسقوط من عينه سواء .

قالوا : ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة ومن ترك الجمعة وهو جار المسجد ، أقبح عند الله من معصية من ترك من المكان البعيد ، والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا ، ولو كان مع رجل مائتا درهم ومنع زكاتها ومع آخر مائتا ألف ألف فممنع زكاتها لاستويا فى منع ما وجب على كل واحد منهما ، ولا يبعد استواءهما فى العقوبة ، إذا كان كل منهما مصراً على منع زكاة ماله ، قليلاً كان المال أو كثيراً .



فصل

الحق فى المسألة

* وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال :

إن الله عز وجل أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، وخلق السماوات والأرض ليعرف ويعبد ويوحّد، ويكون الدين كله لله والطاعة كلها له ، والدعوة له ، كما قال تعالى :

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (الذاريات: ٥٦).

وقال تعالى :

﴿ وما خلقتنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾

(الحجر : ٨٥).

وقال تعالى :

﴿ الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر
بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء
علماً ﴾ (الطلاق : ١٢).

وقال تعالى :

﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام
والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى
الأرض وأن الله بكل شيء عليم ﴾ (المائدة : ٩٧).

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر : أن يعرف بأسمائه وصفاته
ويعبد وحده لا يشرك له ، وأن يقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذى
قامت به السماوات والأرض ، كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات
وأنزّلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (الحديد : ٢٥).

فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله ، وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو
العدل ، ومن أعظم القسط التوحيد ، وهو رأس العدل وقوامه ، وإن الشرك
لظلم عظيم ، فالشرك أظلم الظلم ، والتوحيد أعدل العدل ، فما كان أشد
منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر ، وتفاوتها فى درجاتها بحسب منافاتها
له ، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض
الطاعات

فتأمل هذا الأصل حق التأمل ، واعتبر تفاصيله تعرف به حكمة أحكم
الحاكمين ، وأعلم العالمين ، فيما فرضه على عباده ، وحرمه عليهم ،
وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي .

فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود كان من أكبر الكبائر على الإطلاق ، وحرّم الله الجنة على كل مشرك ، وأباح دمه وأهله لأهل التوحيد وأن يتخذوهم عبيداً لهم ، لما تركوا القيام بعبوديته ، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً ، أو يقبل فيه شفاعته ، أو يستجيب له فى الآخرة دعوة ، أو يقبل له فيها عثرة ، فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله ، حيث جعل له من خلقه نداً وذلك غاية الجهل به ، كما أنه غاية الظلم منه ، وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه .



فصل

شرك الوساطة .

* ووقعت مسألة وهى : أن المشرك إنما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك ، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية ، وإنما قصد تعظيمه ، وقال : إنما أعبد هذه الوسائط لتقربنى إليه وتدلنى وتدخلى عليه ، فهو المقصود ، وهذه وسائل وشفعاء ، فلم كان هذا القدر موجباً لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ، ومخلداً فى النار ، وموجباً لسفك دماء أصحابه ، واستباحة حريمهم وأموالهم ؟

وترتب على هذا سؤال آخر وهو : أنه هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء ، والوسائط ، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع ، أم ذلك قبيح فى الفطر والعقول يمتنع أن تأتى به شريعة ؟ بل

جاءت الشرائع بتقرير ما فى الفطر والعقول من قبحه الذى هو أقبح من كل قبيح ؟ وما السر فى كونه لا يغفره من بين سائر الذنوب ؟ كما قال تعالى :

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾

(النساء : ٤٨).

فتأمل هذا السؤال ، واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه ، فإنه به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين ، والعالمين بالله والجاهلين به ، وأهل الجنة وأهل النار .

■ نوعا الشرك .

- فنقول - وبالله التوفيق والتأييد ، ومنه نسأل المعونة والتسديد فإنه من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ولا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع :

الشرك شركان : شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله .
وشرك فى عبادته ومعاملته وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله .

والشرك الأول : نوعان :

أحدهما : شرك التعطيل : وهو أقبح أنواع الشرك ، كشرك فرعون إذ قال :

﴿وما رب العالمين﴾ (الشعراء : ٢٣) .

وقال تعالى - مخبراً عنه أنه قال لهامان - :

﴿وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب أسباب

السماوات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً ﴿

غافر : ٣٦ و ٣٧) .

والشرك والتعطيل متلازمان : فكل مشرك معطل ، وكل معطل مشرك ، لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل ، بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه وصفاته ، ولكنه معطل حق التوحيد .

■ التعطيل .

وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها ، هو التعطيل ، وهو ثلاثة أقسام :

تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه .

وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله ، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد .

ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود ، الذين يقولون : ما ثم خالق ومخلوق ولا ههنا شيطان ، بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه ، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته ، وأنه لم يكن معدوماً أصلاً ، بل لم يزل ولا يزال ، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائل اقتضت إيجادها ، يسمونها بالعقول والنفوس ، ومن هذا شرك من عطّل أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة ، فلم يثبتوا له اسماً ولا صفة ، بل جعلوا المخلوق أكمل منه إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها .



فصل

شرك من جعل مع الله إلهاً آخر

* النوع الثانى: شرك من جعل مع الله إلهاً آخر ولم يعطل أسمائه وصفاته وربوبيته كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة ، فجعلوا المسيح إلهاً، وأمه إلهاً .

من هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور ، وحوادث الشر إلى الظلمة .

ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذى يخلق أفعال نفسه ، وأنها تحدث بدون مشيئة الله ، وقدرته وإرادته ، ولهذا كانوا أشباه المجوس .

ومن هذا : شرك الذى حاج إبراهيم فى ربه .

﴿ إذا قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت ﴾ (البقرة : ٢٥٨) .

فهذا جعل نفسه نداً لله ، يحيى ويميت بزعمه ، كما يحيى الله ويميت ، فألزمه إبراهيم أن طرد قولك أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التى يأتى بها الله منها ، وليس هذا انتقلاً كما زعم بعض أهل الجدل ، بل إلزاماً على طرد الدليل إن كان حقاً .

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ، ويجعلها أرباباً مدبرة لأمر هذا العالم ، كما هو مذهب مشركى الصابئة وغيرهم .

ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم .

ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة ، ومنهم من

يزعم أنه أكبر الآلهة ، ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة ، وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه ، والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به ، ومنهم من يزعم أنه معبوده الأدنى يقربه إلى المعبود الذى هو فوقه ، والفوقانى يقربه إلى من هو فوقه ، حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه وتعالى ؛ فتارة تكثر الآلهة والوسائط وتارة تقل .



فصل

الشرك فى العبادة

* وأما الشرك فى العبادة فهو أسهل من هذا الشرك ، وأخف أمراً ، فإنه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله ، وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، ولكن لا يخص الله فى معاملته وعبوديته ، بل يعمل لحظ نفسه تارة ، ولطلب الدنيا تارة ، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة ، فله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب ، وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب ، وهذا حال أكثر الناس وهو الشرك الذى قال فيه النبى ﷺ - فيما رواه ابن حبان فى « صحيحه » - : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من ديب النمل » قالوا : كيف ننجو منه يا رسول الله ؟ قال : « قل : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم » (١٥٤).

[١٥٤] الشرك فى هذه الأمة أخفى من ديب النمل..

ضعيف.

وقد روى من حديث أبى بكر الصديق، وأبى موسى الأشعرى، وعائشة، وابن عباس - رضوان الله عليهم أجمعين- .

.....

= فأما حديث أبي بكر - رضى الله عنه - :

فله عنه طريقان .

الأول : عن ليث بن أبي سليم ، عن أبي محمد ، عن حذيفة ، عن أبي بكر الصديق به .
أخرجه المروزي في « مسند أبي بكر » (١٧) من طريق : ابن جريج ، أخبرني ليث به .
قلت : وليث ضعيف ، وأبو محمد هذا لا أعرفه ، وقد اضطرب ليث في سند هذا الحديث على وجوه .

فرواه المروزي (١٨) من طريق : جرير ، عنه ، عن شيخ من عنزة ، عن معقل بن يسار ، قال : قال أبو بكر الصديق .. به .

ورواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧١٦) من طريق : عبد الواحد بن زياد ، عنه قال :
أخبرني رجل من أهل البصرة ، قال : سمعت معقل بالسند السابق .

ورواه ابن السني في « اليوم والليلة » (٢٨٧) من طريق : ابن جريج بالسند الأول ، إلا أنه قال : عن أبي مجلز ، عن حذيفة ...

وأما الطريق الثاني : فعن يحيى بن كثير ، عن الثوري ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن أبي بكر به .

أخرجه ابن عدى في « الكامل » (٢٦٩٥/٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١٢/٧) .

وقال أبو نعيم : « تفرد به عن الثوري يحيى بن كثير » .

قلت : وهذا سند منكر ، لتفرد يحيى بن كثير به عن الثوري ، دون باقي أصحاب الثوري الثقات ، ويحيى بن كثير هذا هو البصري ، أبو النضر ، وهو واه من قبل حفظه .

وأما حديث أبي موسى الأشعري - رضى الله عنه - :

فأخرجه الإمام أحمد (٤٠٣/٤) من طريق : عبد الملك بن أبي سليمان العزمي ، عن أبي علي رجل من بني كاهل ، قال : خطبنا أبو موسى الأشعري ، فقال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك ، فإنه أخفى من ديب النمل ، فقام إليه عبد الله بن حزن ، وقيس بن المضارب =

= فقالا : والله لمخرجنا ، فما فعلنا ؟ ثم اتينا عمر ماذون لنا أو غير ماذون ، قال : بل أخرج مما قلت ، أخبرك ، سمعنا الله نطقه ذلك يوم ، فقال : ... فذكره .

قلت : وهذا سند ضعيف ، لأن ابن عمر لم يسمعوا من النبي صلى الله عليه وآله وثقه ابن عثان .

وأما حديث عائشة - رضي الله عنها - :

فأخرجه العقيلي في « الضعفاء » (٣ / ١٠٠ - ١٠١) ، وأبو يعقوب (٣٦٨ / ٨) ، والحاكم في « المستدرک » (٢ / ٢٩١) ، عن عمر بن عبد الأعلى بن أعين ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن عروة ، عن عائشة بالشرط الأول دون الدعاء ، وزاد في آخره : وأنها أن تحب على شيء من الخور ، أو تبغض على شيء من العدل . وهي تسين إلا الحب في الله ، والبغض في الله ؟ قال الله تعالى : ﴿ قل يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله فانه ان يعيبكم الله فهو عيب لا يمكن له » .

قال الحاكم « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

وتعقبه الذهبي بقوله : « عبد الأعلى بن الدارقطني : ليس بثقة » .

قلت : وهو كما قال ، بل قال فيه العقيلي : « حدث عن يحيى بن أبي كثير بغير حديث منكر ، لا أصل له » .

وأما حديث ابن عباس - رضي الله عنه - :

فأخرجه أبو نعيم في « الحاشية » (٣٦٧ / ١ - ٢) ، وأبو داود (١١٤٠) ، من طريق : ابن خزيمة ، حدثنا حسان بن عباد البصري ، قال : حدثني أبي ، عن سليمان ، عن أبي مجلز وعكرمة ، عن ابن عباس - رفعاً :

« الشرك أخفى في أمتي من ديب البئر سني الصفا ، وليس بين العبد والكفر إلا ترك مسلاة » .

قال أبو نعيم : « غريب من حديث سليمان وأبي مجلز وعكرمة ، تفرد به عباد البصري ، وعنه ابنه حسان » .

قلت : حسان وأبوه لم أقف لهما على تراجع .

فالرياء كله شرك ، قال تعالى :

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهمكم إنه واحد فليس مني أن أكون له شريكاً ، فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾
(الكهف : ١١٠).

أى كما أنه إله واحد ، ولا إله سواه ، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده ، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح هو الخانى من الرياء المقيد بالسنة .

وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه : اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

هذا الشرك فى العبادة يبطل ثواب العمل ، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً فإنه ينزله منزله من لم يعمله فيعاقب على ترك الأمر ، فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته عبادة خالصة قال تعالى :

﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ (البينة : ٥) .

فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمر به ، بل الذى أتى به شئ غير المأمور به ، فلا يصح ولا يقبل منه ، ويقول الله : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك معي فيه غيرى ، فهو للشرك أشرك به ، وأنا منه بريء » (١٥٥) .

[١٥٥ أنا أغنى الشركاء عن الشرك ..

صحيح .

رواه مسلم (٢٢٨٩/٤) من طريق : روح بن القاسم ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ : « قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي غيرى ، تركته وشركه » .

أقسام الشرك .

* وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور ، وأكبر وأصغر والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر ، وليس شيء منه مغفور ، فمنه الشرك بالله فى المحبة والتعظيم أن يحب مخلوقاً كما يحب الله ، فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله ، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه :

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾
(البقرة : ١٦٥) .

وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعهم الجحيم :

﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾

(الشعراء : ٩٧ و ٩٨) .

ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه فى الخلق والرزق والإماتة والإحياء ، والملك والقدرة ، وإنما سووهم به فى الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل ، وهذا غاية الجهل والظلم ، فكيف يسوى التراب برب الأرباب ؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب ؟ وكيف يسوى الفقير بالذات الضعيف العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ، الذى ليس له من ذاته إلا العدم بالغنى بالذات ، القادر بالذات ، الذى غناه وقدرته ، وملكه وجوده ، وإحسانه ، وعلمه ، ورحمته ، وكمال المطلق التام من لوازم ذاته ؟ !

فأى ظلم أقبح من هذا ؟ وأى حكم أشد جوراً منه ؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه ، كما قال تعالى :

﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾
(الأنعام : ١) .

فعدل المشرك من خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ،
بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، فيالك
من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه !! .



فصل

الشرك فى الأفعال والاقوال والإرادات والنيات

* ويتبع هذا الشرك الشرك به سبحانه فى الأفعال ، والأقوال
والإرادات ، والنيات .

فالشرك فى الأفعال كالسجود لغيره ، والطواف بغير بيته ، وحلق
الرأس عبودية وخضوعاً لغيره ، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذى
هو يمين الله فى الأرض ، وتقبيل القبور ، واستلامها ، والسجود لها ، ولقد
لعن النبى ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها ،
فكيف بمن اتخذ القبور أوثاناً يعبدونها من دون الله ؟ .

ففى « الصحيحين » عنه ﷺ أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى ،
اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » (١٥٦) .

[١٥٦] لعن الله اليهود والنصارى ..

صحيح .

رواه بهذا اللفظ البخارى (٢٤١/١) ، ومسلم (٣٧٦/١) من طريق : هلال الزان ، عن
عروة بن الزبير ، عن عائشة - رضى الله عنها - به .
ورواه مسلم (٣٧٧/١) من طريق : يزيد الأصم ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - به .

وفى «الصحيح» عنه: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد». (١٥٧)

وفى «الصحيح» أيضاً عنه: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك» (١٥٨).

[١٥٧] إن من شرار الناس ..

ضعيف.

رواه الإمام أحمد (٤٣٥ و ٤٠٥/١)، وابن خزيمة (٧٨٩)، والطبراني في «الكبير» (٢٣٢/١٠) من طرق عن: زائدة، عن عاصم بن أبي النجود، عن شقيق، عن ابن مسعود به.

قلت: وهذا سند حسن لولا تفرد عاصم بن أبي النجود به، فإن فيه ضعفاً، ومثله لا يحتمل منه التفرد.

ثم إني رأيت محقق كتاب «الصحيح» لابن خزيمة الدكتور محمد مصطفى الأعظمي يحكم على هذا السند بالحسن، ثم قال: «وعلقه البخاري في «الفتن» بصيغة الجزم عن ابن مسعود مرفوعاً دون الجملة الأخيرة منه».

قلت: وهذا وهم، فلنأمل علقه البخاري عن أبي عوانة، عن عاصم به، فقال في «صحيحه» (الفتن باب: ظهور الفتن) (٢٢٣/٤):

«وقال أبو عوانة، عن عاصم، عن أبي وائل، عن الأشعري، أنه قال لعبد الله - [أى ابن مسعود] - تعلم الأيام التي ذكر النبي ﷺ أيام الهرج، نحوه - [أى نحو الحديث الذي رواه قبله] - قال ابن مسعود: .. فذكره».

قلت: فهذا تعليق بالجزم عن أبي عوانة، وليس عن ابن مسعود، فيبقى النظر في السند بين أبي عوانة وبين ابن مسعود، ولذا لم يجزم به البخاري عن ابن مسعود.

[١٥٨] إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ..

صحيح.

رواه مسلم (٣٧٧/١)، والنسائي في «الكبرى» (تحفة: ٤٤٣/٢) من طريق: عبد الله ابن الحارث النجرائي، عن جندب بن عبد الله به، وفي أوله زيادة.

وفى مسند الإمام أحمد رضى الله عنه ، وصحيح ابن حبان عنه عليه السلام قال:

«لعن الله زوارات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج» (١٥٩)
وقال:

«اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (١٦٠).

[١٥٩] لعن الله زوارات القبور..

ضعيف.

وقد جمعت طرقه وبينت علله فى كتابى «الآداب الشرعية للنساء فى زيارة المقابر»
(ص: ١٨-٢٢).

[١٦٠] اشتد غضب الله على قوم اتخذوا..

مرسل.

رواه الإمام مالك فى «الموطأ» (١٧٢/١) - ومن طريقه ابن سعد فى «الطبقات»
(٣٥/٢/٢) - عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، أن رسول الله ﷺ ، قال :
« اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد ، اشتد .. فذكره ».

وسنده مرسل.

قال ابن عبد البر فى «التمهيد» (٤١/٥) : «لاخلاف عن مالك فى إرسال هذا الحديث».

قلت : وقد روى موصولاً.

أخرجه البزار فى «مسنده» (كشف الأستار : ٤٤٠) من طريق :

عمر بن صهبان ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى به.

قلت : وعمر بن صهبان هذا ضعيف ، وأخطأ ابن عبد البر ، فظنه عمر بن محمد ، وهو

وهم ، للتصريح باسمه فى رواية البزار.

وقال :

« إن من كان قبلكم كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » (١٦١).

فهذا حال من سجد لله في مسجد على قبر ، فكيف حال من سجد للقبر نفسه ؟!

وقد قال النبي ﷺ :

« اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » (١٦٢)

وقد حمى النبي ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية ، حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها لئلا يكون

[١٦١] إن من كان قبلكم كان..

صحيح.

رواه البخارى (٨٦/١) ، ومسلم (٣٧٥/١) ، والنسائى (٤١/٢) من طريق : يحيى القطان ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة - رضي الله عنها - به.

[١٦٢] اللهم لا تجعل قبري وثناً..

حسن.

رواه الإمام أحمد (٢٤٦/٢) ، والحميدى (١٠٢٥) من طريق : سفيان بن عيينة ، عن حمزة بن المغيرة ، عن سهيل بن أبى صالح ، عن أبيه ، عن أبى هريرة مرفوعاً:

« اللهم لا تجعل قبري وثناً ، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ».

قلت : وهذا سند حسن ، حمزة بن المغيرة وثقه ابن حبان ، وقال ابن معين : « ليس به

بأس ».

ذريعة إلى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين ، وسد الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس .

*** وأما السجود لغير الله :**

فقال: « لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا لله ». (١٦٣)

و« لا ينبغي » في كلام الله ورسوله ﷺ للذى هو في غاية الامتناع شرعاً ، كقوله تعالى :

﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ (مريم : ٩٢) .

وقوله : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ (يس : ٦٩) .

وقوله : ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم ﴾ (الشعراء : ٢١٠) .

وقوله - عن الملائكة - : ﴿ ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ (الفرقان : ١٨) .



[١٦٣] لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا لله....

منكر.

والحديث رواه ابن الأعرابي في «القبل والمعانقة» (٤٣) ، والبزار كما في «كشف الأستار» (١٣٢/٣) ، وابن المقرئ (٥) من طريق : حبان بن علي ، عن صالح بن حبان ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه... به، وفي أوله قصة.

قلت: وهذا سند منكر ، فيه حبان بن علي ، وصالح بن حبان ، وهما ضعيفان ، وقد تفردا برواية هذا الحديث.

قال البزار : « لا نعلم من رواه عن صالح إلا حبان ».

فصل

الشرك في اللفظ

* ومن الشرك به سبحانه: الشرك به في اللفظ كالحلف بغيره ، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه عليه السلام أنه قال :

«من حلف بغير الله فقد أشرك» (١٦٤) صححه الحاكم وابن حبان .

ومن ذلك قول القائل للمخلوق : ما شاء الله وشئت ، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل : ما شاء الله وشئت ، فقال : «أجعلتني لله نداً ؟ قل : ما شاء الله وحده» (١٦٥).

[١٦٤] من حلف بغير الله فقد أشرك.

صحيح.

رواه الإمام أحمد (١٢٥/٢) ، وأبو داود (٣٢٥١) ، والترمذي (١٥٣٥) ، وابن حبان في «صحيحه» (موارد : ١١٧٧) من طريق : الحسن بن عبيد الله ، عن سعد بن عبيدة ، عن ابن عمر به.

وسنده صحيح.

(١٦٥) أجعلتني لله نداً؟

ضعيف ، وله شاهد صحيح.

رواه الإمام أحمد (٢١٤/١) ، (٣٤٧، ٢٨٣، ٢٢٤) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣) ، والنسائي في «اليوم والليلة» (٩٩٥) ، وابن ماجه (٢١١٧) ، والبيهقي في «الكبرى» (٢١٧/٣) ، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠٥/٨) من طرق : عن الأجلح بن عبد الله الكندي ، عن يزيد بن الأصم ، عن ابن عباس - رضي الله عنه - به ، وبعضهم قال : (عدلاً) ، وفيه الأجلح الكندي ، فيه ضعف ، ولا يحتمل من مثله التفرد.

وقد اختلف عليه فيه، فرواه النسائي في «اليوم والليلة» (٩٩٤) من طريق : =

هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله :

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (التكوير : ٢٨).

فكيف بمن يقول : أنا متوكل على الله وعليك ، وأنا في حسب الله وحسبك ، ومالي إلا الله وأنت ، وهذا من الله ومنك ، وهذا من بركات الله وبركاتك ، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض ، أو يقول : والله وحياة فلان ، أو يقول : نذراً لله وفلان ، أو أنا تائب لله وفلان ، أو أرجو الله وفلاناً ، ونحو ذلك ؟!

فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت ، ثم انظر أيهما أفحش ، يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة ، وأنه إذا كان قد جعل لله ندّاً ، فهذا قد جعل من لا يداني رسول الله ﷺ في شيء من الأشياء - بل لعله أن يكون له من أعدائه - ندّاً لرب العالمين ، فالسجود والعبادة والتوكل والإنابة ، والتقوى والخشية والحسب والتوبة ، والنذر والحلف ، والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً ، والطواف بالبيت ، والدعاء ، كل ذلك محض حق الله الذي لا يصلح ولا ينبغي لسواه ، من ملك مقرب ولا نبي مرسل .

=القاسم بن مالك ، قال : حدثنا الأجلح ، وقال على إثره : عن أبي الزبير ، عن جابر به .
والأقرب عندي أن هذا الاختلاف في السند إنما هو من الأجلح ، وإن كنت أرجح الطريق الأول لكثرة من رواه عن الأجلح .

ولكن له شاهد صحيح من حديث قتيلة الجهنية عند النسائي (٦/٧) ، وفي «اليوم والليلة» (٩٩٢).

وفى «مسند الإمام أحمد»: أن رجلاً أتى به إلى النبي ﷺ قد أذنب ذنباً ، فلما وقف بين يديه قال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال : «عرف الحق لأهله» (١٦٦) .



فصل

الشرك فى الإرادات والنيات

* وأما الشرك فى الإرادات والنيات: فذلك البحر الذى لا ساحل له، وقل من ينجو منه ، من أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئاً غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه ، فقد أشرك فى نيته وإرادته .

* والإخلاص : أن يخلص لله فى أقواله وأفعاله وإرادته ونيته ، وهذه هى الحنيفية ملة إبراهيم التى أمر الله بها عباده كلهم ، ولا يقبل من أحد غيرها ، وهى حقيقة الإسلام .

﴿ومن يتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾
(آل عمران : ٨٥) .

وهى ملة إبراهيم التى من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء.

[١٦٦] عرف الحق لأهله.

ضعيف

رواه أحمد (٤٣٥/٣) ، والطبراني فى «الكبير» (٢٨٦/١) ، والحاكم (٢٥٥/٤) من طريق : محمد بن مصعب القرقسائي ، عن سلام بن مسكين ومبارك بن فضالة ، عن الحسن ، عن الأسود بن سريع - رضى الله عنه - به .

قال الحاكم : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» .

وتبعه الذهبي بقوله : «ابن مصعب ضعيف» .

وهو كما قال - رحمه الله - .

فصل

حقيقة الشرك

* إذا عرفت هذه المقدمة ، انفتح لك الجواب عن السؤال المذكور ، فنقول ، ومن الله وحده نستمد الصواب .

حقيقة الشرك : هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به ، وهذا هو التشبيه فى الحقيقة لا إثبات صفات الكمال التى وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله ، فعكس الأمر من نكس الله قلبه ، وأعمى عين بصيرته ، وأركسه بكسبه وجعل التوحيد تشبيهاً ، والتشبيه تعظيماً وطاعةً ، فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق فى خصائص الإلهية .

فإن من خصائص الإلهية: التفرد بملك الضر والنفع، والعطاء والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده ، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعل ما لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً - فضلاً عن غيره - شبيهاً لمن له الأمر كله ، فأزمت الأمور كلها بيديه ، ومرجعها إليه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد ، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد .

فمن أقبح التشبيه : تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات، بالقادر الغنى بالذات .

ومن خصائص الإلهية : الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوبة والتوكل

والاستعانة ، وغاية الذل مع غاية الحب ، كل ذلك عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون له وحده ، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره ، فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ، ولا مثيل له ولا ند له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله . ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره ، مع أنه كتب على نفسه الرحمة .

ومن خصائص الإلهية : العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما : غاية الحب مع غاية الذل ، هذا تمام العبودية ، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين .

فمن أعطى حبه وذهله وخضعه لغير الله فقد شبهه به في خصائص حبه ، وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع ، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل ، ولكن غيرت الشياطين فطراً أكثر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم ، واجتالتهم عنها ، ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى ، فأرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم ، فازدادوا بذلك نوراً على نور .

﴿ يَهْدِي اللَّهُ النُّورَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (النور : ٣٥) .

إذا عرف هذا ، فمن خصائص الإلهية : السجود ، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به .

ومنها : التوكل ، فمن توكل على غيره فقد شبهه به .

ومنها : التوبة ، فمن تاب لغيره فقد شبهه به .

ومنها : الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً له ، فمن حلف بغيره فقد شبهه به ، هذا في جانب التشبيه .

* وأما في جانب التشبه به : فمن تعاضم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعليق القلب به خوفاً ورجاءاً والتجاءً واستعانة ، فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته ، وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان ، ويذله غاية الذل ويجعله تحت أقدام خلقه .

وفي « الصحيح » عنه عليه السلام قال : « يقول الله عز وجل : العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبتة » (١٦٧).

وإذا كان المصور الذي يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله في مجرد الصنعة ، فما الظن بالتشبه بالله في الربوبية والإلهية ؟ !

كما قال النبي صلى الله عليه وآله : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون ، يقال لهم أحيوا ما خلقتم » (١٦٨).

[١٦٧] يقول الله عز وجل : العظمة إزاري ...

صحيح .

رواه مسلم (٢٠٢٣/٤) من طريق: أبي مسلم الأغر ، عن أبي سعيد وأبي هريرة ، مرفوعاً بلفظ:

«العز إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني عذبتة» .

وهو باللفظ الذي ذكره المصنف عند الإمام أحمد (٤٤٢/٢) .

[١٦٨] أشد الناس عذاباً يوم القيامة ...

صحيح .

رواه البخاري (٤٤/٤) ، ومسلم (١٦٧٠/٣) ، والنسائي (٢١٦/٨) من طريق :

مسروق ، عن ابن مسعود به دون قوله : «يقال لهم أحيوا ما خلقتم» .

وهذا الحرف ورد في حديث ابن عمر ، وحديث عائشة - رضي الله عنهما - في

«الصحيحين» .

وفى «الصحيحين» عنه عليه السلام أنه قال : « قال الله عز وجل : ومن أظلم
من ذهب يخلق خلقاً كخلقى ، فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة » (١٦٩)
ففيه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منها وأكبر .

* والمقصود: أن هذا حال من تشبه به فى صنعة صورة ، فكيف حال
من تشبه به فى خواص ربوبيته وإلهيته ؟! وكذلك من تشبه فى الاسم الذى
لا ينبغى إلا لله وحده ، كملك الملوك ، وحاكم الحكام ، ونحوه .

وقد ثبت فى «الصحيح» عن النبى عليه السلام أنه قال : « إن أخنع الأسماء
عند الله رجل يسمى بشاهان شاه - أى ملك الملوك - لا ملك إلا الله »
وفى لفظ : « أغبط رجل على الله ، رجل يسمى بملك الأملاك » (١٧٠).

فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا
له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده ، وهو حاكم الحكام وحده ، فهو الذى
يحكم على الحكام كلهم ، ويقضى عليهم كلهم ، لا غيره .



[١٦٩] قال الله عز وجل : ومن أظلم من ذهب يخلق ...
صحيح .

رواه البخاري (٤٤/٤) ، ومسلم (١٦٧١/٣) من طريق : عمارة بن القعقاع ، عن
أبي زرعة ، عن أبي هريرة به .

[١٧٠] إن أخنع الأسماء عند الله ..
صحيح .

رواه البخاري (٨١/٤) ، ومسلم (١٦٨٨/٣) ، وأبوداود (٤٩٦١) ، والترمذي
(٢٨٣٧) من حديث :

ابن عيينة ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة بلفظ :
« أخنع الأسماء عند الله رجل تسمى بملك الأملاك » .
وفسره ابن عيينة بـ «شاهان شاه» .

فصل

سوء الظن بالله

* إذا تبين هذا فهنا أصل عظيم يكشف سر المسألة ، وهو : أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به ، فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس ، وظن به ما يناقض أسمائه وصفاته ، ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ (الفتح : ٦) .

وقال تعالى - لمن أنكر صفة من صفاته - : ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ (فصلت : ٢٣) .
وقال تعالى - عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه - : ﴿ ماذا تعبدون أثفكاً آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين ﴾ (الصافات : ٨٥- ٨٧)

أى فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ وما ظننتم به حتى عبدتم معه غيره ؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره ؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم ، وهو على كل شيء قدير ، وأنه غنى عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ، وأنه قائم بالقسط على خلقه ، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره ، والعالم بتفاصيل الأمور ، فلا يخفى عليه خافية من خلقه والكافى لهم وحده ، فلا يحتاج إلى معين ، والرحمن بذاته ، فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه ، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء ؛ فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم ،

ويعينهم على قضاء حوائجهم، وإلى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة،
فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة حاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم.

فأما القادر على كل شيء، الغنى بذاته عن كل شيء، العالم بكل
شيء، الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شيء، فإدخال الوسائط
بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده، وظن به ظن سوء،
وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع فى العقول والفطر جوازه، وقبحه
مستقر فى العقول السليمة فوق كل قبيح.

ويوضح هذا : أن العابد معظم لمعبوده، متأله له، خاضع ذليل له،
والرب تعالى وحده هو الذى يستحق كمال التعظيم، والإجلال والتأله
والخضوع والذل، وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره
، أو يشرك بينه وبينه فيه، ولا سيما إذا كان الذى جعل شريكه فى حقه هو
عبده ومملوكه كما قال تعالى :

﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكتم أيمانكم من
شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم
كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ (الروم : ٢٨).

أى إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه فى رزقه، فكيف
تجعلون لى من عبيدى شركاء فيما أنا منفرد به وهو الإلهية، التى لا تنبغى
لغيرى، ولا تصح لسواى !؟

فمن زعم ذلك فما قدرنى حق قدرى، ولا عظمنى حق تعظيمى،
ولا أفردنى بما أنا منفرد به وحدى دون خلقى، فما قدر الله حق قدره من

عبد معه غيره ، كما قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ﴾ (الحج : ٧٣ و ٧٤) .

فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره ممن لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره ، وإن سلبه الذباب شيئاً مما عليه لم يقدر على استنقاذه منه ، وقال تعالى :

﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

(الزمر : ٦٧) .

فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك ألبتة ، بل هو أعجز شيء وأضعفه ، فما قدر القوى العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الدليل .

وكذلك ما قدره حق قدره من قال : إنه لم يرسل إلى خلقه رسولاً ، ولا أنزل كتاباً ، بل نسبه إلى مالا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى ، وخلقهم باطلاً وعبثاً ، ولا قدره حق قدره من نفى حقائق أسمائه الحسنی وصفاته العلی ، فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه ، وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ، أو نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم ، فأخرجها عن قدرته ومشيتته وخلقته ، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون

مشيئة الرب ، فيكون فى ملكه مالا يشاء ، ويشاء مالا يكون تعالى الله عن قول أشباه المجوس علواً كبيراً .

وكذلك ما قدره حق قدره من قال : إنه يعاقب عبده على مالا يفعله العبد ، ولا له عليه قدرة ، ولا تأثير له فيه ألبتة ، بل هو نفس فعل الرب جل جلاله ، فيعاقب عبده على فعله هو سبحانه الذى جبر العبد عليه ، وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق .

وإذا كان من المستقر فى الفطر والعقول أن السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحاً ، فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ، ولا هو واقع بإرادته ، بل ولا هو فعله ألبتة ، ثم يعاقبه عليه عقوبة الأبد ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وقول هؤلاء شر من أقوال المجوس ، والطائفتان ما قدروا الله حق قدره .

وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنه من نتن ولا حش ، ولا مكان يرغب عن ذكره ، بل جعله فى كل مكان ، وصانه عن عرشه أن يكون مستوياً عليه .

﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ (فاطر : ١٠) .

وتعرج الملائكة والروح إليه ، وتنزل من عنده :

﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه﴾

(السجدة : ٥) .

فصانه عن استوائه على سرير الملك ، ثم جعله فى كل مكان يأنف الإنسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه .

وما قدر الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته ولا من نفى حقيقة حكمته التى هى الغايات المحمودة المقصودة بفعله ، ولا من نفى حقيقة فعله ، ولم يجعل له فعلاً اختيارياً يقوم به ، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه ، فنفى حقيقة مجيئه وإتيانه واستوائه على عرشه ، وتكليمه موسى من جانب الطور ، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه ، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله ، التى نفوها وزعموا أنهم بنفياها قد قدروه حق قدر .

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبةً وولداً ، أو جعله سبحانه يحل فى مخلوقاته ، أو جعله عين هذا الوجود .

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال : إنه رفع أعداء رسول الله ﷺ وأعلى ذكرهم ، وجعل فيهم الملك والخلافة والعز ، ووضع أولياء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأهانهم وأذلهم ، وضرب عليهم الذلة أينما ثقفوا . وهذا يتضمن غاية القدح فى جناب الرب تعالى عن قول الرافضة علواً كبيراً .

وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى فى رب العالمين : إنه أرسل ملكاً ظالماً ، فادعى النبوة لنفسه ، وكذب على الله ، ومكث زمناً طويلاً يكذب عليه كل وقت ، ويقول : قال الله كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا وينسخ شرائع أنبيائه ورساله ، ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحریمهم ، ويقول : الله أباح لى ذلك ، والرب تعالى يظهره ويؤيده ويعليه ، ويعزه ويجيب دعواته ، ويمكنه ممن خالفه ، ويقيم الأدلة على صدقه ، ولا يعاديه أحد إلا ظفر به ، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره ، ويحدث أدلة تصديقه شيئاً بعد شيء .

ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن فى الرب سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته ، تعالى عن قول الجاحدين علواً كبيراً .

فوازن بين قول هؤلاء ، وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر :

رضيى لبان ثدى أم تقاسما بأسحم داج عوض لا نتفرق
وكذلك لم يقدره حق قدره من قال : إنه يجوز أن يعذب أوليائه ،
ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الجحيم، وينعم أعداءه، ومن لم يؤمن
به طرفة عين ، ويدخلهم دار النعيم ، وأن كلا الأمرين بالنسبة إليه سواء،
وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك ، فمنعناه للخبر، لا لمخالفة حكمته
وعدله.

وقد أنكر سبحانه في كتابه ، على من جوز عليه ذلك غاية الإنكار ،
وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام .

قال تعالى : ﴿ وما خلقتنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن
الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا
الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾

(ص : ٢٧ ، ٢٨) .

وقال : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين
آمَنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وخلق
الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا
يظلمون ﴾ (الجنات : ٢١ و ٢٢) .

وقال : ﴿ أفجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ﴾

(القلم : ٣٥ و ٣٦) .

وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لا يحيى الموتى ، ولا يبعث

من فى القبور ، ولا يجمع خلقه ليوم يجازى فيه المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، ويأخذ المظلوم فيه حقه من ظالمه ، ويكرم المتحملين للمشاق فى هذه الدار من أجله وفى مرضاته بأفضل كرامته ، ويبين لخلقه الذى يختلفون فيه ، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه ، ونهيه فارتكبه ، وحقه فضيعه ، وذكره فأهمله ، وغفل قلبه عنه ، وكان هواه أثر عنده من طلب رضاه ، وطاعة المخلوق أهم من طاعته ، فلله الفضلة من قلبه وقوله وعمله ، هواه المقدم فى ذلك لأنه المهم عنده ، يستخف بنظر الله إليه ، وإطلاعه عليه وهو فى قبضته ، وناصيته بيده ، ويعظم نظر المخلوق إليه وإطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ، ويستحى من الناس ولا يستحى من الله ، ويخشى الناس ولا يخشى الله ، ويعامل الخلق بأفضل ما يقدر عليه وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره ، وإن قام فى خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة ، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه ، وقدمه على الكثير من مصالحه ، حتى إذا قام فى حق ربه - إن ساعد القدر - قام قياماً لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله ، وبذل له من ماله ما يستحى أن يواجه به مخلوق مثله ، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه ؟ وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه فى محض حقه من

الإجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء ؟

فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكاً فى ذلك لكان ذلك جراءة وتوثباً على محض حقه ، واستهانة به ، وتشريكاً بينه وبين غيره فيما لا ينبغي ولا يصلح إلا له سبحانه فكيف - وإنما شرك بينه وبين أبغض الخلق إليه ، وأهونهم عليه ، وأمقتهم عنده وهو عدوه على الحقيقة - ؟

فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان كما قال تعالى :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنَى آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (يس : ٦٠ و ٦١).

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم فى نفس الأمر للشياطين ، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة .

كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثَمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِينَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ (سبأ : ٤٠ و ٤١).

فالشيطان يدعو المشرك إلى عبادته ويوهمه أنه ملك ، وكذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب ، وهى التى تخاطبهم ، وتقضى لهم الحوائج ، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار ، فيقع سجودهم له ، وكذلك عند غروبها ، وكذلك من عبد المسيح وأمه ، لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان . فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه ، ورضيها لهم وأمرهم بها ، وهذا هو الشيطان الرجيم ، لا عبد الله ورسوله ، فنزل هذا كله على قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنَى آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (يس : ٦٠ و ٦١).

فما عبد أحد من بنى آدم غير الله كائناً من كان إلا وقعت عبادته للشيطان ، فيستمتع العابد بالمعبود فى حصول غرضه ، ويستمتع المعبود بالعابد فى تعظيمه له ، وإشراكه مع الله ، وهو غاية رضى الشيطان ، ولهذا قال تعالى :

﴿ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ﴾
 أى من إغوائهم وإضلالهم ﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع
 بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها
 إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم ﴾ (الأنعام : ١٢٨) .

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذى كان لأجله كان الشرك أكبر الكبائر
 عند الله ، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه ، وأنه يوجب الخلود فى العذاب ،
 وأنه ليس تحريره وقبحه لمجرد النهى عنه ، بل يستحيل على الله سبحانه أن
 يشرع لعباده عبادة إله غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ،
 ونعوت جلاله ، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والإلهية والعظمة والجلال أن
 يأذن فى مشاركته فى ذلك أو يرضى به ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .



فصل

الشرك والكبر

* فلما كان الشرك أكبر شئ من منافاة للأمر الذى خلق الله له الخلق ،
 وأمر لأجله بالأمر ، كان أكبر الكبائر عند الله .

وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم ، فإن الله سبحانه خلق الخلق وأنزل
 الكتاب لتكون الطاعة له وحده ، والشرك والكبر ينافيان ذلك .

وكذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر ، فلا يدخلها من كان
 فى قلبه مثقال ذرة من كبر .



فصل

القول على الله بغير علم

* ويلى ذلك فى كبر المفسدة : القول على الله بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله ، ووصفه بضد ما وصف به نفسه، ووصفه به رسول الله ﷺ فهذا أشد شيء مناقضة ومنافاة لكمال من له الخلق والأمر ، وقدح فى نفس الربوبية وخصائص الرب ، فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثماً عند الله .

فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله ! كما أن من أقر لملك بالملك ، ولم يجحد ملكه ولا الصفات التى استحق بها الملك ، لكن جعل معه شريكاً فى بعض الأمور يقربه إليه، خير من جحد صفات الملك ، وما يكون به ملكاً ، وهذا أمر مستقر فى سائر الفطر والعقول ، فأين القدح فى صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب إليه بعبادة تلك الواسطة إعظاماً له وإجلالاً ؟

فداء التعطيل هذا؛ الداء العضال الذى لا دواء له ، ولهذا حكى الله عن إمام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربه فوق السموات ، فقال :

﴿ يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً ﴾ (غافر : ٣٦ و ٣٧).

واحتج الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى كتبه على المعطلة بهذه الآية، ولقد ذكرنا لفظه فى غير هذا الكتاب.

والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان ، ولما كانت البدع المضلة جهلاً بصفات الله وتكذيباً بما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسول الله ﷺ عناداً وجهلاً كانت من أكبر الكبائر ، وإن قصرت عن الكفر ، وكانت أحب إلى إبليس من كبائر الذنوب .

كما قال بعض السلف : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها (*) .

وقال إبليس : أهلك بني آدم بالذنوب وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله إلا الله ، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء ، فهم يذنبون ولا يتوبون ، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

ومعلوم أن المذنب إنما ضرره على نفسه ، وأما المبتدع فضرره على النوع ، وفتنة المبتدع في أصل الدين ، وفتنة المذنب في الشهوة ، والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصددهم عنه ، والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكماله ، والمذنب ليس كذلك .

والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة ، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه .



(*) أخرجه اللالكائي في « شرح أصول الاعتقاد » (٢٣٨) من طريق يحيى بن يمان ، عن الثوري من قوله .

وسنده ضعيف لضعف يحيى بن يمان .

فصل

الظلم والعدوان

* ثم لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذى به قامت السماوات والأرض ، وأرسل له سبحانه رسله عليهم الصلاة والسلام، وأنزل كتبه ليقوم الناس به، كان من أكبر الكبائر عند الله ، وكانت درجته فى العظمة بحسب مفسدته فى نفسه ، وكان قتل الإنسان ولده الطفل الصغير الذى لا ذنب له - وقد جبل الله سبحانه القلوب على محبته ورحمته، وعطفها عليهم ، وخص الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة ، فقتله خشية أن يشاركه فى مطعمه ومشربه وماله ، من أقبح الظلم وأشدّه ، وكذلك قتله أبويه اللذين كانا سبب وجوده ، وكذلك قتله ذا رحمه.

وتفاوتت درجات القتل بحسب قبحه، واستحقاق من قتله للسعى فى إبقائه ونصيحته، ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبي .

ويليه من قتل إماماً عادلاً، أو عالماً يأمر الناس بالقسط، ويدعوهم إلى الله سبحانه، وينصحهم فى دينهم ، وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمداً الخلود فى النار وغضب الجبار ، ولعنته وإعداد العذاب العظيم له ، هذا موجب قتل المؤمن عمداً ما لم يمنع منه مانع .

ولا خلاف أن الإسلام الواقع بعد القتل طوعاً واختياراً، مانع من نفوذ ذلك الجزاء ، وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه فيه ؟

فيه قولان للسلف والخلف ، وهما روايتان عن الإمام أحمد .

❑ توبة القاتل .

* والذين قالوا : لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا أنه حق لآدمي لم يستوفه في دار الدنيا ، وخرج منها بظلامته ، فلا بد أن يستوفى له في دار العدل .

قالوا : وما استوفاه الوارث وإنما استوفى محض حقه الذى خيره الله بين استيفائه والعفو عنه ، وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه ؟ وأى استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه ؟

وهذا أصح القولين فى المسألة : أن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث ، وهما وجهان لأصحاب أحمد والشافعى وغيرهما .

ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة ، واستيفاء الوارث ، فإن التوبة تهدم ما قبلها ، والذنب الذى قد جناه قد أقيم عليه حده .

قالوا : وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر ، وهما أعظم إثماً من القتل ، فكيف تقصر عن محو أثر القتل ؟ وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أوليائه ، وجعلهم من خيار عباده ، ودعا الذين أحرقوا أوليائه وفتنهم عن دينهم إلى التوبة ، وقال تعالى :

﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ (الزمر : ٥٣) .

فهذه فى حق التائب وهي تتناول الكفر وما دونه .

قالوا : وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة ؟ هذا معلوم انتفاؤه فى شرع الله وجزائه .

قالوا : وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه ، ولا يمكن تسليمها إلى المقتول ، فأقام الشارع وليه مقامه ، وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى

المقتول ، بمنزلة تسليم المال الذى عليه لوارثه ، فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث .

*** والتحقيق فى المسألة :** أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق : حق لله ، وحق للمقتول ، وحق للولى ، فإذا سلم القاتل نفسه طوعاً واختياراً إلى الولى ندماً على ما فعل ، وخوفاً من الله ، وتوبةً نصوحاً ، سقط حق الله بالتوبة ، وحق الولى بالاستيفاء أو الصلح أو العفو ، وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ، ويصلح بينه وبينه ، فلا يبطل حق هذا ، ولا تبطل توبة هذا .

■ التحلل من الحقوق المالية .

*** وأما مسألة المال :** فقد اختلف فيها ، فقالت طائفة : إذا أدى ما عليه من المال إلى الوارث برئ من عهده فى الآخرة ، كما برئ منها فى الدنيا .

وقالت طائفة : بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة ، وهو لم يستدرك ظلامته بأخذ وارثه له ، فإنه منعه من انتفاعه به طول حياته ، ومات ولم ينتفع به ، وهذا ظلم لم يستدركه ، وإنما ينتفع غيره باستدراكه ، وبنوا على هذا أنه لو انتقل المال من واحد إلى واحد وتعدد الورثة ، كانت المطالبة به للجميع ، لأنه حق كان يجب عليه دفعه إلى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث ، وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد .

وفصل شيخنا - رحمه الله - بين الطائفتين ، فقال : إن تمكن الموروث من أخذ ماله أو المطالبة به فلم يأخذه حتى مات ، صارت المطالبة به للوارث فى الآخرة ، كما هى كذلك فى الدنيا ، وإن لم يتمكن من طلبه

وأخذه ، بل حال بينه وبينه ظلماً وعدواناً ، فالطلب له فى الآخرة .

وهذا التفصيل من أحسن ما يقال ؛ فإن المال إذا استهلكه الظالم على الموروث، وتعذر عليه أخذه منه ، صار بمنزلة عبده الذى قتله قاتل ، وداره التى أحرقها غيره، وطعامه وشرابه الذى أكله وشربه غيره ومثل هذا إنما تلف على الموروث لا على الوارث ، فحق المطالبة لمن تلف على ملكه .

ويبقى أن يقال: فإذا كان المال عقاراً أو أرضاً ، أو أعياناً قائمة باقية بعد الموت فهى ملك الوارث، يجب على الغاصب دفعها إليه كل وقت ، فإذا لم يدفع إليه أعيان ماله، استحق المطالبة بها عند الله تعالى كما يستحق المطالبة بها فى الدنيا ؟

وهذا سؤال قوى لا مخلص منه إلا بأن يقال : المطالبة لهما جميعاً ، كما لو غصب مالاً مشتركاً بين جماعة، استحق كل منهم المطالبة لحقه منه، وكما لو استولى على وقف مرتب على بطون ، فأبطل حق البطون كلهم منه، كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم ، ولم يكن بعضهم أولى بها من بعض ، والله أعلم.



فصل جريمة القتل

* ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة ، قال الله تعالى :

﴿ من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ (المائدة : ٣٢) .

وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس ، وقال : معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم عند الله من إثم قاتل نفس واحدة ، وإنما أتوه من ظنهم أن التشبيه في مقدار الإثم والعقوبة ، واللفظ يدل على هذا ، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه .

وقد قال تعالى :

﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾

(النازعات : ٤٦) .

وقال تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ (الأحقاف : ٣٥) .

وذلك لا يوجب أن لبثهم في الدنيا إنما كان هذا المقدار .

وقال النبي ﷺ : « من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله » (١٧١) أي مع [١٧١] من صلى العشاء في جماعة .

صحيح .

رواه مسلم (٤٥٤/١) ، وأبو داود (٥٥٥) ، والترمذي (٢٢١) من طريق : عبد الرحمن ابن أبي عمرة ، عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - به .

العشاء ، كما جاء فى لفظ آخر . وأصرح من هذا قوله : «من صام رمضان وأتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر» (١٧٢) .

وقوله ﷺ : «من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن» (١٧٣)

ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به ، فيكون قدرهما سواء ، ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلى العشاء والفجر جماعة فى قيام الليل منفعة غير التعب والنصب ، وما أوتى أحد - بعد الإيمان - أفضل من الفهم عن الله ، ورسوله ﷺ ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فإن قيل : ففى أى شىء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة ، وقاتل الناس جميعاً ؟

قيل : فى وجوه متعددة :

[١٧٢] من صام رمضان وأتبعه....

صحيح .

رواه الإمام أحمد (٤١٩/٥) ، ومسلم (٨٢٢/٢) ، والترمذي (٧٥٩) ، وابن ماجه (١٧١٦) من طريق : سعد بن سعيد بن قيس ، عن عمر بن ثابت ، عن أبي أيوب الأنصارى به .

[١٧٣] من قرأ قل هو الله أحد....

صحيح .

رواه مسلم (٥٥٦/١) ، والنسائي فى «اليوم والليلة» (٧٠٦) ، والطحاوي فى «المشكل» (٨٢/٢) وهونفس اللفظ الذي ذكره المصنف من حديث أبي الدرداء - رضى الله عنه - .

أحدها : أن كلاً منهما عاص لله ورسوله ﷺ ، مخالف لأمره ، متعرض لعقوبته ، وكل منهما قد باء بغضب الله ولعنته ، واستحقاق الخلود في نار جهنم ، وإعداده له عذاباً عظيماً ، وإنما التفاوت في درجات العذاب ، فليس إثم من قتل نبياً أو إماماً عادلاً أو عالماً يأمر الناس بالقسط كإثم من قتل من لا مزية له من آحاد الناس .

الثاني : أنهما سواء لاستحقاق إزهاق النفس .

الثالث : أنهما سواء في الجراءة على سفك الدم الحرام ، فإن من قتل نفساً بغير استحقاق ، بل لمجرد الفساد في الأرض أو لأخذ ماله فإنه يجترئ على قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله ، فهو معاد للنوع الإنساني .

ومنها : أنه يسمى قاتلاً أو فاسقاً أو ظالماً أو عاصياً بقتله واحد ، كما يسمى كذلك بقتله الناس جميعاً .

ومنها : أن الله سبحانه جعل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحلمى والسهر ، فإذا أتلّف القاتل من هذا الجسد عضواً فكأنما أتلّف سائر الجسد ، وآلم جميع أعضائه ، فمن أذى مؤمناً واحداً فكأنما أذى جميع المؤمنين ، وفي أذى جميع المؤمنين أذى جميع الناس ، فإن الله يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم ، فإيذاء الخفير إيذاء المخفور ، وقد قال النبي ﷺ :

« لا تقتل نفس ظلماً بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل » (١٧٤) .

[١٧٤] لا تقتل نفس ظلماً بغير حق...

صحيح .

رواه البخاري (١٨٦/٤) ، ومسلم (١٣٠٣/٤-١٣٠٤) ، والترمذي (٢٦٧٣) ، والنسائي (٨١/٧) ، وابن ماجه (٢٦١٦) من طريق : عبد الله بن مرة ، عن مسروق ، عن ابن مسعود به .

ولم يجئ هذا الوعيد في أول زان، ولا أول سارق، ولا أول شارب مسكر، وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل، لأنه أول من سن الشرك، ولهذا رأى النبي ﷺ عمرو بن لحي الخزاعي يعذب بأعظم العذاب في النار، لأنه أول من غير دين إبراهيم عليه السلام.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ﴾ (البقرة: ٤١).

أى: فيقتدى بكم من بعدكم، فيكون إثم كفره عليكم، وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها.

وفى «جامع الترمذى» عن ابن عباس - رضى الله عنهما -، عن النبي ﷺ قال: «يجئ المقتول بالقاتل يوم القيامة، ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخب دماً، يقول: يا رب، سل هذا: فيم قتلنى؟» فذكروا لابن عباس التوبة، فتلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ (النساء: ٩٣).

ثم قال: ما نسخت هذه الآية ولا بدلت وأنى له التوبة؟ (١٧٥)

وقال الترمذى: «هذا حديث حسن».

[١٧٥] يجئ المقتول يوم القيامة ..

صحيح.

له عن ابن عباس طريقان:

الأول: من رواية: شعبة بن سوار، قال: حدثني ورقاء بن عمر، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس به.

أخرجه الترمذى (٣٠٢٩)، والنسائى (٨٧/٧)، وابن عدي في «الكامل» (٢٥٥٣/٧).

=

وقال الترمذى: «حسن غريب».

وفيه أيضاً :

عن نافع قال : نظر عبد الله بن عمر يوماً إلى الكعبة ، فقال :
ما أعظمك ، وأعظم حرمتك ، والمؤمنون عند الله أعظم حرمة
منك (١٧٦) .

هذا حديث حسن .

= يشير بذلك إلى نكارتة .

قلت : فيه ورقاء بن عمر ، وفيه لين وله أغلاط ، وقد خولف في رواية هذا الحديث .
قال الترمذي : «روى بعضهم هذا الحديث عن عمرو بن دينار ، عن ابن عباس نحوه ،
ولم يرفعه» .

والثاني : من رواية عمار الدهني ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن ابن عباس - رضي الله
عنه - به .

أخرجه الإمام أحمد (٢٢/١) ، والنسائي (٦٣/٨) ، وابن ماجه (٢٦٢١) من طريق :
سفيان بن عيينة ، عن عمار الدهني به

قلت : وهذا سند صحيح .

وروى من وجه آخر عن سالم عند الطبري في «التفسير» (١٣٧/٥ - ١٣٨) .

[١٧٦] ما أعظمك ، وأعظم حرمتك ..

ضعيف

رواه الترمذي في «الجامع» (٢٠٣٢) من طريق : الحسين بن واقد ، عن أوفى بن
دلهم ، عن نافع ، عن ابن عمر به .

وفي أوله رواية مرفوعة .

قال الترمذي : «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسين بن واقد» . =

وفى «صحيح البخارى»: عن سمرة بن جندب قال :
أول ما ينتن من الإنسان بطنه ، فمن استطاع منكم أن لا يأكل إلا
طيباً فليفعل ، ومن استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم
أهراقه ، فليفعل (١٧٧) .

وفى «صحيحه» - أيضاً - عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :
«لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً» (١٧٨) .

=قلت : غالباً ما يطلق الترمذى هذا الوصف على المنكر ، والحسين بن واقد قد تفرد
بهذا الخبر ، وهو ممن لا يحتمل تفرده ، وقد لينه الإمام أحمد لكثرة زياداته فى الحديث ،
وثقه ابن معين ، وقال أبو زرعة والنسائى : «ليس به بأس» ، وفى القلب من تفرده شيء .
وله شاهد مرفوع من حديث ابن عمرو - رضى الله عنه - بلفظ :
«ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده
لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ، ماله ودمه ، وأن نظن به إلا خيراً» .
أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٢) ، وفى سنده شيخ ابن ماجه نصر بن محمد بن سليمان
الحمصى ، قال أبو حاتم : «أدرسته ولم أكتب عنه ، وهو ضعيف الحديث لا يصدق» ، فلا
عبرة بعد ذلك بذكر ابن حبان له فى الثقات .
[١٧٧] أول ما ينتن من الإنسان بطنه ..

صحيح .

رواه البخارى (٢٣٥/٤) من طريق : الجريري ، عن أبي تيممة الهجيمي ، قال :
شهدت صفوان وجندباً وأصحابه وهو يوصيهم ... الحديث .
(١٧٨) لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه ...

صحيح .

رواه الإمام أحمد (٩٤/٢) ، والبخارى (١٨٥/٤) من طريق : إسحاق بن سعيد بن
عمرو ، عن أبيه ، عن ابن عمر به .

وذكر البخاري أيضاً : عن ابن عمر قال :
من ورطت الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم
الحرام بغير حله (١٧٩).

وفى «الصحيحين» عن أبي هريرة، يرفعه :
« سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » (١٨٠) .
وفيهما - أيضاً - عنه ﷺ :
« لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » (١٨١).

[١٧٩] من ورطت الأمور ...

صحيح .

رواه البخاري (١٨٥/٤) : حدثني أحمد بن يعقوب ، حدثنا إسحاق ... بالسند
السابق.

[١٨٠] سباب المسلم فسوق ...

صحيح .

رواه الإمام أحمد (٣٨٥/١ و ٤١١ و ٤٣٣ و ٤٥٤) ، والحميدي (١٠٤) ،
والبخاري (١٨/١) ، ومسلم (٨١/١) ، والترمذي (١٩٨٣ ، ٢٦٣٥) ، والنسائي
(١٢٢/٧) من طرق : عن أبي وائل ، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - به .
[١٨١] لا ترجعوا بعدي كفاراً

صحيح .

رواه الإمام أحمد (٣٥٨/٤ و ٣٦٣ و ٣٦٦) ، والبخاري (٣٥/١) ، وغير موضع ،
ومسلم (٨١/١) ، والنسائي (١٢٧/٧) ، وابن ماجه (٣٩٤٢) من طريق : أبي زرعة بن
عمرو بن جرير ، عن جده جرير بن عبد الله البجلي به .
وله شاهدان : أحدهما : عن ابن عمر ، والآخر : عن أبي بكره - رضي الله عنهما - .

وفى « صحيح البخارى » عنه ﷺ : « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً » (١٨٢) .

هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان فى عهده وأمانه ، فكيف عقوبة قاتل عبده المؤمن؟! وإذا كانت امرأة قد دخلت النار فى هرة حبستها حتى ماتت جوعاً وعطشاً فرآها النبى ﷺ فى النار والهرة تخذشها فى وجهها وصدرها ، فكيف عقوبة من حبس مؤمناً حتى مات بغير جرم؟! وفى بعض «السنن» عنه ﷺ :

« لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق » (١٨٣) .



[١٨٢] من قتل معاهداً لم يرح رائحة...

صحيح .

رواه البخاري (١٩٤/٤) ، وابن ماجه (٢٦٨٦) من طريق : مجاهد بن جبر ، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - .

[١٨٣] لزوال الدنيا أهون عند الله ...

ضعيف .

ورد من رواية ثلاثة من الصحابة ، وهم :

عبد الله بن عمرو بن العاص ، وبريدة بن الحصيب ، والبراء بن عازب - رضي الله عنهم - .

فأما حديث ابن عمرو ، فله عنه طريقان :

الأول : من رواية إبراهيم بن المهاجر ، عن إسماعيل السهمي مولى عبد الله بن عمرو ، عنه مرفوعاً بلفظ : «الذي نفسى بيده لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا» .

أخرجه النسائي (٨٢/٧) وأعله بإبراهيم بن المهاجر ، فقال : «ليس بالقوي» . =

.....
= قلت : وشيخه إسماعيل مجهول الحال، تفرد بالرواية عنه إبراهيم بن المهاجر ، ولم يوثقه معتبر ، فلا عبرة بقول الحافظ فيه في «التقريب» : «صدوق» .
الثاني : من رواية شعبة عن يعلى بن عطاء ، عن أبيه ، عن ابن عمرو به .
واختلف فيه على شعبة .

فرواه الترمذي (١٣٩٥) والنسائي (٨٢/٧) من طريق : ابن أبي عدي ، عن شعبة مرفوعاً ، ورواه الترمذي (١٦/٤) ، والنسائي (٨٢/٧) من طريق محمد بن جعفر عن شعبة ، وعند النسائي من طريق آخر عن منصور عن يعلى موقوفاً بنحوه .
وهو الأصح ، وهو ما رجحه الترمذي .
وأما حديث بريدة - رضي الله عنه - :

فأخرجه النسائي (٨٣/٧) من طريق : بشير بن المهاجر ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه مرفوعاً ، بلفظ : « قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا » .
وهو معلول بضعف بشير بن المهاجر .

وأما حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه - :
فأخرجه ابن ماجه (٢٦١٩) : حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا مروان بن جناح ، عن أبي الجهم الجوزجاني ، عن البراء به .
قال البوصيري : «إسناده صحيح ورجاله موثقون» .

قلت : وفيه نظر ، بل ذكر مروان في الإسناد منكر ، وإنما يُعرف الحديث من رواية أخيه روح بن جناح ، وهو ضعيف .

وقد رواه ابن عدي في «الكامل» (١٠٠٤/٣) من طريق غير واحد عن هشام ، من حديث روح ، ومن غير طريق هشام من حديث روح .

والى هذا يشير كلام المزي في «التحفة» ، فإما أن يكون ابن ماجه قد وهم فيه ، وإما أن يكون هشام حدث بهذا الحديث على هذا النحو بعد تغييره .

فصل

جريمة الزنا

* ولما كانت مفسدة الزنى من أعظم المفاسد ، وهى منافية لمصلحة نظام العالم فى حفظ الأنساب ، وحماية الفروج وصيانة الحرمات ، وتوقى ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس ، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته وأمه ، وفى ذلك خراب العالم ، كانت تلى مفسدة القتل فى الكبر ، ولهذا قرنها الله سبحانه بها فى كتابه ورسوله ﷺ فى سننه كما تقدم .

قال الإمام أحمد : ولا أعلم بعد قتل النفس شيئاً أعظم من الزنى .

وقد أكد سبحانه حرمة ، بقوله :

﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب ﴾ (الفرقان : ٦٨ - ٧٠) .

فقرن الزنى بالشرك وقتل النفس ، وجعل جزاء ذلك الخلود فى العذاب المضاعف ، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ، وقد قال تعالى :

﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً ﴾ (الإسراء : ٣٢) .

فأخبر عن فحشه فى نفسه ، وهو القبيح الذى قد تنهى قبحه ، حتى استقر فحشه فى العقول ، حتى عند كثير من الحيوان ، كما ذكر البخارى فى «صحيحه» : عن عمرو بن ميمون الأودى قال : رأيت فى الجاهلية قرداً

زنى بقردة ، فاجتمع القروء عليهما فرجموهما حتى ماتا (١٨٤) .

ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سيلاً ، فإنه سبيل هلكة و بوار واقتنار فى الدنيا ، وعذاب وخزى ونكال فى الآخرة .

ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه ؛ خصه بمزيد ذم .

فقال : ﴿ إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سيلاً ﴾ (النساء : ٢٢) .

وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه ، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه .

فقال : ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ إلى قوله : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾

(المؤمنون : ١ - ٧) .

* وهذا يتضمن ثلاثة أمور : أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين ، وأنه من الملوين ، ومن العادين ، ففاته الفلاح ، واستحق اسم العدوان ، ووقع فى اللوم ، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك .

[١٨٤] رأيت فى الجاهلية قرداً....

صحيح .

رواه البخاري (٣٢٠/٢) : حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا هشيم ، عن حصين ، عن عمرو بن ميمون به .

فإن قيل : نعيم فيه ضعف ، فالجواب : أن صنيع البخاري محمول على تخير ما صح من حديثه .

* ونظير هذا: أنه سبحانه ذم الإنسان ، وأنه خلق هلوغاً لا يصبر على سراء ولا ضراء ، بل إذا مسه الخير منع وبخل ، وإذا مسه الشر جزع ، إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه ، فذكر منهم :

﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾

(المعارج : ٢٩ - ٣١) .

فأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم ، وحفظ فروجهم ، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم ، مطلع عليها .

﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ (غافر : ١٩) .

ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدماً على حفظ الفرج ، فإن الحوادث مبدؤها من البصر ، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر ، فتكون نظرة ، ثم خطرة ، ثم خطوة ، ثم خطيئة .

ولهذا قيل : من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه : اللحظات ، والخطرات ، واللفظات ، والخطوات .

فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة ، ويلزم الرباط على ثغورها ، فمنها يدخل عليه العدو ، فيجوس خلال الديار ، ويتبر ما علا تنبيراً .



فصل مداخل المعاصي

* وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة، فنذكر في كل باب منها فصلاً يليق به .

□ النظرة .

* فأما اللحظات : فهي رائد الشهوة ورسولها ، وحفظها أصل حفظ الفرج ، فمن أطلق بصره أورد نفسه موارد الهلكات .

وقال النبي ﷺ : « لا تتبع النظرة النظرة ، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة » (١٨٥) .

وفى «المسند» عنه ﷺ : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، فمن غص بصره عن محاسن امرأة لله ، أورث الله قلبه حلاوة إلى يوم يلقاه » (١٨٦) . هذا معنى الحديث .

[١٨٥] لا تتبع النظرة النظرة ...

ضعيف .

رواه أبو داود (٢١٤٩) ، والترمذي (٢٧٧٧) ، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٥/٣) من طريق : شريك بن عبد الله ، عن أبي ربيعة الإيادي ، عن ابن بريدة ، عن بريدة مرفوعاً بلفظ : «يا على لا تتبع ...» وسنده ضعيف لجهالة حال الإيادي ، وفيه علة أخرى ، وله طريق آخر ، ذكرتهما في تخريجي لأحاديث «أحكام النساء» لابن الجوزي (١٤٢) .

(١٨٦) النظرة سهم مسموم .

واه .

رواه الحاكم (٣١٣/٤-٣١٤) ، وأبو القاسم الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» =

وقال : « غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم » (١٨٧) ، وقال :
« إياكم والجلوس على الطرقات » قالوا: يا رسول الله، مجالسنا ما لنا بد
منها ، قال: « فإن كنتم لابد فاعلين فأعطوا الطريق حقه » ، قالوا: وما
حقه؟ قال: « غرض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام » (١٨٨) .

= (٣٨) من طريق: إسحاق بن عبد الواحد القرشي ، حدثنا هشيم ، عن عبد
الرحمن بن إسحاق ، عن محارب بن دثار ، عن صلة بن زفر عن حذيفة بن اليمان ،
مرفوعاً به .

قال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .
فتعقبه الذهبي بقوله : « إسحاق واه ، وعبد الرحمن هو الواسطي ضعفوه » .
وقد عزاه الهيثمي في « المجمع » (٦٣/٨) إلى الطبراني من حديث ابن مسعود ، وقال :
« وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطي ، وهو ضعيف » .
قلت: عبد الله إما تصحيف أو سهو ، وإنما هو عبد الرحمن ، وروايته الحديث من
طريق ابن مسعود يدل على الاضطراب .

[١٨٧] غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم ...
منقطع .

رواه الإمام أحمد (٣٢٣/٥) ، وابن حبان (موارد : ١٠٧) ، والحاكم (٣٥٨/٤)
من طريق : المطلب بن عبد الله بن عباد بن الصامت مرفوعاً بلفظ :
« اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة ، اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا
وعدتم ، وأدوا إذا اتتمتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم » .
قال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .
وتعقبه الذهبي بقوله : « فيه إرسال » .

وهو كما قال ، فإن المطلب لم يسمع من عبادة - رضي الله عنه - .

[١٨٨] إياكم والجلوس على الطرقات

=

صحيح .

والنظرة أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان ، فالنظرة تولد
خطرة ، ثم تولد الخطرة فكرة ، ثم تولد الفكرة شهوة ، ثم تولد الشهوة إرادة
ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة ، فيقع الفعل ولا بد ، مالم يمنع منه مانع ،
وفي هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده .

قال الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر	ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت من قلب صاحبها	كمبلغ السهم بين القوس والوتر
والعبد ما دام ذا طرف يقلبه	في أعين الغيد موقوف على الخطر
بسرور مقلته ماضر مهجته	لا مرحبا بسرور عاد بالضرر

* ومن آفات النظر : أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات ، فيرى
العبد ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه ، وهذا من أعظم العذاب ، أن ترى
ما لا صبر لك عن بعضه ، ولا قدرة على بعضه .

قال الشاعر :

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً	لقلبك يوماً ، أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر	عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

=رواه الإمام أحمد (٣/٣٦، ٦١)، والبخاري (٤/٨٦)، ومسلم (٣/١٦٧٥ و
٤/١٧٠)، وأبو داود (٥/٤٨) من طريق: زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي
سميد الخدري به وزاد في آخره :
«والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

وهذا البيت يحتاج إلى شرح ، ومراده : أنك ترى ما لا تصبر عن شيء منه ، ولا تقدر عليه ، فإن قوله : « لا كله أنت قادر عليه » نفى لقدرته على الكل الذى لا ينفى إلا بنفى القدرة عن كل واحد واحد .

كم من أرسل لحظاته فما أقلعت إلا وهو يتشطح بينهن قتيلاً ، كما قيل :

يا ناظراً ما أقلعت لحظاته حتى تشحط بينهن قتيلاً
ولى من أبيات :

مل السلامة فاغتدت لحظاته وقفاً على طلل يظن جميلاً
ما زال يتبع إثره لحظاته حتى تشحط بينهن قتيلاً
* ومن العجب : أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلى المنظور إليه حتى يتبوأ مكاناً من قلب الناظر ، ولى من قصيدة :

يا رامياً بسهام اللحظ مجتهداً أنت القليل بما ترمى فلا تصب
يا باعث الطرف يرتاد الشفاء له احبس رسولك لا يأتيك بالعطب
وأعجب من ذلك : أن النظرة تجرح القلب جرحاً ، فيتبعها جرحاً على جرح ، ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها ، ولى أيضاً فى هذا المعنى :

ما زلت تتبع نظرة فى نظرة فى إثر كل مليحة ومليح
وتظن ذاك دواء جرحك وهو فى الـ تحقيق تجريح على تجريح
فذهبت طرفك باللحاظ وبالبكا فالقلب منك ذبيح أى ذبيح

وقد قيل : إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات .

فصل الخطرة

* وأما الخطرات : فشأنها أصعب ، فإنها مبدأ الخير والشر ، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم ، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه ، ومن غلبته خطراته فهو هواه ونفسه له أغلب ، ومن استهان بالخطرات قاده قهراً إلى الهلكات .

ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير مُنى باطلة .

﴿ كسر اب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه . والله سريع الحساب ﴾ (النور : ٣٩) .

وأخس الناس همة وأوضعهم نفساً : من رضى من الحقائق بالأمانى الكاذبة ، واستجلبها لنفسه وتحلى بها ، وهى لعمر الله رءوس أموال المفلسين ، ومتاجر البطالين وهى قوت النفس الفارغة التى قد قنعت من الوصل بزورة الخيال ومن الحقائق بكواذب الآمال ، كما قال الشاعر :

أمانى من سعدى رواء على الظمآن سقتنا بها سعدى على ظمآن برداً

منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

وهى أضر شئ على الإنسان ، ويتولد منها العجز والكسل ، وتولد التفريط والحسرة والندم ، والمتمنى لما فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه حول صورتها فى قلبه ، وعانقها وضمها إليه ، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره .

وذلك لا يجدى عليه شيئاً ، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن ، يصور فى وهمه صورة الطعام والشراب ، وهو لا يأكل ولا يشرب .

والسكون إلى ذلك واستجلابه يدل على حساسة النفس ووضاعتها،
وإنما شرف النفس وذكاؤها، وطهارتها وعلوها بأن ينفى عنها كل خطرة
لا حقيقة لها، ولا يرضى أن يخطر بها بباله، ويأنف لنفسه منها.

* ثم الخطرات بعد أقسام تدور على أربعة أصول :

خطرات يستجلب بها منافع دنياء .

وخطرات يستدفع بها مضار دنياء .

وخطرات يستجلب بها مصالح آخرة .

وخطرات يستدفع بها مضار آخرة .

فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الأقسام الأربعة ،
فإذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره، وإذا
تزاحمت عليه الخطرات لتزاحم متعلقاتها قدم الأهم فالأهم الذى يخشى
فوته ، وآخر الذى ليس بأهم ولا يخاف فوته .

* بقى قسمان آخران :

أحدهما : مهم لا يفوت .

والثانى : غير مهم ولكنه يفوت .

ففى كل منهما ما يدعو إلى تقديمه ، فهنا يقع التردد والحيرة ، فإن
قدم المهم خشى فوات ما دونه ، وإن قدم ما دونه فاته الاشتغال به عن المهم
، وكذلك يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما ، ولا يحصل أحدهما إلا
بتفويت الآخر .

فهذا موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة ، ومن ههنا ارتفع من

ارتفع، وأنجح من أنجح ، وخاب من خاب ، وأكثر من ترى ممن يعظم عقله
ومعرفته يؤثر غير المهم الذى لا يفوت على المهم الذى يفوت ، ولا تجد
أحداً يسلم من ذلك ، ولكن مستقل ومستكثر .

والتحكيم فى هذا الباب للقاعدة الكبرى التى عليها مدار الشرع
والقدر ، وإليها مرجع الخلق والأمر ، وهى إثبات أكبر المصلحتين وأعلاهما ،
وإن فاتت المصلحة التى هى دونها ، والدخول فى أدنى المفسدتين لدفع ما
هو أكبر منها .

فيفوت مصلحة لتحصيل ما هو أكبر منها ، ويرتكب مفسدة لدفع ما
هو أعظم منها .

❑ خطرات العاقل .

* فخطرات العاقل وفكره لا يجاوز ذلك ، وبذلك جاءت الشرائع ،
ومصالح الدنيا والآخرة لا تقوم إلا على ذلك ، وأعلى الفكر وأجلها
وأنفعها : ما كان لله والدار الآخرة ، فما كان لله فهو أنواع :

أحدها : الفكرة فى آياته المنزلة وتعقلها ، وفهم مراده منها ، ولذلك
أنزلها الله تعالى لا لمجرد تلاوتها ، بل التلاوة وسيلة .

قال بعض السلف : أنزل القرآن ليعمل به ، فاتخذوا تلاوته عملاً .

الثانى : الفكرة فى آياته المشهودة والاعتبار بها ، والاستدلال بها على
أسمائه وصفاته ، وحكمته وإحسانه ، وبره وجوده ، وقد حض الله سبحانه
عباده على التفكير فى آياته وتدبرها وتعقلها وذم الغافل عن ذلك .

الثالث : الفكرة فى آلائه وإحسانه ، وإنعامه على خلقه بأصناف
النعم، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه .

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبه وخوفه ورجاءه، ودوام الفكرة فى ذلك مع الذكر يصبغ القلب فى المعرفة والمحبة صبغة تامة .

الرابع : الفكرة فى عيوب النفس وآفاتنا ، وفى عيوب العمل ، وهذه الفكرة عظيمة النفع وهى باب لكل خير ، وتأثيرها فى كسر النفس الأماره بالسوء ، ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانبعثت ، وصار الحكم لها ، فحيى القلب ، ودارت كلمته فى مملكته ، وبث أمراءه وجنوده فى مصالحه .
الخامس : الفكرة فى واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم كله عليه ، فالعارف ابن وقته ، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها ، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت وإن ضيعه لم يستدركه أبداً .

قال الشافعي رضى الله عنه : صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين أحدهما قولهم : الوقت سيف ، فإن قطعتة وإلا قطعك .
وذكر الكلمة الأخرى : ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل .

فوقت الإنسان هو عمره فى الحقيقة ، وهو مادة حياته الأبدية فى النعيم المقيم ، ومادة معيشته الضنك فى العذاب الأليم ، وهو يمر أسرع من السحاب ، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوباً من حياته ، وإن عاش فيه عاش عيش البهائم ، فإذا قطع وقته فى الغفلة والسهو والأمانى الباطلة ، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة فموت هذا خير له من حياته .

وإذا كان العبد - وهو فى الصلاة - ليس له من صلاته إلا ما عقل

منها فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله .

وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر ، فإما وساوس شيطانية وإما أمانى باطلة ، وخدع كاذبة ، بمنزلة خواطر المصابين فى عقولهم من السكرارى والمحشوشين والموسوسين ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق :

إن كان منزلتى فى الحشر عندكم ما قد لقيت فقد ضيعت أيامى
أمنية ظفرت نفسى بها زمناً واليوم أحسبها أضغاث أحلام

واعلم أن ورود الخاطر لا يضر ، وإنما يضر استدعاؤه ومحدثه ، فالخاطر كالمار على الطريق ، فإن تركته مر وانصرف عنك ، وإن استدعيته سحرك بحديثه خدعه وغروره ، وهو أخف شئ على النفس الفارغة الباطلة ، وأثقل شئ على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة .

وقد ركب الله سبحانه فى الإنسان نفسين : نفساً أماره ، ونفساً مطمئنة ، وهما متعاديتان ، فكل ما خف على هذه ثقل على هذه ، وكل ما التذت به هذه تألمت به الأخرى ، فليس على النفس الأماره أشق من العمل لله ، وإيثار رضاه على هواها ، وليس لها أنفع منه ، وليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله ، وما جاء به داعى الهوى .

وليس عليها شئ أضر منه ، والملك مع هذه عن يمنة القلب ، والشيطان مع تلك عن يسرة القلب ، والحروب مستمرة لا تضع أوزارها إلا أن يستوفى أجلها من الدنيا ، والباطل كله يتحيز مع الشيطان والأماره ، والحق كله يتحيز مع الملك والمطمئنة ، والحرب دول وسجال والنصر مع الصبر ، ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله فله العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وقد حكم الله تعالى حكماً لا يبدل أبداً : أن العاقبة للتقوى ، والعاقبة

للمتقين ، فالقلب لوح فارغ ، والخواطر نقوش تنقش فيه ، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش لوحه ما بين كذب وغرور وخدع ، وأمانى باطلة وسراب لا حقيقة له ؟ فأى حكمة وعلم وهدى ينتقش مع هذه النقوش ؟ وإذا أراد أن ينقش ذلك فى لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع فى محل مشغول بكتابة مالا منفعة فيه ، فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية ، لم تستقر فيه الخواطر النافعة ، فإنها لا تستقر إلا فى محل فارغ ، كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

وهذا كثير من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر ، وأن لا يمكنوا خاطراً يدخل قلوبهم ، حتى تصير القلوب فارغة ، قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها ، وهؤلاء حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء ، فإنهم أخلوا القلوب من أن يطرقها خاطر ، فبقيت فارغة لا شىء فيها ، فصادفها الشيطان خالية ، فبذر فيها الباطل فى قوالب أوهمهم أنها أعلى الأشياء وأشرفها ، وعوضهم بها عن الخواطر التى هى مادة العلم والهدى وإذا خلا القلب عن الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خالياً ، فشغله بما يناسب حال صاحبه ، حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية ، فشغله بإرادة التجريد ، والفراغ من الإرادة التى لا صلاح للعبد ولا فلاح إلا أن تكون هي المستولية على قلبه ، وهى إرادة مراد الله الدينى الأمري الذى يحبه ويرضاه ، وشغل القلب واهتمامه بمعرفته على التفصيل به ، والقيام به وتنفيذه فى الخلق والتطرق إلى ذلك ، والتوصل إليه بالدخول فى الخلق لتنفيذه ، فيضلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم إلى تركه وتعطيله من باب الزهد فى خواطر الدنيا وأسبابها .

وأوهمهم أن كمالهم فى ذلك التجريد والفراغ وهيئات هيهات ،

إنما الكمال فى امتلاء القلب من الخواطر والإرادات والفكر فى تحصيل مرضى الرب تعالى من العبد ومن الناس ، والفكر فى طرق ذلك والتوصل إليه ؛ فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لذلك ، كما أن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت ، والله المستعان .

ولهذا فإن عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - كانت تتزاحم عليه الخواطر فى مرضى الرب تعالى ، فربما استعملها فى صلاته ، وكان يجهز جيشه وهو فى الصلاة ، فيكون قد جمع بين الجهاد والصلاة ، وهذا من باب تداخل العبادات فى العبادة الواحدة .

وهذا باب عزيز شريف ، لا يعرفه إلا صادق حاذق الطلب ، متضلع من العلم ، عالى الهمة ، بحيث يدخل فى عبادة يظفر فيها بعبادات شتى ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .



فصل

اللفظة

* وأما اللفظات : فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة ، بأن لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة فى دينه ، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر : هل فيها ربح وفائدة أم لا ؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها ، وإن كان فيها ربح نظر : هل تفوت بها كلمة أربح منها ؟ فلا يضيعها بهذه ، وإذا أردت أن تستدل على ما فى القلب فاستدل عليه بحركة اللسان ، فإنه يطلعك على ما فى القلب ، شاء صاحبه أم أبى .

قال يحيى بن معاذ : القلوب كالقدور تغلى بما فيها ، وألستها مغارفها .

فانظر إلى الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك بما في قلبه، حلو وحامض، عذب وأجاج، وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه أي كما تطعم بلسانك طعم ما في القدر من الطعام فتدرك العلم بحقيقته، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه، فتذوق ما في قلبه من لسانه، كما تذوق ما في القدر بلسانك.

وفى حديث أنس المرفوع: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه». (١٨٩).

وسئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال :
«الفم والفرج» (١٩٠).

قال الترمذي : «حديث صحيح» .

[١٨٩] لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ...
ضعيف .

وهو مخرّج في تعليقي على كتاب «أحكام النساء» لابن الجوزي (١٤٠).
[١٩٠] الفم والفرج .
صحيح .

رواه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦) من طريق : عبد الله بن إدريس ، حدثني أبي - وعند ابن ماجه : عن أبيه وعمه - عن جده عن أبي هريرة ، قال :
سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ فقال : «تقوى الله وحسن الخلق» وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال : «الفم والفرج» .
قال الترمذي : «هذا حديث صحيح غريب ، وسد الله بن إدريس هو ابن يزيد بن عبد الرحمن الأودي» .

قلت : وهو كما قال من غير طريق عم عبد الله وهو داود بن يزيد فإنه ضعيف .
وقد رواه الإمام أحمد (٤٤٢/٢) من طريق : داود ... بالشرط الثاني من الحديث .

وقد سأل معاذ النبي ﷺ عن العمل الذي يدخله الجنة ، ويباعده من النار؟ فأخبره النبي ﷺ برأسه وعموده وذروة سنامه ، ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قال : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسان نفسه ثم قال : «كف عليك هذا»، فقال : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس على وجوههم - أو على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم» (١٩١) قال الترمذي : «حديث حسن صحيح».

* ومن العجب: أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر ، ومن النظر المحرم وغير ذلك ، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه ، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة ، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقى لها بالاً ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب ، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ، ولسانه يفرى فى أعراض الأحياء والأموات ، ولا يبالى ما يقول.

[١٩١] ألا أخبرك بملاك ذلك...

حسن.

وقد روى من طرق عدة ، وأصحها :

ما أخرجه الإمام أحمد (٢٣٦/٥) : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبد الحميد ابن بهرام ، عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ بالشرط الأخير منه.

وسنده حسن ، لحال شهر بن حوشب ، على ما فصلته فى كتابي «التعقيبات والإلزامات». وهو عند الترمذي وابن ماجه من طريق آخر ضعيف .

وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر فيما رواه مسلم في «صحيحه» من حديث جندب بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان؟ فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى على أنى لا أغفر لفلان، قد غفرت له، وأحببت عملك» (١٩٢)، فهذا العابد الذي قد عبد الله ما شاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله.

وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك، ثم قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوى بها في نار جهنم».

وعند مسلم: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها، يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» (١٩٣).

[١٩٢] قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان....

صحيح.

رواه مسلم (٢٠٢٣/٤) من حديث جندب بن عبد الله البجلي - رضي الله عنه -.

[١٩٣] إن العبد ليتكلم بالكلمة...

صحيح.

رواه البخاري (١٢٦/٤)، ومسلم (٢٢٩٠/٤)، والترمذي (٢٣١٤)، والنسائي

في «الكبرى» (تحفة: ٢٩٤/١٠) من طريق: عيسى بن طلحة، عن أبي هريرة به.

وله طرق أخرى عن أبي هريرة - رضي الله عنه -.

وعند الترمذي: من حديث بلال بن الحارث المزني، عن النبي ﷺ:

« إن من أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه» (١٩٤) وكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعيه حديث بلال بن الحارث؟

وفي «جامع الترمذي» - أيضاً - من حديث أنس قال : توفي رجل من الصحابة ، فقال رجل : أبشر بالجنة ، فقال رسول الله ﷺ :

« وما يدريك؟ فلعلة تكلم فيما لا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقصه» (١٩٥)

قال : «حديث حسن» .

[١٩٤] إن من أحدكم ليتكلم...

ضعيف .

رواه الترمذي (٢٣١٩) ، وابن ماجه (٣٩٦٩) من طريق : محمد بن عمرو بن علقمة ، عن أبيه ، عن جده عن بلال بن الحارث .

واختلف فيه على محمد .

فأخرجه مالك (٩٨٥/٢) ، والنسائي في «الكبرى» (تحفة : ١٠٣/٢) من طرق عنه، دون ذكر جده.

قلت : وهذا سند ضعيف على أي وجه كان محفوظاً ، فإن عمرو بن علقمة مجهول الحال ، لم يوثقه إلا ابن حبان.

[١٩٥] وما يدريك

منكر ، وله شاهد صحيح .

رواه الترمذي (٢٣١٦) من طريق: حفص بن غياث ، عن الأعمش ، عن أنس به =

وفي لفظ: إن غلاماً استشهد يوم أحد، فوجد على بطنه صخرة
مربوطة من الجوع، فمسحت أمه التراب عن وجهه، وقالت: هنيئاً لك يا
بني لك الجنة، فقال النبي ﷺ:

« وما يدريك؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضره » .(*)

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، يرفعه:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» (١٩٦).

وفي لفظ لمسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذشهد أمراً
فليتكلم بخير أو ليسكت» (١٩٧).

=وقال: «هذا حديث غريب»، يريد به النكارة.

فقد تفرد به حفص بن غياث، وهو وإن كان ثقة إلا أنه تغير، ولا يحتمل منه
التفرد، ولذا قال الذهبي في «الموقظة» (ص: ٧٧): «وقد يسمى جماعة من الحفاظ
الحديث الذي ينفرد به مثل هشيم، وحفص بن غياث منكرًا».

وكذلك فالأعمش لم يسمع من أنس، فروايته عنه مرسله والله أعلم.

ولكن له شاهد صحيح عند البخاري (٢١٦/١) من حديث خارجة بن زيد بن ثابت،
عن أم العلاء الأنصارية - رضي الله عنها - .

(*) انظر ما قبله.

[١٩٦] من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ...

صحيح .

رواه الإمام أحمد (٢/٢٦٧ و ٢٦٩ و ٤٣٣ و ٤٦٣)، والبخاري (٤/٧٠)، ومسلم
(١/٦٨)، وأبو داود (٥١٥٤)، والترمذي (٢٥٠٠)، وابن ماجه (٣٩٧١) من طرق:
عن أبي هريرة بأطول من اللفظ المذكور.

[١٩٧] انظر ما قبله.

وذكر الترمذي بإسناد صحيح عنه عليه السلام أنه قال:
«من حَسُنَ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» (١٩٨).

[١٩٨] من حسن إسلام المرء...

مرسل .

رواه الترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) من طريق :الأوزاعي ، عن قرة بن عبد الرحمن بن حيويث ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة به .
قال الترمذي : « هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي عليه السلام إلا من هذا الوجه » .

قلت : وقد اختلف فيه على الأوزاعي :

فرواه مالك في «الموطأ» (٩٠٣/٢) - ومن طريقه الترمذي (٢٣١٨) - عن الزهري ، عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، عن النبي عليه السلام مرسلًا .

قال الترمذي : «وهكذا روى غير واحد من أصحاب الزهري ، عن الزهري ، عن علي بن حسين ، عن النبي عليه السلام نحو حديث مالك مرسلًا ، وهذا عندنا أصح من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة ، وعلى بن حسين لم يدرك علي بن أبي طالب» .

قلت : فروايته عن النبي عليه السلام معضلة .

ورواه الإمام أحمد من وجهين آخرين (٢٠١/١) .

الأول : من طريق :شعيب بن خالد ، عن حسين بن علي بن أبي طالب ، مرفوعاً به .

وهذا سند منكر ، شعيب ضعيف ، والحديث محفوظ من حديث علي بن حسين .

والثاني : من طريق : عبد الله بن عمر ، عن الزهري ، عن علي بن حسين ، عن أبيه

به .

وعبد الله بن عمر هو العمري وهو ضعيف ، ولا يحتج به إذا انفرد عن الزهري

=

فكيف إذا خالف مالكاً .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً ، لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: « قل آمنت بالله ثم استقم»، قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه ، ثم قال: « هذا » (١٩٩) والحديث صحيح.

وعن أم حبيبة زوج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال : « كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا أمراً بمعروف ، أو نهياً عن منكر، أو ذكر الله عز وجل » (٢٠٠).

قال الترمذي : «حديث حسن».

= ولكن لطريقه متابعة من أخيه عبيد الله وهو ثقة.
أخرجه الطبراني في «الصغير» (الروض الداني : ١٠٨٠) .
إلا أن الطريق إليه غير محفوظ ، فإن راويه عنه هو قزعة بن سويد الباهلي ، وهو ضعيف .

وله شاهد عند الطبراني في «الصغير» (٨٨٤) من حديث زيد بن ثابت.

وفي سنده محمد بن كثير بن مروان الفلسطيني وهوتالف .

[١٩٩] قل آمنت بالله ثم استقم..

صحيح .

رواه أحمد (٤١٣/٣) و (٣٨٤/٤) ، ومسلم (٦٥/١) ، والترمذي (٢٤١٠) ، والنسائي في «الكبرى» (تحفة : ٢٠/٤) ، وابن ماجه (٣٩٧٢) من حديث سفيان بن عبد الله - رضي الله عنه - .

[٢٠٠] كل كلام ابن آدم عليه لاله ...

ضعيف .

رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢٦١/١/١) ، والترمذي (٢٤١٢) ، وابن السني في «اليوم والليلة» (٥) ، والخطيب في «تاريخه» (٣٢١/١٢ و ٤٣٤) من طريق : محمد ابن يزيد بن خنيس ، قال : سمعت سعيد بن حسان ، قال: حدثني أم صالح ، عن صفية بنت ثبيبة ، عن أم حبيبة به .

وفي حديث آخر : « إذا أصبح العبد ، فإن الأعضاء كلها تكفر
اللسان ، فتقول : اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقممت استقمنا ، وإن
اعوججت اعوججنا » (٢٠١).

وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسه في قوله : يوم حار ، ويوم
بارد ، ولقد رأى بعض الأكابر من أهل العلم في النوم ، فسئل عن حاله؟
فقال : أنا موقوف على كلمة قلتها: ما أحوج الناس إلى غيث ، فقيل لى :
وما يدريك؟ أنا أعلم بمصلحة عبادى.

وقال بعض الصحابة لجاريته يوماً : هاتى السفرة نعبث بها ، ثم قال :
استغفر الله ، ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أخطمها وأزمها إلا هذه الكلمة،
خرجت مني بغير خطام ولا زمام ، أو كما قال.

=قال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن يزيد
ابن خنيس ».

قلت : ابن خنيس عابد ، ولم يوثقه معتبر ، وأم صالح مجهولة ، تفرد بالرواية عنها
سعيد بن حسان ، وقد أخرج هذا الحديث البخاري في « التاريخ » من وجه آخر عن ابن
خنيس مرسلًا ، مما يدل على الاضطراب فيه ، والله أعلم .

[٢٠١] إذا أصبح العبد....

ضعيف .

رواه الإمام أحمد (٩٥/٣-٩٦) ، والترمذي (٢٤٠٧) ، وابن السني (١) من طرق:
عن حماد بن زيد، عن أبي الصهباء الكوفي، عن سعيد بن جبير ، عن أبي سعيد الخدري
به.

واختلف في وقفه ورفع ، وعلى أي وجه ترجح فالسند معلول بجهالة أبي الصهباء
الكوفي فإنه لم يوثقه إلا ابن حبان .

*وأيسر حركات الجوارح: حركة اللسان، وهى أضرها على العبد.
واختلف السلف والخلف: هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الخير
والشر فقط؟ على قولين أظهرهما الأول.

وقال بعض السلف: كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ما كان من الله
وما والاه، وكان الصديق رضى الله عنه يمسك على لسانه ويقول:
هذا أوردنى الموارد.

والكلام أسير، فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره، والله عند
لسان كل قائل.

﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ (ق: ١٨).

*وفى اللسان آفتان عظيمتان: إن خلص من إحداهما، لم يخلص
من الأخرى: آفة الكلام وآفة السكوت، وقد يكون كل منهما أعظم إثماً
من الأخرى في وقتها، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، وراء
مداهن إذا لم يخف على نفسه، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله،
وأكثر الخلق منحرف فى كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين، وأهل
الوسط - وهم أهل الصراط المستقيم - كفوا ألسنتهم عن الباطل؛
وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه فى الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلم
بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلاً أن تضره فى آخرته وإن
العبد ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه
كلها، ويأتى بسيئات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر
الله وما اتصل به.



فصل الخطوة

* وأما الخطوات: فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه ، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خير له ، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة ينويها لله ، فتقع خطاه قربة.

ولما كانت العشرة عشرين : عشرة الرجل ، وعشرة اللسان ، جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ (الفرقان: ٦٣). فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم ، كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله تعالى :

﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ (غافر: ١٩).



فصل

* وهذا كله ذكرناه في مقدمة بين يدي تحريم الفواحش ، ووجوب حفظ الفرج ، وقد قال ﷺ : « أكثر ما يدخل الناس النار : الفم والفرج » (*).

وفي «الصحيحين» عنه ﷺ : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » (٢٠٢)، وهذا الحديث في اقتران الزنى بالكفر وقتل النفس نظير (* سبق تخريجه برقم (١٩٠).

[٢٠٢] لا يحل دم امرئ مسلم إلا ...

صحيح .

رواه البخاري (١٨٨/٤) ، ومسلم (١٣٠٢/٣) ، وأبوداود (٤٣٥٢) ، والترمذي (١٤٠٢) ، والنسائي (٩٠/٧) ، وابن ماجه (٢٥٣٤) من طريق : عبد الله بن مرة ، عن مسروق ، عن ابن مسعود به .

الآية التي في الفرقان ، ونظير حديث ابن مسعود.

وبدأ رسول الله ﷺ بالأكثر وقوعاً ، والذي يليه ، فالزنى أكثر وقوعاً من قتل النفس ، وقتل النفس أكثر وقوعاً من الردة ، وأيضاً فإنه انتقل من الأكبر إلى ما هو أكبر منه ، ومفسدة الزنى مناقضة لصلاح العالم ، فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ، ونكست رؤوسهم بين الناس ، وإن حملت من الزنى ، فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنى والقتل ، وإن حملته على الزوج أدخلت على أهله وأهلها أجنبياً ليس منهم ، فورثهم وليس منهم ، ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم ، إلى غير ذلك من مفاصد زناها.

وأما زنى الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب أيضاً ، وإفساد المرأة المصونة ، وتعريضها للتلف والفساد ، وفي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين ، وإن عمرت القبور في البرزخ والنار في الآخرة ، فكم من الزنى من استحلال الحرمات ، وفوات حقوق ، ووقوع مظالم ؟

* ومن خاصيته : أنه يوجب الفقر ، ويقصر العمر ، ويكسو صاحبه سواد الوجه ، وثوب المقت بين الناس .

* ومن خاصيته أيضاً : أنه يشتت القلب ، ويمرضه إن لم يمته ، ويجلب الهم والحزن والخوف ، ويباعد صاحبه من الملك . ويقربه من الشيطان ، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته ، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها ، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمة قتلت ، كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت .

وقال سعد بن عباد - رضى الله عنه - : لو رأيت رجلاً مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ والله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ، ومن أجل غيرة الله

حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن» (٢٠٣). متفق عليه.
 وفي «الصحيحين» أيضاً عنه ﷺ : « إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار ،
 وغيره الله أن يأتي العبد ما حرم عليه » (٢٠٤).
 وفي «الصحيحين» أيضاً عنه ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل
 ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه العذر
 من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، ولا أحد أحب
 إليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك أثني على نفسه » (٢٠٥).

وفي «الصحيحين» في خطبته ﷺ في صلاة الكسوف أنه قال : « يا أمة
 محمد ، والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته ، يا أمة
 محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، ثم

[٢٠٣] تعجبون من غيرة سعد ...

صحيح .

رواه الإمام أحمد (٢٤٨/٤) ، والبخاري (٢٨٠/٤) ، ومسلم (١١٣٦/٢) من
 طريق : ورأى كاتب المغيرة ، عن المغيرة بن شعبة به .

[٢٠٤] إن الله يغار ...

صحيح .

رواه البخاري (٢٦٤/٣) ، ومسلم (٢١١٥/٤) من حديث عروة بن الزبير ، عن أسماء
 - رضي الله عنها - بنحوه ، ومن حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - به .

[٢٠٥] لا أحد أغير من الله ...

صحيح .

رواه البخاري (٢٦٤/٣) ، ومسلم (٢١١٣/٤) ، والترمذي (٣٥٣٠) ، والنسائي في
 «الكبرى» (تحفة : ٥١/٧) من طريق : عمرو بن مرة ، عن أبي وائل ، عن ابن مسعود به .

رفع يديه ، وقال : اللهم هل بلغت ؟» (٢٠٦).

وفى ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله ، وظهور الزنى من أمارات خراب العالم ، وهو من أشراط الساعة ، كما فى «الصحيحين» عن أنس بن مالك ، أنه قال : لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكموه أحد بعدى ، سمعته من النبي ﷺ يقول : «من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنى ، ويقل الرجال ، وتكثر النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد» (٢٠٧).

وقد جرت سنة الله سبحانه فى خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله سبحانه وتعالى ويشتد غضبه ، فلا بد أن يؤثر غضبه فى الأرض عقوبة.

قال عبد الله بن مسعود :

ما ظهر الربا والزنى فى قرية إلا أذن الله بإهلاكها.

[٢٠٦] يا أمة محمد...

صحيح.

رواه البخاري (١٨٤/١) ، ومسلم (٦١٨/٢) ، والنسائي (١٣٢/٣) من طريق :

مالك ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة به .

وانظر طرقة فى كتابي «صفة خطبة النبي ﷺ» (ص : ٥٤-٥٥).

(٢٠٧) من أشراط الساعة أن يرفع العلم ..

صحيح.

رواه الإمام أحمد (١٧٦/٣) و٢٠٢ و٢١٣ و٢٧٣ ، و البخاري (فتح : ١٤٥/١) ،

ومسلم (٢٠٥٦/٤) ، والترمذي (٢٢٠٥) ، والنسائي فى «الكبرى» (٢٣٢/١) من طريق :

قنادة ، عن أنس - رضى الله عنه - به .

ورأى بعض أحبار بنى إسرائيل ابنه يغمز امرأة ، فقال : مهلاً يا بني ،
فصرع الأب عن سريره ، فانقطع نخاعه ، وأسقطت امرأته ، وقيل له :
هكذا غضبك لي ؟ لا يكون في جنسك خير أبداً .

وخص سبحانه حد الزنى من بين الحدود بثلاث خصائص :

أحدها : القتل بأشنع القتلات ، وحيث خففه جمع فيه بين العقوبة
على البدن بالجلد ، وعلى القلب بتفريجه عن وطنه سنة .

الثانية : أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه ، بحيث
تمنعهم من إقامة الحد عليهم ، فإنه سبحانه من رأفته ورحمته بهم شرع
هذه العقوبة فهو أرحم بكم ، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة ،
فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره .

هذا- وإن كان عاماً في سائر الحدود- ولكن ذكر في حد الزنى
خاصة ، لشدة الحاجة إلى ذكره ، فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من
الغلظة والقسوة على الزانى ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب
الخمز ، فقلوبهم ترحم الزانى أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم ،
والواقع شاهد بذلك ، فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل
حد الله .

* وسبب هذه الرحمة : أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط
والأراذل ، وفي النفوس أقوى الدواعى إليه ، والمشارك فيه كثير ، وأكثر
أسبابه العشق ، والقلوب مجبولة على رحمة العاشق ، وكثير من الناس
يعد مساعدته طاعة وقربة ، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه ،
ولا يستنكر هذا الأمر ، فإنه مستقر عند ما شاء الله من أشباه الأنعام ،
ولقد حكى لنا من ذلك شيئاً كثيراً نقاص العقول كالخدام والنساء .

وأيضاً فإن هذا ذنب غالباً ما يقع مع التراضى من الجانبين ، ولا يقع فيه من العدوان والظلم والاعتصاب ما تنفر النفوس منه .

وفى النفوس شهوة غالبية له ، فيصور ذلك لها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد ، وهذا كله من ضعف الإيمان ، وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله ، ورحمة يرحم بها المحدود ، فيكون موافقاً لربه تعالى فى أمره ورحمته .

الثالثة: أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين ، فلا يكون فى خلوة بحيث لا يراهما أحد ، وذلك أبلغ فى مصلحة الحد وحكمة الزجر .

وحد المحصن مشتق من عقوبة الله تعالى لقوم لوط بالقذف بالحجارة ، وذلك لاشتراك الزنى واللواط فى الفحش ، وفى كل منهما فساد يناقض حكمة الله فى خلقه وأمره ، فإن فى اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد ، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى ، فإنه يفسد فساداً لا يرجى له بعده صلاح أبداً ، ويذهب خيره كله ، وتمض الأرض ماء الحياء من وجهه ، فلا يستحيى بعد ذلك من الله ولا من خلقه ، وتعمل فى قلبه وروحه نطفة الفاعل ، ما يعمل السم فى البدن .

* وقد اختلف الناس : هل يدخل الجنة مفعول به ؟ على قولين ، سمعت شيخ الإسلام يحكيهما .

«والذين قالوا : لا يدخل الجنة احتجاجاً بأمور :

منها : أن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة ولد زنية » (٢٠٨) .

[٢٠٨] لا يدخل الجنة ولد زنا

ضعيف وهو مخرج فى كتابنا « صون الشرع الخفيف » .

فإذا كان هذا حال ولد الزنى مع أنه لا ذنب له في ذلك، ولكنه مظنة كل شر وخبيث، وهو جدير أن لا يجيء منه خير أبداً، لأنه مخلوق من نطفة خبيثة، وإذا كان الجسد الذى تربى على الحرام النار أولى به، فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام؟

* قالوا : والمفعول به شر من ولد الزنى ، وأخزى وأخبت وأوقح، وهو جدير أن لا يوفق لخير وأن يحال بينه وبينه ، وكلما عمل خيراً قبيض الله له ما يفسده عقوبة له ، وقل أن ترى من كان كذلك فى صغره إلا وهو فى كبره شر مما كان ، ولا يوفق لعلم نافع ، ولا عمل صالح، ولا توبة نصوح.

* والتحقيق فى المسألة أن يقال : إن تاب المبتلى بهذا البلاء وأتاب ، ورزق توبة نصوحاً ، وعمل صالحاً ، وكان فى كبره خيراً منه فى صغره ، وبذل سيئاته بحسنات ، وغسل عار ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات ، وغض بصره ، وحفظ فرجه عن المحرمات ، وصدق الله فى معاملته ، فهذا مغفور له ، وهو من أهل الجنة ، فإن الله يغفر الذنوب جميعاً ، وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب ، حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه والسحر والكفر وغير ذلك ، فلا تقصر عن محو هذا الذنب ، وقد استقرت حكمة الله تعالى به عدلاً وفضلاً أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له (*) .

وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنى أن يبدل سيئاته حسنات ، وهذا حكم عام لكل تائب من كل ذنب .
وقد قال تعالى :

﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (الزمر : ٥٣) .

(*) حديث ضعيف ورد من رواية جماعة من الصحابة وقد خرجته فى كتابي «صون الشرع الحنيف» يسر الله إخراجه.

فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد، ولكن هذا فى حق التائبين خاصة.

وأما المفعول به إن كان فى كبره شراً مما كان فى صغره؛ لم يوفق لتوبة نصوح، ولا لعمل صالح، ولا استدراك ما فات، ولا إبدال السيئات بالحسنات، فهذا بعيد أن يوفق عند الممات الخاتمة يدخل بها الجنة، عقوبة له على عمله، فإن الله سبحانه وتعالى يعاقب على السيئة بسيئة أخرى، وتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض، كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى.

وإذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة، عقوبة لهم على أعمالهم السيئة.

* قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي

- رحمه الله - :

واعلم أن لسوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - أسباباً، ولها طرق وأبواب، أعظمها الانكباب على الدنيا، والإعراض عن الأخرى، والإقدام والجراءة على معاصى الله عز وجل، وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجراءة والإقدام، فملك قلبه، وسبى عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجحت فيه موعظة، فربما جاءه الموت على ذلك، فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبين المراد، ولا علم ما أراد، وإن كرر عليه الداعي وأعاد.

قال : ويروى أن بعض رجال الناصر نزل الموت به، فجعل ابنه يقول: قل لا إله إلا الله، فقال : الناصر مولاي، فأعاد عليه القول، فأعاد مثل ذلك، ثم أصابته غشية، فلما أفاق قال : الناصر مولاي، وكان هذا دأبه، كلما قيل له: قل لا إله إلا الله، قال : الناصر مولاي، ثم قال لابنه : يا فلان، الناصر إنما يعرفك بسيفك، والقتل القتل، ثم مات.

* قال عبد الحق : وقيل لآخر - ممن أعرفه - قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول : الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا ، والبستان الفلاني افعلوا فيه كذا .
قال : وفيما أذن لى أبو طاهر السلفى أن أحدث به عنه : أن رجلا نزل به الموت ، فقيل له : قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول بالفارسية : ده يازده ده وازده ، تفسيره : عشرة بأحد عشر .

وقيل لآخر : قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول : أين الطريق إلى حمام منجاب ؟

قال : وهذا الكلام له قصة ، وذلك أن رجلا كان واقفاً بإزاء داره ، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام ، فمرت به جارية لها منظر ، فقالت : أين الطريق إلى حمام منجاب ؟ فقال : هذا حمام منجاب ، فدخلت الدار ودخل وراءها ، فلما رأت نفسها فى داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشرى والفرح باجتماعها معه ، وقالت له : يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا ، وتقر به عيوننا ، فقال لها : الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين ، وخرج وتركها فى الدار ولم يغلقها ، فأخذ ما يصلح ورجع ، فوجدها قد خرجت وذهبت ، ولم تخنه فى شيء ، فهام الرجل وأكثر الذكر لها ، وجعل يمشى فى الطرق والأزقة ويقول :

يا رب قاتلة يوماً ، وقد تعبت كيف الطريق إلى حمام منجاب ؟

فبينما هو يوماً يقول ذلك ، إذا بجارية أجابته من طاق :

هلا جعلت سريعاً إذ ظفرت بها حرزا على الدار أو قفلا على الباب

فازداد هيمانه واشتد ، ولم يزل على ذلك ، حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا .

ولقد بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح ، فلما أصبح قيل له : كل هذا خوفاً من الذنوب ؟! فأخذ تبنة من الأرض ، وقال :

الذنوب أهون من هذا، وإنما أبكى من خوف سوء الخاتمة .

وهذا من أعظم الفقه : أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنی .

وقد ذكر الإمام أحمد: عن أبي الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمى عليه ثم يفيق ويقرأ : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ (الأنعام : ١١٠) .

فمن هذا خاف السلف من الذنوب ، أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحسنی .

قال : واعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله تعالى منها - لا تكون لمن استقام ظاهره وصلاح باطنه ، ما سمع بهذا ولا علم به ولله الحمد ، وإنما تكون لمن له فساد في العقد أو إصرار على الكبائر وإقدام على العظائم ، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة ، فيأخذه قبل إصلاح الطوية، ويصطلم قبل الإنابة فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة ، ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله .

قال : ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجداً للأذان والصلاة ، وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة ، فرقى يوماً المنارة على عادته للأذان ، وكان تحت المنارة دار لنصراني ، فاطلع فيها ، فرأى ابنة صاحب الدار، فافتتن بها ، فترك الأذان ونزل إليها ، ودخل الدار عليها ، فقالت له : ما شأنك وما تريد ؟ قال : أريدك ، فقالت : لماذا ؟ قال : لقد سبيت لبي ،

وأخذت بمجامع قلبي ، قالت : لا أجيبك إلى ريبة أبداً ، قال : أتزوجك ؟
قالت : أنت مسلم وأنا نصرانية وأبى لا يزوجني منك ، قال : أتنصر ، قالت :
إن فعلت أفعل ، فتنصر الرجل ليتزوجها ، وأقام معهم في الدار ، فلما كان
في أثناء ذلك اليوم ، رقى إلى سطح كان في الدار فسقط منه فمات ، فلم
يظفر بها ، وفاته دينه .

قال : ويروى أن رجلاً علق شخصاً فاشتد كلفه به ، وتمكن حبه من
قلبه ، حتى وقع ألماً به ، ولزم الفراش بسببه ، وتمنع ذلك الشخص عليه ،
واشتد نفاره عنه ، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده بأن يعود ،
فأخبره بذلك الناس ، وفرح واشتد فرحه وانجلي غمه ، وجعل ينتظره
للميعاد الذي ضرب له ، فبينما هو كذلك إذا جاءه الساعي بينهما ، فقال :
إنه وصل معي إلى بعض الطريق ورجع ، ورغبت إليه وكلمته ، فقال : إنه
ذكرني وفرح بي ، ولا أدخل مدخل الريبة ، ولا أعرض نفسي لمواقع التهم ،
فعاودته فأبى وانصرف ، فلما سمع البائس أسقط يده ، وعاد إلى أشد مما
كان به ، وبدت عليه علائم الموت ، فجعل يقول في تلك الحال :

أسلم يا راحة العليل

ويا شفا المدنف النحيل

رضاك أشهى إلى فؤادي

من رحمة الخالق الجليل

فقلت له : يا فلان اتق الله ، قال : قد كان ، فقامت عنه ، فما
جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت ، فعيّذاً بالله من سوء العاقبة ،
وشؤم الخاتمة .



فصل

عقوبة اللواط

* ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد ؛ كانت عقوبته فى الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات .

* وقد اختلف الناس : هل هو أغلظ عقوبة من الزنى ، أو الزنى أغلظ عقوبة منه ، أو عقوبتهما سواء ؟ على ثلاثة أقوال :

❦ فذهب أبو بكر الصديق، وعلى بن أبى طالب ، وخالد بن الوليد، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وجابر بن زيد، وعبد الله بن معمر، والزهرى، وربيعة بن أبى عبد الرحمن ، ومالك، وإسحاق بن راهويه ، والإمام أحمد - فى أصح الروايتين عنه - ، والشافعى فى أحد قوليه - : إلى أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزنى ، وعقوبته القتل على كل حال ، محصناً كان أو غير محصن .

❦ وذهب عطاء بن أبى رباح ، والحسن البصرى ، وسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعى، وقتادة، والأوزاعى، والشافعى - فى ظاهر مذهبه - ، والإمام أحمد - فى الرواية الثانية عنه - وأبو يوسف ، ومحمد : إلى أن عقوبته وعقوبة الزنى سواء .

❦ وذهب الحاكم، وأبو حنيفة: إلى أن عقوبته دون عقوبة الزانى ، وهى التعزير .

قالوا : لأنه معصية من المعاصى لم يقدر الله ولا رسول الله ﷺ فيها حداً مقدراً ، فكان فيها التعزير ، كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير .

قالوا : ولأنه وطء فى محل لا تشتهيه الطباع ، بل ركبها الله تعالى

على النفرة منه ،حتى الحيوان البهيم ، فلم يكن فيه حد كوطء الأتان وغيرها.

قالوا : ولأنه لا يسمى زانياً لغةً ولا شرعاً ولا عرفاً ، فلا يدخل فى النصوص الدالة على حد الزانين .

قالوا : وقد رأينا قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازع منها طبيعياً اكتفى بذلك الوازع من الحد ، وإذا كان فى الطباع تقاضيهما جعل فيها الحد بحسب اقتضاء الطباع لها ، ولهذا جعل الحد فى الزنى والسرقة وشرب المسكر دون أكل الميتة والدم ولحم الخنزير .

قالوا : وطرد هذا ، أنه لا حد فى وطء البهيمة ولا الميتة ، وقد جبل الله سبحانه الطباع على النفرة من وطء الرجل رجلاً مثلاً أشد نفرة ، كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه بخلاف الزنى ، فإن الداعى فيه من الجانبين .

قالوا : ولأن أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد ، كما لو تساحقت المراتان ، واستمتعت كل واحدة منهما بالأخرى .

قال أصحاب القول الأول : وهو جمهور الأمة ، وحكاه غير واحد إجماعاً للصحابة ، ليس فى المعاصى أعظم مفسدة من هذه المفسدة ، وهى تلى مفسدة الكفر ، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

قالوا : ولم يتل الله سبحانه بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحداً من العالمين ، وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أحداً غيرهم ، وجمع عليهم من أنواع العقوبات بين الإهلاك ، وقلب ديارهم عليهم والخسف بهم ،

ورجمهم بالحجارة من السماء ، فنكل بهم نكالاً لم ينكله أمة سواهم وذلك لعظيم مفسدة هذه الجريمة التى تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عملت عليها ، وتهرب الملائكة إلى أقطار السماوات والأرض إذا شاهدوها ، خشية نزول العذاب على أهلها ، فيصيبهم معهم ، وتعج الأرض إلى ربها تبارك وتعالى ، وتكاد الجبال تزول عن أماكنها ، وقتل المفعول به خير له من وطنه ، فإنه إذا وطنه قتله قتلاً لا ترجى الحياة معه ، بخلاف قتله فإنه مظلوم شهيد أو ربما ينتفع به فى آخرته .

قالوا : والدليل على هذا : أن الله سبحانه جعل حد القاتل إلى خيرة الولي ، إن شاء قتل ، وإن شاء عفا ، وحتم قتل اللوطي حداً ، كما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، ودلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة التى لا معارض لها ، بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين رضى الله عنهم أجمعين .

❦ وقد ثبت عن خالد بن الوليد :

أنه وجد فى بعض ضواحي العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة ، فكتب إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فاستشار أبو بكر الصديق الصحابة رضى الله عنهم ، فكان على بن أبى طالب أشدهم قولاً فيه فقال : ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة ، وقد علمتم ما فعل الله بها ، أرى أن يحرق بالنار ، فكتب أبو بكر إلى خالد فحرقه (٢٠٩).

[٢٠٩] أثر خالد بن الوليد - رضى الله عنه - .

مرسل .

رواه ابن أبى الدنيا فى « ذم الملاحى » (١٤٥) - ومن طريقه البيهقى فى « الشعب » (٣٥٧/٤) ، وابن الجوزى فى « ذم الهوى » (ص: ١٦٣) - من طريق : داود بن بكر ، عن محمد بن المنكدر ، عن خالد به .

=

❦ وقال عبد الله بن عباس :

ينظر أعلى بناء في القرية ، فيرمى اللوطى منها منكباً ، ثم يتبع بالحجارة (٢١٠).

وأخذ عبد الله بن عباس هذا الحد من عقوبة الله قوم لوط ، وابن عباس هو الذى روى عن النبى ﷺ أنه قال :
«من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به». (٢١١)

رواه أهل السنن، وصححه ابن حبان وغيره ، واحتج الإمام أحمد بهذا الحديث ، وإسناده على شرط البخارى .

= قلت : وهذا سند معضل ، فإن ابن المنكدر لم يسمعه من خالد ، وإنما سمعه من صفوان بن سليم ، كما فى رواية البيهقى فى « الكبرى » (٢٣٢/٨).
قال البيهقى: « هذا مرسل ».
قلت : صفوان لم ير أحداً من الصحابة إلا أبا أمامة وعبد الله بن بسر فيما ذكر أبو داود السجستانى .

[٢١٠] ينظر أعلى بناء فى القرية . . .

صحيح.

أخرجه ابن أبى شيبة (٤٩٦/٥) ، والبيهقى فى « الكبرى » (٢٣٢/٨) ، وابن أبى الدنيا فى « ذم الملاحى » (١٣٠) بسند صحيح.

[٢١١] من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط..

منكر..

وقد توسعت فى الكلام عليه فى كتابى « صون الشرع الحنيف ».

وقالوا : وثبت عنه ﷺ أنه قال :

« لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط » (٢١٢).

ولم يجئ عنه ﷺ لعنة الزاني ثلاث مرات في حديث واحد ، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر ، فلم يتجاوز بهم في اللعن مرة واحدة ، وكرر لعن اللوطية ، وأكد ثلاث مرات ، وأطبق أصحاب رسول الله ﷺ على قتله ، لم يختلف فيه منهم رجلان ، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله ، فظن الناس أن ذلك اختلاف منهم في قتله ، فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة ، وهي بينهم مسألة إجماع لا مسألة نزاع .

قالوا :

ومن تأمل قوله سبحانه :

﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ (الإسراء : ٣٢).

[٢١٢] لعن الله من عمل عمل قوم لوط...

ضعيف.

رواه أحمد (١٨٧٥ و ٢٨١٧ و ٢٩١٥ و ٢٩١٦ و ٢٩١٧) ، والنسائي في « الكبرى » (٣٢٢/٤) ، وابن حبان (٥٣) ، والطبراني في « الكبير » (٢١٨/١١) ، والحاكم (٣٥٦/٤) والبيهقي في « الكبرى » (٢٣١/٨) من طريق : عمرو بن أبي عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس به ، وفي أوله زيادة ، إلا عند النسائي .

وفيه عمرو بن أبي عمرو وهو متكلم فيه من جهة حفظه ، ومن جهة روايته عن عكرمة ، وقد توسعت في الكلام عليه في « ذم الملامى » لابن أبي الدنيا (ص : ١١٠).

وقوله فى اللواط :

﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾

(الأعراف : ٨٠).

تبين له تفاوت ما بينهما ، وأنه سبحانه نكر الفاحشة فى الزنى ، أى هوفاحشة من الفواحش ، وعرفها فى اللواط ، وذلك يفيد أنه جامع لمعانى اسم الفاحشة كما تقول زيد الرجل ، ونعم الرجل زيد ، أى: أتأتون الخصلة التى استقر فحشها عند كل أحد ، فهى لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها ، بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها ، وهذا نظير قول فرعون لموسى :

﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت ﴾ (الشعراء : ١٩).

أى الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد .

ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم ، فقال : ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ ثم زاد فى التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب ، وتنبو عنه الأسماع ، وتنفر منه الطباع أشد نفرة ، وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه كما ينكح الأنثى ، فقال :

﴿ إنكم لتأتون الرجال ﴾ (الأعراف : ٨١).

ثم نبه عن استغنائهم عن ذلك ، وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التى لأجلها مال الذكر إلى الأنثى ، من قضاء الوطر ولذة الاستمتاع ، وحصول المودة والرحمة التى تنسى المرأة لها أبويها ، وتذكر بعلمها ، وحصول النسل الذى هو حفظ هذا النوع الذى هو أشرف المخلوقات ، وتحصين المرأة وقضاء وطرها ، وحصول علاقة المصاهرة التى

هى أخت النسب ، وقيام الرجال على النساء ، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين ، ومكاثرة النبى ﷺ الأنبياء بأمته إلى غير ذلك من مصالح النكاح ، والمفسدة التى فى اللواط تقاوم ذلك كله ، وتربى عليه بما لا يمكن حصر فسادة ولا يعلم تفصيله إلا الله .

ثم أكد قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التى فطر الله عليها الرجال ، وقلبوا الطبيعة التى ركبها الله فى الذكور ، وهى شهوة النساء دون الذكور ، فقلبوا الأمر ، وعكسوا الفطرة والطبيعة ، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء ، ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم ، فجعل عاليها سافلها ، وكذلك قلوبهم ، ونكسوا فى العذاب على رؤوسهم .

ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد فقال : ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ (الأعراف : ٨١) .

فتأمل : هل جاء مثل ذلك أو قريب منه فى الزنى ؟

وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله :

﴿ ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ﴾ (الأنبياء : ٧٤) .

ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين فى غاية القبح فقال :

﴿ إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ (الأنبياء : ٧٤) .

وسماهم مفسدين فى قول نبيهم :

﴿ رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾ (العنكبوت : ٣٠) .

وسماهم ظالمين فى قول الملائكة لإبراهيم :

﴿ إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ﴾

(العنكبوت : ٣١) .

* فتأمل: من عوقب بمثل هذه العقوبات ، ومن ذمه الله بمثل هذه المذمات ، ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة ، وقد أخبروه بإهلاكهم قيل له :

﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ (هود : ٧٦).

وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاءوا نبيهم لوطاً لما سمعوا بأنه قد طرده أضياف هم من أحسن البشر صوراً ، فأقبل اللوطية إليه يهرولون ، فلما رآهم قال لهم :

﴿ يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ (هود : ٧٨).

فقدى أضيافه بيناته يزوجهن بهن ، خوفاً على نفسه وأضيافه من العار الشديد . فقال : ﴿ يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ﴾ . فردوا عليه ، ولكن رد جبار عنيد :

﴿ لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾

(هود : ٧٩).

فنفث نبي الله منه نفثة مصدور خرجت من قلب مكروب فقال : ﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ فنفس له رسل الله وكشفوا له عن حقيقة الحال ، وأعلموه أنهم ممن ليسوا يوصل إليهم ، ولا إليه بسبيهم فلا تخف منهم ولا تعبا بهم وهون عليك ، فقالوا : ﴿ يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ وبشروه بما جاءوا به من الوعد له ، ولقومه من الوعيد المصيب ، فقالوا :

﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ (هود: ٨١).

فاستبطأ نبي الله موعد هلاكهم ، وقال : أريد أعجل من هذا ، فقالت الملائكة : ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر ، وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصلها ، ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير ، فبرز المرسوم الذي لا يرد عن الرب الجليل ، إلى عبده ورسوله جبرائيل بأن قلبها عليهم ، كما أخبر به محكم التنزيل ، فقال عز من قائل :

﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ﴾ (هود : ٨٢).

فجعلهم آية للعالمين وموعظة للمتقين ، ونكالاً وسلفاً لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين ، وجعل ديارهم بطريق السالكين .

﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ (الحجر : ٧٥ - ٧٧).

أخذهم على غرة وهم نائمون ، وجاءهم بأسه وهم في سكرتهم يعمهون ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، فقلبت تلك اللذة آلاماً ، فأصبحوا بها يعذبون .

مآرب كانت في الحياة لأهلها عذاباً فصارت في الممات عذاباً

ذهبت اللذات ، وأعقبت الحسرات ، وانقضت الشهوات ، وأورثت الشقوات ، تمتعوا قليلاً ، وعذبوا طويلاً ، رتعوا مرتعاً وخيموا فأعقبهم عذاباً أليماً ، أسكرتهم خمرة تلك الشهوات ، فما استفاقوا منها إلا في ديار

المعذبين ، وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم فى منازل الهالكين ، فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم ، وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم ، فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة ، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم ، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كئوس الحميم ، ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون : ذوقوا ما كنتم تكسبون :

﴿ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ (الطور : ١٦).

ولقد قرب الله مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم فى العمل ، فقال مخوفاً لهم أن يقع الوعيد : ﴿ وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ (هود : ٨٣)

فيأناكحى الذاكرا ن يهنيكم البشرى	فيوم معاد الناس إن لكم أجرا
كلوا واشربوا ، وازنوا ولوطوا وأبشروا	فإن لكم زقاً إلى جهنم الحمرا
فإخوانكم قد مهدوا الدار قبلكم	وقالوا إلينا عجلوا ، لكم البشرى
وها نحن أسلاف لكم فى انتظاركم	سيجمعنا الجبار فى ناره الكبرى
فلا تحسبوا أن الدين نكحتمو	يغيبون عنكم بل ترونهم جهرا
ويلعن كلا منكما بخليله	ويشقى به المحزون فى الكرة الأخرى
يعذب كلا منهما بشريكه	كما اشتركا فى لذة توجب الوزرا



فصل

عقوبة اللواط وعقوبة الزنى

* فى الأجوبة عما احتج به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنى .

* وأما قولهم : إنها معصية لم يجعل الله فيها حداً معيناً ، فجوابه من وجوه :

أحدها : أن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتماً ، وما شرعه رسول الله ﷺ فإنما شرعه عن الله ، فإن أردتم أن حدها غير معلوم بالشرع فهو باطل ، وإن أردتم أنه غير ثابت بنص الكتاب ، لم يلزم من ذلك انتفاء حكمه لثبوته بالسنة .

والثانى : أن هذا ينقض بالرجم ، فإنه إنما ثبت بالسنة .

* فإن قلتم : بل ثبت بقرآن نسخ لفظه ، وبقي حكمه .

قلنا : فينقض عليكم بحد شارب الخمر .

والثالث : أن نفي دليل معين لا يستلزم نفي مطلق الدليل ولا نفي

المدلول ، فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذى نفيتموه غير منتف ؟

* وأما قولكم : إنه وطء فى محل لا تشتهيه الطباع ، بل ركب الله

الطباع على النفرة منه ، فهو كوطء الميتة والبهيمة ؟ فجوابه من وجوه :

أحدها : أنه قياس فاسد الاعتبار ، مردود بسنة رسول الله ﷺ

وإجماع الصحابة كما تقدم بيانه .

والثانى : أن قياس وطء الأمرد الجميل الذى فتنته تربو على كل فتنة ،

على وطء أتان أو امرأة ميتة من أفسد القياس ، وهل يعدل ذلك أحد قط بأتان أو بقرة أو ميتة ، أو سبى ذلك عقل عاشق ، أو أسر قلبه أو استولى على فكره ونفسه ؟ فليس فى القياس أفسد من هذا .

الثالث : أن هذا منتقض بوطء الأم والبنت والأخت ، فإن النفرة الطبيعية عنه حاصلة مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود - فى أحد القولين - وهو القتل بكل حال محصناً كان أو غير محصن ، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد ، وهو قول إسحاق بن راهويه ، وجماعة من أهل الحديث .

وقد روى أبو داود والترمذى من حديث البراء بن عازب قال : «لقيت عمى ومعه الراية فقلت : إلى أين تريد ؟ قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه وأخذ ماله » (٢١٣) .

[٢١٣] بعثنى رسول الله ﷺ إلى رجل نكح..

صحيح

رواه أبو داود (٤٤٥٧)، والنسائي (١١٠/٦) من طريق : زيد بن أبى أنيسة ، عن عدى ابن ثابت ، عن يزيد بن البراء، عن أبيه به .

واختلف فيه على عدى بن ثابت :

فرواه أشعث بن سوار عند الترمذى (١٣٦٢)، والنسائي فى «الكبرى» (تحفة: ١٢٨/١١) ، وابن ماجه (٢٦٠٧) عن عدى بن ثابت، عن البراء به ، دون ذكر يزيد.

قلت : وأشعث بن سوار ضعيف الحديث.

ولكن تابعه عليه : الركين بن الربيع عند النسائي فى «الكبرى» والسدى فى «المجتبى» (١٠٩/٦) .

ورواه أحمد (٢٩٢/٤) : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن ربيع بن ركين

=

بالسند السابق ، فقلب اسمه .

قال الترمذى : « هذا حديث صحيح » .(*)

قال الجوزجاني : « عم البراء اسمه الحارث بن عمرو » .

وفى « سنن أبى داود وابن ماجه » من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من وقع على ذات محرم فاقتلوه » (٢١٤) .

=والربيع بن ركين هذا ترجمه الحافظ فى « التعجيل » (٣٠٣) فقال :

« الربيع بن الركين بن عميلة الفزارى الكوفى » .

وذكر الاختلاف فيه بين أهل العلم ، والتفريق بينه وبين الربيع بن سهل بن ركين .

وترجمه المزى فى « تهذيب الكمال » ، وتبعه الحافظ فى « تهذيب التهذيب » ، فقال :

« الركين بن الربيع بن عميلة » ، وهو الصواب ، وهو ثقة ، وثقه أحمد وابن معين والنسائى ،

خلافاً للربيع بن سهل ، فقد ضعفه النسائى وابن معين وأبو زرعة .

وقد غفل العلامة الألبانى - حفظه الله - عن طريق النسائى الذى فيه التصريح باسمه

الركين بن الربيع ، فقال فى « الإرواء » (٢٠/٨) : « وهو الربيع بن سهل بن الركين » .

قلت : الركين بن الربيع ، وزيد بن أبى أنيسة ثقتان ، إلا أن الإمام أحمد لين زيدا ،

والأصح عندى حديث الركين بن الربيع ، وسنده صحيح ، والله علم .

(*) بل قال فيه : « حسن غريب » يشير بذلك إلى نكارتة ، لأنه من طريق أشعث بن

سوار وهو ضعيف كما مر .

[٢١٤] من وقع على ذات محرم فاقتلوه .

ضعيف جداً .

رواه الترمذى (١٤٦٢) ، وابن ماجه (٢٥٦٤) من طريق : إبراهيم بن إسماعيل بن أبى

حبيبة ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس به ، وفى أوله :

« إذا قال الرجل للرجل يا يهودى ، فاضربوه عشرين ، وإذا قال : يا مخنث ، فاضربوه

عشرين »

قال الترمذى : « هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإبراهيم بن إسماعيل ضعيف

فى الحديث » .

قلت : بل هو ضعيف جداً ، وداود بن الحصين ضعيف فى عكرمة .

ورفع إلى الحجاج رجل اغتصب أخته على نفسها فقال : احبسوه وسلوا من ها هنا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوا عبد الله بن مطرف ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من تخطى حرم المؤمنين فخطوا وسطه بالسيف » (٢١٥).

وفيه دليل على القتل بالتوسيط ، وهذا دليل مستقل في المسألة ، وأن من لا يباح وطؤه بحال فحد وطئه القتل ، دليله : «من وقع على أمه أو ابنته»، وكذلك يقال في وطء ذوات المحارم ، ووطء من لا يباح له وطؤه بحال ، فكان حده القتل كاللوطي .

* **والتحقيق :** أن يستدل على المسألتين بالنص ، والقياس يشهد لصحة كل منهما ، وقد اتفق المسلمون على أن من زنى بذات محرمه فعليه الحد ، وإنما اختلفوا في صفة الحد ، وهل هو القتل بكل حال ، أو حده حد الزاني ، على قولين :

* فذهب الشافعي، ومالك، وأحمد - في إحدى روايتيه - أن حده حد الزنى .

[٢١٥] من تخطى حرم المؤمنين...

منكر.

رواه ابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٢٩٠/٥)، وابن عدى في « الكامل » (١٠٣٦/٣ و ١٥٣٦/٤)، والعقيلي في « الضعفاء » (٢٠١/٢-٢٠٢) من طريق : رفة بن قضاة، عن صالح بن راشد ، عن عبد الله بن مطرف به.

قلت : وهذا سند ضعيف ، بل منكر ، تفرد به رفة عن صالح ، وصالح عن عبد الله ، فأما رفة فضعيف ، وأما صالح ، فذكره العقيلي في « الضعفاء » ، وقال الذهبي في «الميزان» (٢٩٤/٢) : « لا يعرف ، وحديثه منكر ، قال البخاري : لم يصح ».

وعبد الله بن مطرف لا تثبت له صحبة بمثل هذا السند.

* وذهب أحمد، وإسحاق، وجماعة من أهل الحديث إلى أن حده القتل بكل حال .

وكذلك اتفقوا كلهم على أنه لو أصابها باسم النكاح عالماً بالتحريم أنه يحد، إلا أبا حنيفة وحده ، فإنه رأى في ذلك شبهة مسقطة للحد .
ومنازعه يقولون : إذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظاً وشدة ، فإنه ارتكب محذورين عظيمين : محذور العقد ، ومحذور الوطء فكيف تخفف عنه العقوبة بضم محذور العقد إلى محذور الزنى ؟
وأما وطء الميتة ففيه قولان للفقهاء ، وهما في مذهب أحمد وغيره .
أحدهما : يجب به الحد ، وهو قول الأوزاعي ، فإن فعله أعظم جرماً ، وأكبر ذنباً انضم إلى فاحشته هتك حرمة الميتة .



فصل

واطئ البهيمة

* وأما واطئ البهيمة فللفقهاء فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه يؤدب ، ولا حد عليه ، وهذا قول مالك ، وأبى حنيفة والشافعي في أحد قوليهِ ، وهو قول إسحاق .

والقول الثاني : حكمه حكم الزاني ، يجلد إن كان بكراً ، ويرجم إن كان محصناً ، وهذا قول الحسن .

والقول الثالث : أن حكمه حكم اللوطي نص عليه أحمد ، فيخرج على الروايتين في حده ، هل هو القتل حتماً أو هو كالزاني ؟

والذين قالوا : حده القتل احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس ، عن النبي ﷺ : « من أتى بهيمة فاقتلوه ، واقتلوا معها » . (٢١٦)

قالوا : ولأنه وطء لا يباح بحال ، فكان فيه القتل كحد اللوطي .

ومن لم ير عليه حداً قالوا : لم يصح فيه الحديث ، ولو صح لقلنا به ، ولم يحل لنا مخالفته .

قال إسماعيل بن سعيد الشالنجي : سألت أحمد عن الذي يأتي البهيمة ؟ فوقف عندها ، ولم يثبت حديث عمرو بن أبي عمرو في ذلك .

وقال الطحاوي : « الحديث ضعيف ، وأيضاً فراويه ابن عباس ، وقد أفتى بأنه لا حد عليه » ، وقال أبو داود : « وهذا يضعف الحديث » .

[٢١٦] من أتى بهيمة فاقتلوه..

منكر.

وقد ذكرت طرقة في تخريج أحاديث « ذم اللواط » للآجري.

ولا ريب أن الزاجر الطبعى عن إتيان البهيمة أقوى من الزاجر الطبعى
عن التلوط، وليس الأمر أنهما فى طباع الناس سواء ، فإلحاق أحدهما
بالآخر من أفسد القياس كما تقدم .



فصل

اللواط والسحاق

* وأما قياسكم وطء الرجل لمثله على تدالك المرأتين ، فمن أفسد
القياس ، إذ لا إيلاج هناك ، وإنما نظيره مباشرة الرجل الرجل من غير
إيلاج، على أنه قد جاء فى بعض الآثار المرفوعة : « إذا أتت المرأة المرأة
فهما زانيتان » (٢١٧) ، ولكن لا يجب الحد بذلك ، لعدم الإيلاج ، وإن
أطلق عليهما اسم الزنى العام ، كزنى العين واليد والرجل والقم .
* وإذا ثبت هذا : فقد أجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع
المملوك كحكمه مع غيره ، ومن ظن أن تلوط الإنسان بمملوكه جائز ،
واحتج على ذلك بقوله تعالى :

﴿إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾

(المؤمنون : ٦).

[٢١٧] إذا أتت المرأة المرأة..

لم أقف عليه بهذا اللفظ.

ولكن روي بسند ضعيف مرفوعاً : « سحاق النساء زنا بينهن » ، وقد توسعت فى
تخريجه فى تعليقى على كتاب « ذم الملاحى » لابن أبى الدنيا (١٤٧).
وورد بلفظ مقارب : « إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيتان » ، وهو موضوع بهذا اللفظ.
وقد توسعت فى الكلام عليه فى « ذم اللواط » للأجري.

وقاس ذلك على أمتة المملوكة فهو كافر ، يستتاب كما يستتاب
المرتد ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه ، وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه
بمملوك غيره فى الإثم والحكم .



فصل

دواء اللواط

* فإن قيل : فهل مع هذا كله دواء لهذا الداء العضال ؟ ورقية لهذا
السحر القتال ؟ وما الاحتيال لدفع هذا الخبال ؟ وهل من طريق قاصد إلى
التوفيق ؟ وهل يمكن السكران بخمر الهوى أن يفيق ؟ وهل يملك العاشق
قلبه والعشيق قد وصل إلى سويدائه ؟ وهل للطبيب بعد ذلك حيلة فى برئه
من سويدائه ؟ إن لآمه لائم التذ بملامه ذكراً محبوبه ، وإن عذله عاذل أغراه
عذله . وسار به فى طريق مطلوبه ، ينادى عليه شاهد حاله بلسان مقاله :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس	لى متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتى فأهنت نفسى جاهاً	ما من يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم	إذ كان حظى منك حظي منهم
أجد الملامة فى هواك لذيدة	حباً لذكرك فليمنى اللوم

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذى وقع عليه الاستفتاء ،
والدواء الذى طلب له الدواء .

قيل : نعم ، الجواب من رأس : « ما أنزل الله من داء إلا جعل له
دواء ، علمه من علمه وجهله من جهله » (*) .

(*) سبق تخريجه فى أول الكتاب .

والكلام فى دواء داء تعلق القلب بالمحبة الهوائية من طريقين :
أحدهما : حسم مادته قبل حصولها .

والثانى : قلعها بعد نزوله ، وكلاهما يسير على من يسره الله عليه ،
ومتعذر على من لم يعنه الله ، فإن أزمة الأمور بيديه ، فأما الطريق المانع من
حصول هذا الدواء فأمران :

❑ منافع غض البصر .

* أحدهما: غض البصر كما تقدم ، فإن النظرة سهم مسموم من
سهم إبليس، ومن أطلق لحظاته دامت حسراته، وفى غض البصر عدة منافع :
أحدها : أنه امتثال لأمر الله الذى هو غاية سعادة العبد فى معاشه
ومعاده ، فليس للعبد فى دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامرربه تبارك
وتعالى ، وما سعد من سعد فى الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره ، وما شقى
من شقى فى الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره .

الثانية : أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم -الذي لعل فيه
هلاكه- إلى قلبه .

الثالثة : أنه يورث القلب أنساً بالله وجمعه عليه ، فإن إطلاق البصر
يفرق القلب ويشتته ويبعده من الله ، وليس على القلب شىء أضر من
إطلاق البصر ، فإنه يورث الوحشة بين العبد وربّه .

الرابعة : أنه يقوى القلب ويفرحه ، كما أن إطلاق البصر يضعفه
ويحزنه .

الخامسة : أنه يلبس القلب نوراً ، كما أن إطلاقه يلبسه ظلمة ، ولهذا
ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر قال : ﴿ قل للمؤمنين
يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ (النور : ٣٠) .

ثم قال إثر ذلك : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة

فيها مصباح ﴿

(النور : ٣٥).

أى مثل نوره فى قلب عبده المؤمن الذى امتثل لأوامره واجتنب نواهيه، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية ، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان ، فما شئت من بدع وضلالة ، واتباع هوى ، واجتناب هدى وإعراض عن أسباب السعادة ، واشتغال بأسباب الشقاوة فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذى فى القلب ، فإذا نفذ ذلك النور بقى صاحبه كالأعمى الذى يجوس فى حنادس الظلام .

السادسة: أنه يورث فراصة صادقة يميز بها بين الحق والباطل، والصادق والكاذب، وكان شجاع الكرماني يقول: من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشبهات، واغتذى بالحلال، لم تخطئ له فراصة، وكان شجاعاً لا تخطئ له فراصة.

والله سبحانه يجزى العبد على عمله بما هو من جنس عمله، ومن ترك لله شيئاً عوضه الله خيراً منه ، فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضاً عن حبس بصره لله ، ويفتح عليه باب العلم والإيمان ، والمعرفة والفراصة الصادقة المصيبة التى إنما تنال ببصيرة القلب ، وضد هذا ما وصف الله به اللوطيين من العمه الذى هو ضد البصيرة، فقال تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون﴾ (الحجر : ٧٢) .

فوصفهم بالسكرة التى هى فساد العقل ، والعمه الذى هو فساد البصيرة ، فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل ، وعمه البصيرة ، وسكر القلب ، كما قال القائل :

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران
وقال الآخر :

قالوا: جنت بمن تهوى؟ فقلت لهم : العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين .

السابعة : أنه يورث القلب ثباتاً وشجاعةً وقوةً فجمع الله له بين سلطان النصره والحجة، وسلطان القدرة والقوة ، كما في الأثر :

الذى يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله .

و ضد هذا تجد في المتبع لهواه - من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها - ما جعله الله سبحانه فيمن عصاه .

كما قال الحسن : إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين ، إن ذل المعصية في رقابهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه .

وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته، والذل قرين معصيته ، فقال تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ . (المنافقون : ٨) .

وقال تعالى :

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾

(آل عمران : ١٣٩) .

والإيمان قول وعمل ، ظاهر وباطن ، وقال تعالى :

﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ (فاطر : ١٠) .

أى من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح .

وفى دعاء القنوت :

« إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت » . (٢١٨)

ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه ، وله من العز بحسب طاعته ،
ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه ، وله من الذل بحسب معصيته .

الثامنة : أنه يسد على الشيطان مدخله إلى القلب ، فإنه يدخل مع
النظرة وينفذ معها إلى القلب ، أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي ،
فيمثل له صورة المنظور إليه ويزينها ، ويجعلها صنماً يعكف عليه القلب ثم
يَعِدُّهُ ويمنيه ويوقد على القلب نار الشهوة ، ويلقى عليها حطب المعاصي
التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة فيصير القلب في اللهب .

فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التي يجد فيها وهج النار ، وتلك
الزفرات والحرقات ، فإن القلب قد أحاطت به النيران من كل جانب ، فهو
في وسطها كالشاة في وسط التنور ، ولهذا كانت عقوبة أصحاب
الشهوات للصور المحرمة : أن جعل لهم في البرزخ تنور من النار .

وأودعت أرواحهم فيه إلى يوم حشر أجسادهم ، كما أراه الله تعالى
لنبيه ﷺ في المنام في الحديث المتفق على صحته .

التاسعة : أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحة ، والاشتغال بها ،
وإطلاق البصر ينسيه ذلك ، ويحول بينه وبينه ، فينفرط عليه أمره ، ويقع في
اتباع هواه ، وفي الغفلة عن ذكر ربه ، قال تعالى :

(٢١٨) إنه لا يذل من واليت ..

صحيح .

وقد توسعت في الكلام عليه وعلى رواياته في كتابي « صفة فنوت النبي ﷺ »
(ص: ٢٨-٢٩) .

﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾
(الكهف : ٢٨).

وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه .

العاشرة : أن بين العين والقلب منفذاً وطريقاً يوجب انتقال أحدهما عن الآخر ، وأن يصلح بصلاحه ، ويفسد بفساده ، فإذا فسد القلب فسد النظر ، وإذا فسد النظر فسد القلب ، وكذلك في جانب الصلاح ، فإذا خرجت العين وفسدت ، خرب القلب وفسد ، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه ، والأنس به ، والسرور بقربه فيه ، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك ، فهذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر نطلعك على ما وراءها .

■ منع تعلق القلوب .

* **الطريق الثانى المانع من حصول تعلق القلب :** اشتغال القلب بما يصدّه عن ذلك ، ويحول بينه وبين الوقوع فيه ، وهو إما خوف مقلق أو حب مزعج ، فمتى خلا القلب من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب ، أو خوف ما حصوله أضر من فوات هذا المحبوب ، أو محبته ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب ، وفواته أضر عليه من فوات هذا المحبوب ، ولم يجد بداً من عشق الصور .

* **وشرح هذا :** أن النفس لا تترك محبوباً إلا لمحبوب أعلى منه أو خشية مكروه حصوله أضر عليها من فوات هذا المحبوب ، وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين إن فقدهما أو أحدهما لم ينتفع بنفسه .

أحدهما : بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه ،
فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما ، ويحتمل أدنى المكروهين ليخلص من
أعلاهما وهذا خاصة العقل ، ولا يعد عاقلاً من كان بضد ذلك ، بل قد
تكون البهائم أحسن حالاً منه .

الثاني : قوة عزم وصبر يتمكن به من هذا الفعل والترك ، فكثيراً ما
يعرف الرجل قدر التفاوت ، ولكن يأبى له ضعف نفسه وهمته وعزيمته
على أشياء لا تنفع من خسته وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته ، ومثل
هذا لا ينتفع بنفسه ، ولا ينتفع به غيره ، وقد منع الله سبحانه إمامة الدين
إلا من أهل الصبر واليقين ، فقال تعالى ، وبقوله يهتدى المهتدون منهم :

﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾
(السجدة : ٢٤) .

وهذا هو الذي ينتفع بعلمه وينتفع به الناس ، وضده لا ينتفع بعلمه ولا
ينتفع به غيره ، ومن الناس من ينتفع بعلمه في نفسه ولا ينتفع به غيره .

فالأول : يمشى في نوره ، ويمشى الناس في نوره .

والثاني : قد طفئ نوره ، فهو يمشى في الظلمات ومن تبعه في
ظلمته .

والثالث : يمشى في نوره وحده .



فصل

توحيد المحبوب

* إذا عرفت هذه المقدمة : فلا يمكن أن يجتمع فى القلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبداً ، بل هما ضدان لا يتلاقيان ، بل لابد أن يخرج أحدهما صاحبه . فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى الذى محبة ما سواه باطلة وعذاب على صاحبها، صرفه ذلك عن محبة ما سواه . وإن أحبه لم يحبه إلا لأجله ، أو لكونه وسيلة إلى محبته ، أو قاطعاً له عما يضاد محبته وينقصها .

والحبة الصادقة تقتضى توحيد المحبوب ، وأن لا يشرك بينه وبين غيره فى محبته ، وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يشرك معه محبة غيره فى محبته ، ويمقتة لذلك ، ويعده لا يحظيه بقربه ، ويعده كاذباً فى دعوى محبته ، مع أنه ليس أهلاً لصرف كل قوة المحبة إليه ، فكيف بالحبيب الأعلى الذى لا تنبغي المحبة إلا له وحده ، وكل محبة لغيره فهى عذاب على صاحبها ووبال .

ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرك به فى هذه المحبة ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فمحبة الصور تفوت محبة ما هو أنفع للعبد منها ، بل تفوت محبة ما ليس له صلاح ، ولا نعيم ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده ، فليختر العبد إحدى المحبتين فإنهما لا يجتمعان فى القلب ولا يرتفعان منه ، بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه بمحبة غيره ، فيعذبه بها فى الدنيا وفى البرزخ، وفى الآخرة: فلما أن يعذبه بمحبة الأوثان ، أو بمحبة الصليبان ، أو المردان ، أو بمحبة النسوان ، أو محبة العشراء والإخوان

أو محبة ما دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان ، فالإنسان عبد
محبوبه كائناً من كان ، كما قيل :

أنت القتل بكل من أحببتَه فاختر لنفسك في الهوى من تصطفى
فمن لم يكن إلهه مالكة ومولاه كان إلهه هواه ، قال تعالى :

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على
سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا
تذكرون ﴾ (الجاثية : ٢٣) .



فصل

خاصية التعبد

* وخاصية التعبد : الحب مع الخضوع ، والذل للمحبوب ، فمن
أحب محبوباً وخضع له فقد تعبد قلبه له ، بل التعبد أحد مراتب الحب
ويقال له التتيم أيضاً ، فإن أول مراتبه : العلاقة ، وسميت علاقة لتعلق الحب
بالمحبوب .

قال الشاعر :

وعلقت ليلي وهى ذات قوائم ولم يد للأتراب من ثديها حجم

وقال الآخر :

أعلاقة أم الوليد بعد ما أفنان رأسك كالثغام الخلس

ثم بعدها الصباية ، وسميت بذلك لانصباب القلب إلى المحبوب ، قال
الشاعر :

تشكى المحبون الصباية ليتى
تحملت ما يلقون من بينهم وحدى
فكانت لقلبي لذة الحب كلها
فلم يلقيها قبلى محب ولا بعدى
ثم الغرام ، وهو لزوم الحب للقلب لزوماً لا ينفك عنه ، ومنه سمي
الغريم غريماً لملازمته صاحبه ، ومنه قوله تعالى :

﴿ إِنْ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (الفرقان : ٦٥) .

وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ فى الحب ، وقل أن تجده فى
أشعار العرب .

ثم العشق: وهو إفراط المحبة ، ولهذا لا يوصف به الرب تبارك
وتعالى ، ولا يطلق فى حقه .

ثم الشوق: وهو سفر القلب إلى المحبوب أحث السفر .

وقد جاء إطلاقه فى حق الرب تعالى ، كما فى «مسند الإمام أحمد»
عن عمار بن ياسر :

أنه صلى صلاة فأوجز فيها ، فقليل له فى ذلك فقال : أما إني دعوت
فيها بدعوات كان النبي ﷺ يدعو بهن :

« اللهم إني أسألك بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيى إذا
كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى ، اللهم إني
أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب
والرضى ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ،
وأسألك قرّة عين لا تنقطع ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة
النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، فى غير ضراء مضرة ،

ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين » (٢١٩).
وفى أثر آخر : طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم أشد
شوقاً .

وهذا هو المعنى الذى عبر عنه ﷺ بقوله :

« من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » (٢٢٠).

[٢١٩] اللهم إني أسألك بعلمك الغيب..

صحيح.

رواه النسائي (٥٤/٣) : أخبرنا يحيى بن حبيب بن عربى ، قال : حدثنا حماد ، قال :
حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبيه ، قال : صلى بنا عمار... فذكره ، وزاد فيه : « وأسألك
الرضا بعد القضاء » بعد قوله : « وأسألك قرة عين لا تنقطع ».

قلت : وهذا سند صحيح ، فسماع حماد بن زيد من عطاء بن السائب قديم.

وقد رواه الإمام أحمد فى « مسنده » (٢٦٤/٤) : حدثنا إسحاق الأزرق ، عن شريك ،
عن أبى هاشم ، عن أبى مجلز ، قال : صلى بنا عمار صلاة .. الحديث .
قلت : شريك سيبى الحفظ ، وقد اضطرب فيه .

= فرواه النسائي (٥٥/٣) من طريق : يعقوب بن إبراهيم بن سعد ، عن شريك ، عن أبى
هاشم ، عن أبى مجلز ، عن قيس بن عباد ، قال : صلى عمار بن ياسر بالقوم ..
فزاد فيه قيس بن عباد .

والحديث حجة بالسند الأول ، والله أعلم .

[٢٢٠] من أحب لقاء الله ..

صحيح.

رواه الإمام أحمد (٣٢١، ٣١٦/٥) ، والبخارى (٣٥٤/٨) : اليونينية) ، ومسلم
(٢٠٦٥/٤) ، والترمذى (١٠٦٦) ، والنسائي (١٠/٤) من طرق : عن قتادة ، عن أنس
ابن مالك ، عن عبادة بن الصامت ، وفى آخره :
« ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ».

وفى الباب عن أبى موسى ، وأبى هريرة ، وعائشة - رضوان الله عليهم أجمعين - .

وقال بعض أهل البصائر فى قوله تعالى :

﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ﴾ (العنكبوت : ٥).

لما علم الله سبحانه وتعالى شدة شوق أوليائه إلى لقاءه ، وأن قلوبهم لا تهتدى دون لقاءه ، وضرب لهم أجلاً وموعداً للقاءه ، تسكن نفوسهم به ، وأطيب العيش وألذه على الإطلاق عيش المحبين المشتاقين المستأنسين ، فحياتهم هى الحياة الطيبة فى الحقيقة ، ولا حياة للقلب أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها ، وهى الحياة الطيبة فى قوله تعالى :

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾

(النحل : ٩٧).

ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار ، والأبرار والفجار من طيب المأكّل والملبس والمشرّب والمنكح ، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه فى ذلك أضعافاً مضاعفة ، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة ، فهو صادق الوعد الذى لا يخلف وعده ، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت همّاً واحداً فى مرضاة الله ؟ ولم يتشعب قلبه ، بل أقبل على الله ، واجتمعت إرادته وأفكاره التى كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله ، فصار ذكره بمحبوبه الأعلى ، وحبّه والشوق إلى لقاءه ، والأنس بقربه هو المستولى عليه ، وعليه تدور همومه وإرادته وقصده بكل خطرات قلبه ، فإن سكّت سكّت بالله ، وإن نطق نطق بالله ، وإن سمع فيه يسمع ، وإن أبصر فيه يبصر ، وبه يبطش ، وبه يمشى ، وبه يتحرك ، وبه يسكن ، وبه يحيا ، وبه يموت ، وبه يبعث.

كما في « صحيح البخارى » عنه عليه السلام فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال :

« ما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحبته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع وبى يبصر ، وبى يمشى ، ولئن سألتى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيزنه ، وما ترددت فى شيء أنا فاعله كترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ولا بد له منه » . (٢٢١)

* فتضمن هذا الحديث الشريف الإلهى - الذى حرم على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به - حصر أسباب محبته فى أمرين :
أداء فرائضه ، والتقرب إليه بالنوافل .

وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما يتقرب به إليه المتقربون ثم بعدها النوافل ، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوباً لله ، فإذا صار محبوباً أوجبت محبته لله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى ، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه ، وملكته عليه روحه ، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة فصار ذكر

[٢٢١] ما تقرب إلى عبدى...

صحيح.

رواه البخارى (٣٥٣/٨: يونينية) من طريق : شريك بن أبى نمر ، عن عطاء بن يزيد ، عن أبى هريرة به .
فإن قيل شريك فيه ضعف ، فالجواب : أن إخراج البخارى له محمول على أنه تخير من حديثه ما صح .

محبوبه وحبه ومثله الأعلى مالكاً لزمان قلبه مستوليا على روحه استيلاء
المحبوب على محبه الصادق فى محبته التى قد اجتمعت قوى محبة حبه
كلها له .

ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه ، وإن أبصر أبصر به ،
وإن بطش بطش به ، وإن مشى مشى به ، فهو فى قلبه ومعه ، وأنيسه ،
وصاحبه ، فالباء هاهنا للمصاحبة ، وهى مصاحبة لا نظير لها ، ولا تدرك
بمجرد الإخبار عنها والعلم بها . فالمسألة حالية لا علمية محضة .

وإذا كان المخلوق يجد هذا فى محبة المخلوق التى لم يخلق لها ولم
يفطر عليها ، كما قال بعض المحبين :

خيالك فى عيني ، وذكرك فى فمي
ومثواك فى قلبي ، فأين تغيب ؟
وقال آخر :

ومن عجبى أنى أحسن إليهم
وتطلبهم عيني ، وهم فى سوادها
فأسأل عنهم من لقيت ، وهم معي
ويشتاقهم قلبي ، وهم بين أضلعي
وهذا ألطف من قول الآخر :

إن قلت : غبت ، فقلبي لا يصدقنى
أر قلت ما غبت قال الطرف ذا كذب
إذ أنت فيه مكان السر لم تغب
فقد تحيرت بين الصدق والكذب

فليس شئ أدنى إلى المحب من محبوبه ، وربما تمكنت منه الحجة حتى
يصير أدنى إليه من نفسه ، بحيث ينسى نفسه ولا ينساه ، كما قال :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما
تمثل لى لىلى بكل سبيل

وقال آخر :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

وخص في الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر ، فإن هذه الآلات آلات الإدراك وآلات الفعل ، والسمع والبصر يوردان على القلب الإرادة والكراهة ، ويجلبان إليه الحب والبغض ، فيستعمل اليد والرجل ، فإذا كان سمع العبد بالله وبصره بالله آلات ؛ كان محفوظاً في إدراكه ، وكان محفوظاً في حبه وبغضه ، فحفظ في بطشه ومشيه .

وتأمل كيف اكتفى بذكر السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان ، فإنه إذا كان إدراك السمع الذى يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة ، وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة ، وكذلك حركة اليد والرجل لا بد للعبد منهما ، فكيف بحركة اللسان التى لا تقع إلا بقصد واختيار ؟ وقد يستغنى العبد عنها إلا حيث أمر بها .

وأيضاً فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح ، فإنه ترجمانه ورسوله .

وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به سمعه وبصره وبطشه ومشيه بقوله : « كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » ، تحقيقاً لكونه مع عبده ، وكون عبده به فى إدراكاته ، بسمعه وبصره وحر كاته بيده ورجله .

وتأمل كيف قال : « فبى يسمع وبى يبصر » ولم يقل : فلى يسمع ولى يبصر . وربما يظن الظان أن اللام أولى بهذا الموضع ، إذ هى أدل على الغاية ، ووقوع هذه الأمور لله ، وذلك أخص من وقوعها به ، وهذا من الوهم والغلط إذ ليست الباء ههنا لجرد الاستعانة ، فإن حركات الأبرار والفجار ، وإدراكاتهم إنما هى بمعونة الله لهم ، وإنما الباء ههنا للمصاحبة ، أى

إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشى وأنا صاحبه ومعه .

كقوله في الحديث الآخر :

« أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه » (٢٢٢).

وهذه هى المعية الخاصة فى قوله تعالى :

﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ (التوبة : ٤٠) .

وقول النبى ﷺ : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » (٢٢٣)

[٢٢٢] أنا مع عبدى ما ذكرنى ..

صحيح.

رواه ابن المبارك فى « الزهد » (٩٥٦)، وأحمد (٥٤٠/٢)، والبخارى فى « خلق أفعال العباد » (٤٣٦) من طريق : عبدالرحمن بن يزيد بن جابر ، عن إسماعيل بن عبيد الله، عن كريمة بنت الحسحاس ، عن أبى هريرة به.

قلت: وهذا سند صحيح ، رجاله ثقات ، إلا كريمة ، لم يوثقها إلا ابن حبان، ولكن لا يضر ، فإن البخارى قد جزم بهذا الحديث فى « صحيحه » (٣٠٤/٤) وهذا مقتضاه أن كريمة ثقة عنده ، والله أعلم.

[٢٢٣] ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

صحيح.

رواه الإمام أحمد (٤/١) ، والبخارى (٢٨٩/٢) ، ومسلم (١٨٥٤/٤) ، والترمذى (٣٠٩٦) من طريق : همام ، عن ثابت البنانى ، عن أنس بن مالك ، عن أبى بكر - رضى الله عنهما - .

وقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت : ٦٩).

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾

(النحل : ١٢٨).

وقوله : ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنفال : ٤٦).

وقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء : ٦٢).

وقوله تعالى لموسى وهارون : ﴿ إِنِّى مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾

(طه : ٤٦).

فهذه الباء مفيدة لمعنى هذه المعية دون اللام ، ولا يتأتى للعبد الإخلاص والصبر والتوكل ، ونزوله في منازل العبودية إلا بهذه الباء وهذه المعية .

فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق وانقلبت عليه المخاوف في حقه أماناً فبالله يهون كل صعب، ويسهل كل عسير ، ويقرب كل بعيد، وبالله تزول الهموم والغموم والأحزان ، فلا هم مع الله ، ولا غم ولا حزن إلا حيث يفوته معنى هذه الباء ، فيصير قلبه حينئذ كالحوت إذا فارق الماء يثب وينقلب حتى يعود إليه .

ولما حصلت هذه الموافقة من العبد لربه في محابه ؛ حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبه ، فقال : « وَلئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيننه » أى : كما وافقني في مرادي بامتثال أوامري ، والتقرب إليَّ بمحايي ، فأنا أوافقه في رغبته ورهبته فيما يسألني أن أفعله به

ويستعيزني أن يناله، وقوى أمر هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى ذلك تردد الرب سبحانه في إماتة عبده لأنه يكره الموت ، والرب تعالى يكره ما يكرهه عبده ويكره مساءته فمن هذه الجهة يقتضى أن لا يميته، ولكن مصلحته في إماتته فإنه ما أماته إلا ليحييه ، ولا أمرضه إلا ليصحه ، ولا أفقره إلا ليغنيه ، ولا منعه إلا ليعطيه، ولم يخرج من الجنة في صلب أبيه إلا ليعيده إليها على أحسن أحواله، ولم يقل لأبيه : اخرج منها إلا وهو يريد أن يعيده إليها ، فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه ، بل لو كان في كل منبت شعرة من البعد محبة تامة لله لكان بعض ما يستحقه على عبده .

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحينئذ أبدأ لأول منزل



فصل

آخر مراتب الحب

*ثم التيم ، وهو آخر مراتب الحب: وهو تعبد المحب لمحجوبه ، يقال : تيمه الحب إذا عبده، ومنه : تيم الله أى عبد الله، وحقيقة التعبد : الذل والخضوع للمحجوب، ومنه قولهم : طريق معبد أى مذل قد ذلته الأقدام ، فالعبد هو الذى ذلله الحب ، والخضوع لمحجوبه ، ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته هى العبودية ، فلا منزل له أشرف منها .

وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم إليه ، وهو رسوله محمد ﷺ بالعبودية فى أشرف مقاماته وهى مقام الدعوة إليه ، ومقام التحدى بالنبوة ، ومقام الإسراء ، فقال سبحانه :

﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً﴾

(الجن : ١٩).

وقال : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله ﴾ (البقرة : ٢٣) .

وقال : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ (الإسراء : ١) .

وفى حديث الشفاعة: « اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » (٢٢٤)

فإن مقام الشفاعة بكمال عبوديته ، وكمال مغفرة الله له ، والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له ، التى هى أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع ، وهذا هو حقيقة الإسلام وملة إبراهيم التى من رغب عنها فقد سفه نفسه ، قال تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه . ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ (البقرة : ١٣٠ - ١٣٣) .

[٢٢٤] حديث الشفاعة.

صحيح.

رواه البخارى (٥٨٩/٩ : يونينية) ، ومسلم (١٨١/١ - ١٨٢) ، والنسائى فى «الكبرى» (تحفة : ٣٥١/١) من طريق : هشام الدستوائى ، عن قتادة ، عن أنس به . وهو عند مسلم وأحمد (١١٦/٣ و ١٤٤ و ٢٤٤) من طرق أخرى عن قتادة . وله طرق أخرى عن أنس .

ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك .

■ الشرك فى المحبة .

* وأصل الشرك بالله : الإشراف فى المحبة كما قال تعالى :

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾
(البقرة : ١٦٥) .

فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به ندأ يحبه كما يحب الله ، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لأناداهم .

وقيل : بل المعنى أنهم أشد حبا لله ، فإنهم وإن أحبوا الله ، ولكن لما شركوا بينه وبين أناداهم فى المحبة ضعفت محبتهم لله ، والموحدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك ، والعدل برب العالمين ، والتسوية بينه وبين الأنداد هو فى هذه المحبة ، كما تقدم ، ولما كان مراد الله من خلقه خلوص هذه المحبة له ، أنكر على من اتخذ من دونه ولياً أو شفيعاً غاية الإنكار ، وجمع ذلك تارة ، وأفرد أحدهما عن الآخر تارة ، فقال تعالى :

﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تتذكرون ﴾
(يونس : ٣) .

وقال تعالى : ﴿ الله الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾
(السجدة : ٤) .

وقال تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس

لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون ﴿ (الأنعام : ٥١) .

وقال فى الأفراد : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ (الزمر : ٤٣ و ٤٤) .

وقال تعالى : ﴿ من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ﴾ (الجاثية : ١٠) .

فإذا والى العبد ربه وحده أقام له الشفعاء وعقد الموالاتة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه فى الله بخلاف من اتخذ مخلوقاً ولياً من دون الله .

فهذا لون وذاك لون ، كما أن الشفاعة الشركية الباطلة لون ، والشفاعة الحق الثابتة التى إنما تنال بالتوحيد لون ، وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الإشراك ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

*** والمقصود :** أن حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله فى المحبة بخلاف المحبة لله ، فإنها من لوازم العبودية وموجباتها ، فإن محبة الرسول - بل تقديمه فى الحب على الأنفس والآباء والأبناء - لا يتم الايمان إلا بها ، إذ محبته من محبة الله ، وكذلك كل حب فى الله ولله ، كما فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال :

« ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان » (٢٢٥) .

[٢٢٥] ثلاث من كن فيه ..

صحيح .

رواه الإمام أحمد (١٠٣/٣) ، والبخارى (١٢/١) ، ومسلم (٦٦/١) ، والترمذى (٢٦٢٤) من طريق : أبى قلابة الجرمى ، عن أنس به .

وله طرق أخرى عن أنس من رواية ثابت البنانى ، وقتادة عنه .

وفى لفظ «الصحيحين» : « لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال - أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى فى النار » (٢٢٦).

وفى الحديث الذي فى «السنن» : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » (*).

وفى حديث آخر : « ما تحاب رجلان فى الله إلا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه » (٢٢٧) فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله تعالى وموجباتها وكلما كانت أقوى ، كان أصلها كذلك .

[٢٢٦] لا يجد حلاوة الإيمان ..

صحيح .

رواه بهذا اللفظ البخارى (٢٣٩/٨) ، ومسلم (٦٦/١) ، والنسائى (٩٦/٨) بلفظ :

« ثلاث من كن فيه .. » ، من طريق : شعبة ، عن قتادة ، عن أنس به .

(*) من أحب لله ..

ضعيف

رواه أبوداود (٤٦٨١) من طريق : القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبي أمامة به ، والقاسم فيه ضعف ، ولا يحتمل من مثله التفرد بالسند ، وقد روى من حديث أنس ، وفيه لين .

[٢٢٧] ما تحاب رجلان ..

منكر .

رواه البخارى فى «الأدب المفرد» (٥٤٤) ، وابن حبان (موارد : ٢٥٠٩) ، والحاكم (١٧١/٤) ، وابن عدى فى «الكامل» (٢٣٢٢/٦) ، والخطيب فى «التاريخ» (٣٤١/١١) من طرق عن : مبارك بن فضالة ، حدثنا ثابت ، عن أنس به .

وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

وفيه نظر فإن المبارك فيه ضعف ، بل هو لين ، وقد خولف فى إسناد هذا الحديث .

فقد أخرجه الخطيب (٤٤٠/٩) من طريق : أبى القاسم عبد الله بن الحسين البجلي الصفار ، حدثنا عبد الأعلى بن حماد النرسى ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس به =

فصل

أنواع المحبة

* وههنا أربعة أنواع من المحبة ، يجب التفريق بينها، وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينهما .

أحدها : محبة الله ولا تكفى وحدها فى النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه ، فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله .

الثانى : محبة ما يحب الله ، وهذه هى التى تدخله فى الإسلام وتخرجه من الكفر، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث : الحب لله وفيه ، وهى من لوازم محبة ما يحب ، ولا تستقيم محبة ما يجب إلا فيه وله .

= إلا أن هذه الرواية معلولة ، قال الخطيب :

« تفرد الصفار بحديث عبد الأعلى بن حماد ، وإيصاله وهم على حماد بن سلمة ، لأن حماداً إنما يرويه عن ثابت ، عن مطرف بن عبد الله بن الشخير ، قال : كنا نتحدث أنه ما تحاب رجلان فى الله..

وذلك يحفظ عنه ، فلعل الصفار سها وجرى على العادة المستمرة فى ثابت عن أنس». قلت : هذا دال على أن المحفوظ ما كان من رواية حماد ، عن ثابت ، عن مطرف دون إسناده ، ويشهد لهذا ما رواه عبد الرزاق (٢٠٣٢٦) عن معمر ، عن قتادة ، قال : قال رسول الله ﷺ ، وكان معمر لا يرفعه ، يقول كثيراً : يقال : ما تحاب اثنان فى الله..

ولكن معمر ضعيف فى قتادة ، سمع منه صغيراً فلم يحفظ عنه. فالحديث معلول بمخالفة المبارك لحamad ، وحماد ثبت فى ثابت ، وروايته الأصح ، والله أعلم.

الرابع : المحبة مع الله وهى المحبة الشركية ، وكل من أحب شيئاً مع الله لا لله ، ولا من أجله ، ولا فيه فقد اتخذته نداً من دون الله ، وهذه محبة المشركين .

وبقى قسم خامس ليس مما نحن فيه : وهو المحبة الطبيعية ، وهى ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه ، كمحبه العطشان للماء ، والجائع للطعام ، ومحبة النوم والزوجة والولد ، فتلك لا تدم إلا إذا ألهت عن ذكر الله ، وشغلت عن محبته ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهَكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (المنافقون : ٩) .

وقال تعالى : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾

(النور : ٣٧) .



فصل

كمال المحبة

* ثم الخلقة : وهى تتضمن كمال المحبة ونهايتها ، بحيث لا يبقى فى القلب سعة لغير محبوبه ، وهى منصب لا يقبل المشاركة بوجه ما ، وهذا المنصب خاص للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما : إبراهيم ومحمد ، كما قال ﷺ : « إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » (٢٢٨) .

[٢٢٨] إن الله اتخذنى خليلاً .

صحيح .

وهو جزء من حديث جندب بن عبد الله البجلي عند مسلم (٣٧٧/١) بلفظ : « إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل ، فإن الله تعالى قد اتخذنى خليلاً ، كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولو كنت متخذاً من أمتى خليلاً لا تأخذت أبا بكر خليلاً ، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد = »

وفى الصحيح عنه عليه السلام أنه قال :

« لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ،
ولكن صاحبكم خليل الله » (٢٢٩).

وفى حديث آخر :

« إني أبرأ إلى كل خليل من خلته » (٢٣٠).

ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه ، وتعلق حبه بقلبه ، فأخذ
منه شعبة ، غار الحبيب على خليله أن يكون فى قلبه موضع لغيره ، فأمره
بذبحه ، وكان الأمر فى المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحاناً ،
ولم يكن المقصود ذبح الولد ، ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب
للرب ، فلما بادر الخليل إلى الامتثال ، وقدم محبة الله على محبة ولده ،

= إني أنهاكم عن ذلك.

ورواه من هذا الوجه أبو عوانة (٤٠١/١) ، والحاكم (٥٥٠/٢) مختصراً ، وقال :
«صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

[٢٢٩] لو كنت متخذاً خليلاً..

صحيح.

رواه الإمام أحمد (٣٧٧/١ و ٤٣٣) ، وغير موضع ، ومسلم (١٨٥٦/٤) ، والترمذى ،
والنسائى فى « الكبرى » كما فى « التحفة » (١٢٣/٧) ، وابن ماجه من طريق : عبد الله بن
مرة ، عن أبى الأحوص ، عن ابن مسعود به وزاد فى أوله :

« إني أبرأ إلى كل خليل من خلته ».

[٢٣٠] إني أبرأ إلى كل خليل من خلته...

صحيح.

انظر ما قبله

حصل المقصود فرفع الذبح ، وفدى الولد بذبح عظيم ، فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأساً ، بل لا بد أن يبقى بعضه أو بدله ، كما أبقي شريعة الفداء ، وكما أبقي استحباب الصدقة بين يدي المناجاة ، وكما أبقي الخمس صلوات بعد رفع الخمسين ، وأبقى ثوابها ، وقال : « لا يبدل القول لدى ، هي خمس - في الفعل - وهي خمسون - في الأجر » . (٢٣١)



فصل

المحبة والخلة

* وأما ما يظنه بعض الغالطين : أن المحبة أكمل من الخلة ، وأن إبراهيم خليل الله ، ومحمد ﷺ حبيب الله ، فمن جهله ، فإن المحبة عامة والخلة خاصة ، والخلة نهاية المحبة ، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذ خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ونفى أن يكون له خليل غير ربه ، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ، ولعمر بن الخطاب وغيرهم .

وأيضاً فإن الله سبحانه : ﴿ يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾

(البقرة : ٢٢٢) .

(آل عمران : ١٤٦) .

﴿ يحب الصابرين ﴾

(آل عمران : ١٤٨) .

﴿ يحب المحسنين ﴾

(المائدة : ٤٢) .

﴿ يحب المقسطين ﴾

والشباب التائب حبيب الله ، وخلته خاصة بالخليلين ، وإنما هذا من قلة العلم والفهم عن الله ورسوله ﷺ .

[٢٣١] لا يبدل القول لدي...

صحيح .

رواه البخاري (٧٣/١) ، ومسلم (١٤٥/١) ، والنسائي في «الكبرى» (تحفة : ١٥٦/٩) من طريق : الزهري ، عن أنس ، عن أبي ذر ، ضمن حديث الإسراء والمعراج .

فصل

إيثار الأعلى

* وقد تقدم أن العبد لا يترك ما يحبه ويهواه ، ولكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة ، كما أنه يفعل ما يكرهه لحصول ما محبته أقوى عنده من كراهة ما يفعله أو لخلاصه من مكروه .

وتقدم أن خاصية العقل إيثار أعلى المحبوبين على أدناهما ، وأيسر المكروهين على أقواهما ، وتقدم أن هذا من كمال قوة الحب والبغض .

* ولا يتم له هذا إلا بأمرين : قوة الإدراك وشجاعة القلب ، فإن التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما لضعف الإدراك بحيث أنه لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما هي عليه ، وإما لضعف في النفس وعجز في القلب ، بحيث لا يطاوعه على إيثار الأصلح لرفع علمه بأنه الأصلح ، فإذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع قلبه على إيثار المحبوب الأعلى والمكروه الأدنى فقد وفق لأسباب السعادة .

فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله وإيمانه ، فيقهر الغالب الضعيف ، ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته .

وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضره فتأبى عليه نفسه وشهوته إلا تناوله ، ويقدم شهوته على عقله ، وتسميه الأطباء : عديم المروءة ، فهكذا أكثر مرضى القلوب يؤثرون ما يزيد مرضهم ، لقوة شهوتهم له .

فأصل الشر من ضعف الإدراك وضعف النفس ودناءتها ، وأصل الخير من كمال الإدراك وقوة النفس وشرفها وشجاعتها .

فالحب والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه ، والبغض والكراهة أصل كل

ترك ومبدؤه ، وهاتان القوتان فى القلب أصل سعادة العبد وشقاوته .
وجود الفعل الاختيارى لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والإرادة.

وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضيه وسببه، وتارة يكون لوجود البغض والكراهة المانعة منه، وهذا متعلق الأمر والنهى ، وهو الذى يسمى الكف، وهو متعلق الثواب والعقاب ، وبهذا يزول الاشتباه فى مسألة الترك، وهل هو أمر وجودى أو عدمى ؟

* والتحقيق أنه قسمان : فالترك المضاف إلى عدم السبب المقتضى عدمى ، والمضاف إلى السبب المانع من الفعل وجودى .



فصل

إيثار الاتفع

* وكل واحد من الفعل والترك الاختياريين إنما يؤثره الحى لما فيه من حصول المنفعة التى يلتذ بحصولها ، أو زوال الألم الذى يحصل له الشفاء بزواله ، ولهذا يقال : شفى صدره وشفى قلبه ، وقال :

هى الشفاء لدائى لو ظفرت بها وليس منها شفاء الداء مبذول

وهذا مطلوب يؤثره العاقل بل الحيوان البهيم ، ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطاً قبيحاً ، فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الألم ، فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها ، ويشفى قلبه بما يعقب عليه غاية المرض ، وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ، ولم يلاحظ العواقب ، وخاصة العقل الناظر فى العواقب ، فأعقل الناس من آثر لذته وراحته الآجلة

الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة ، وأسفه الخلق من باع نعيم الأبد ، وطيب الحياة الدائمة ، واللذة العظمى ، التي لا تنغصص فيها ولا نقص بوجه ما بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف ، وهى سريعة الزوال وشيكة الانقضاء .

قال بعض العلماء : فكرت فيما يسعى فيه العقلاء ، فرأيت سعيهم كله فى مطلوب واحد ، وإن اختلفت طرقهم فى تحصيله ، رأيتهم جميعاً إنما يسعون فى دفع الهم والغم عن نفوسهم ، فهذا بالأكل والشرب ، وهذا بالتجارة والكسب ، وهذا بالنكاح ، وهذا بسماع الغناء ، والأصوات المطربة ، وهذا باللهو واللعب ، فقلت : هذا المطلوب مطلوب العقلاء ، ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه ، بل لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده ، ولم أر فى جميع هذه الطرق طريقاً موصلاً إليه إلا الإقبال على الله ومعاملته ، وحده وإيثار مرضاته على كل شىء .

فإن سالك هذه الطريق إن فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالى الذى لا فوت معه ، وإن حصل للعبد حصل له كل شىء ، وإن فاته فاته كل شىء ، وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أنها الوجوه ، فليس للعبد أنفع من هذه الطريق ولا أوصل منها إلى لذته وبهجته ، وسعادته وبالله التوفيق .



فصل

أقسام المحبوب

* والمحبوب قسمان : محبوب لنفسه ، ومحبوب لغيره .

والمحبوب لغيره لا بد أن ينتهى إلى المحبوب لنفسه ، دفعاً للتسلسل المحال ، وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره وليس شىء يحب لذاته إلا الله وحده ، وكل ما سواه مما يحب فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى ، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه ، فإنها تبع لمحبة سبحانه ، وهى من لوازم محبته ، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه ، وهذا موضع يجب الاعتناء به ، فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره ، والمحبة التى لا تنفع بل قد تضر .

فاعلم أنه لا يحب لذاته إلا من كان كماله من لوازم ذاته ، وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته ، وما سواه فإنما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضاداته لها ، وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافسة وضعفها ، فما كان أشد منافاة لمحابه ، كان أشد كراهة من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها ، فهذا ميزان عادل توزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته .

فإذا رأينا شخصاً يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه ، علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك ، وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ، ويكره ما يكرهه ، وكلما كان الشىء أحب إلى الرب كان أحب إليه وأثر عنده ، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه ، علمنا أن فيه من موالاته الرب بحسب ذلك .

فتمسك بهذا الأصل فى نفسك وفى غيرك ، فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد فى محابه ومساخطه ، وليست بكثرة صوم ، ولا صلاة ، ولا تمزق ، ولا رياضة .

***والحجوب لغيره قسمان أيضاً :**

أحدهما : ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله .

والثانى : ما يتألم به ، ولكن يحتمله لإفضائه إلى المحجوب ، كشرب الدواء الكريه ، قال تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾
(البقرة : ٢١٦) .

فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع أنه خير لهم لإفضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه ، والنفوس تحب الراحة والدعة والرفاهية ، وذلك شر لها لإفضائه إلى فوات هذا المحجوب ، فالعاقل لا ينظر إلى لذة المحجوب العاجل فيؤثرها ، وألم المكروه العاجل فيرغب عنه ، فإن ذلك قد يكون شراً له ، بل قد يجلب عليه غاية الألم ويفوته أعظم اللذة ، بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبهم من اللذة بعدها ، وإن كانت منقطعة .

*** فالأمور أربعة :** مكروه يوصل إلى مكروه ، ومكروه يوصل إلى محبوب ، ومحبوب يوصل إلى محبوب ، ومحبوب يوصل إلى مكروه ، فالمحبوب الموصل إلى المحجوب : قد اجتمع فيه داعى الفعل من وجهين ، والمكروه الموصل إلى مكروه : قد اجتمع فيه داعى الترك من جهين .

بقى القسمان الآخران يتجاذبهما الداعيان - وهما معترك الابتلاء

والامتحان - فالنفس تؤثر أقربهما جواراً منها ، وهو العاجل ، والعقل والإيمان يؤثر أنفعهما وأبقاهما ، والقلب بين الداعيين ، وهو إلى هذا مرة ، وإلى هذا مرة ، وههنا محل الابتلاء شرعاً وقدرأً ، فداعى العقل والإيمان ينادى كل وقت : حى على الفلاح ، عند الصباح يحمد القوم السرى ، وفى الممات يحمد العبد التقى ، فإن اشتد ظلام ليل المحبة ، وتحكم سلطان الشهوة والإرادة يقول : يا نفسى اصبرى فما هى إلا ساعة ثم تنقضى ، ويذهب هذا كله ويزول .



فصل

الحب أصل كل عمل

* وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل ، فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله ، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله ، وكل إرادته تمنع كمال الحب لله ورسوله وتزاحم هذه المحبة ، أو شبهة تمنع كمال التصديق ، فهى معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له ، فإن قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفراً أو شركاً أكبر ، وإن لم تعارضه قدحت فى كماله ، وأثرت فيه ضعفاً وفوراً فى العزيمة والطلب ، وهى تحجب الواصل ، وتقطع الطالب ، وتنكس الراغب ، فلا تصح الموالاة إلا بالمعاداة ، كما قال تعالى - عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه - :

﴿ أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى
إلا رب العالمين ﴾ (الشعراء : ٧٥ - ٧٧) .

فلم يصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعادة ، فإنه

لا ولاء إلا لله ، ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه ، قال تعالى :
﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا
لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا
وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ (المتحنة : ٤) .
وقال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون
إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم
يرجعون ﴾ (الزخرف : ٢٦ - ٢٨) .

أى جعل هذه الموالاتة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية فى
عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض ، وهى كلمة : لا إله إلا
الله ، وهى التى ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة .

❑ كلمة التوحيد .

* وهى الكلمة التى قامت بها الأرض والسماوات ، وفطر الله عليها
جميع المخلوقات ، وعليها أسست الملة، ونصبت القبلة ، وجردت سيوف
الجهاد ، وهى محض حق الله على جميع العباد ، وهى الكلمة العاصمة
للدم والمال والذرية فى هذه الدار ، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار ،
وهى المنشور الذى لا يدخل أحد الجنة إلا به ، والحبل الذى لا يصل إلى الله
من لم يتعلق بسببه ، وهى كلمة الإسلام ، ومفتاح دار السلام، وبها انقسم
الناس إلى شقى وسعيد ، ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر من دار
الإيمان ، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان ، وهى العمود الحامل
للفرض والسنة : من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة .

□ روح كلمة التوحيد .

* روح هذه الكلمة وسرها : أفراد الرب جل ثناؤه ، وتقدست
أسماءه ، وتبارك اسمه ، وتعالى جده ، ولا إله غيره : بالمحبة والإجلال
والتعظيم والخوف والرجاء ، وتوابع ذلك : من التوكل والإنابة والرغبة
والرهبة .

فلا يحب سواه ، وكل ما يحب غيره فإنما يحب تبعاً لمحبتة ، وكونه
وسيلة إلى زيادة محبته ، ولا يخاف سواه ، ولا يرجى سواه ، ولا يتوكل
إلا عليه ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يرهب إلا منه ، ولا يحلف إلا باسمه ،
ولا ينذر إلا له ، ولا يتاب إلا إليه ، ولا يطاع إلا أمره ، ولا يتحسب إلا
به ، ولا يستغاث في الشدائد إلا به ، ولا يلتجأ إلا إليه ، ولا يسجد إلا له ،
ولا يذبح إلا له وباسمه .

* ويجتمع ذلك في حرف واحد ، وهو : أن لا يعبد إلا إياه بجميع
أنواع العبادة ، فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، لهذا حرم على النار
من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة ، ومحال أن يدخل النار من تحقق
بحقيقة هذه الشهادة وقام بها ، كما قال تعالى :

﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ (المعارج : ٣٣) .

فيكون قائماً بشهادته في ظاهره وباطنه ، في قلبه وقالبه ، فإن من
الناس من تكون شهادته ميتة ، ومنهم من تكون نائمة إذا نهت انتبهت ،
ومنهم من تكون مضطجعة ، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب ، وهى فى
القلب بمنزلة الروح فى البدن ، فروح ميتة ، وروح مريضة إلى الموت
أقرب ، وروح إلى الحياة أقرب ، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن .

وفى الحديث الصحيح عنه عليه السلام :

« إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها روحاً » (٢٣٢).

[٢٣٢] إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد...

صحيح.

رواه الإمام أحمد (١٦١/١) : حدثنا أسباط ، حدثنا مطرف ، عن عامر ، عن يحيى بن طلحة بن عبيد الله ، عن أبيه بنحوه وفيه قصة مع عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - .

ورواه الحاكم (٣٥٠/١) من طريق : على بن مسهر ، عن مطرف به .

قلت : وهذا سند صحيح .

ولكن اختلف فيه على الشعبي .

فرواه ابن حبان (٢) من طريق : محمد بن عبد الوهاب ، عن مسعر ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي ، عن يحيى بن طلحة ، عن أمه سعدى المرية بالقصة .

قلت : وهذا سند شاذ ، حمل فيه الحاكم على محمد بن عبد الوهاب ، فالحديث من طريق يحيى محفوظ عنه عن أبيه .

وله طريقين آخرين عن الشعبي :

الأول : رواه أحمد (٢٨/١) : حدثنا عبد الله بن نمير ، عن مجاهد ، عن عامر ، عن جابر بن عبد الله ، عن طلحة به .

ومجاهد هذا لم أثبته من هو الآن .

والثاني : رواه أحمد (٣٧/١) : حدثنا يحيى ، عن إسماعيل ، حدثنا عامر .

وحدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد ، عن رجل ، عن الشعبي ، عن طلحة به .

قلت : وهذا سند مرسل ، إنما يرويه الشعبي عن طلحة بن عبيد الله - رضى الله عنه - بواسطة ابنه يحيى .

وأما الاختلاف فيه على إسماعيل بن أبي خالد : فالراجح عندي رواية يحيى بن سعيد القطان ، ورواية الشعبي المرسلة لا تعلل الموصولة ، لاختلاف من رواه عنه ، فلعله أسنده تارة ، وعلقه تارة على سبيل الحكاية لا الرواية .

فحياة الروح بحياة هذه الكلمة فيها ، كما أن حياة البدن بوجود الروح فيه ، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة ، يتقلب فيها ، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها ، فروحه تتقلب في جنة المأوى ، وعيشه أطيب عيش ، قال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ (النازعات : ٤٠ و ٤١) فالجنة مأواه يوم اللقاء .

وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله ، والشوق إلى لقائه والفرح به ، والرضى به وعنه مأوى روحه في هذه الدار ، فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا ، كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد ، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرماناً ، والأبرار في النعيم وإن اشتد بهم العيش ، وضائق عليهم الدنيا ، والفجار في جحيم ، وإن اتسعت عليهم الدنيا ، قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ﴾ (النحل : ٩٧) .

وطيب الحياة جنة الدنيا ، وقال تعالى :

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ (الأنعام : ١٢٥) .

فأي نعيم أطيب من شرح الصدر ؟ وأي عذاب أضر من ضيق الصدر ؟ وقال تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (يونس : ٦٢ - ٦٤) . فالؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشاً ، وأنعمهم بالاً ، وأشرحهم صدرأ ، وأسرهم قلباً ، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة .

وقال النبي ﷺ :

« إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال :
حلق الذكر » (٢٣٣).

ومن هذا قوله ﷺ :

« ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » (٢٣٤).

ومن هذا قوله - وقد سأله عن وصاله في الصوم - :

« إني لست كهيتكم ، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني » (٢٣٥).

[٢٣٣] إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا..

واه جداً.

رواه بهذا اللفظ الإمام أحمد (١٥٠/٣) ، والترمذي (٣٥١٠) ، وابن عدي في
«الكامل» (٢١٤٧/٦) ، من طريق : محمد بن ثابت البناني ، عن أبيه ، عن أنس به.

وقال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس » .
يشير بذلك إلى نكارتة ، وكيف لا وقد تفرد به محمد بن ثابت بن أسلم البناني ، وهو
واه جداً ، قال فيه ابن معين : « ليس بشيء » ، وقال أبو حاتم : « منكر الحديث » ، وقال
البخاري : « فيه نظر » ، بمعنى أنه متهم .

[٢٣٤] ما بين بيتي ومنبري روضة..

صحيح.

رواه البخاري (٢٠٧/١) ، ومسلم (١٠١٠/٢) ، والنسائي (٣٥/٢) من طريق : عباد
ابن تميم ، عن عبد الله بن زيد المازني به.

وفى الباب - في « الصحيحين » - حديث أبي هريرة - رضى الله عنه - .

[٢٣٥] إني لست كهيتكم...

صحيح.

مخرج في الصحيحين وغيرهما من حديث غير واحد من الصحابة - رضوان الله
عليهم أجمعين - .

فأخبر ﷺ أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسى ، وأن ما يحصل له من ذلك أمر يختص به ولا يشاركه فيه غيره ، فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عنه عوض يقوم مقامه وينوب منابه ، ويغنى عنه ، كما قيل :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضيء به ومن حديثك فى أعقابها حادى
إذا شكت من كلال السير أوعدها روح اللقاء فتحيا عند ميعاد

وكلما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج ، كان تألمه بفقده أشد ، وكلما كان عدمه أنفع له ، كان تألمه بوجوده أشد ، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله ، واشتغاله بذكره ، وتنعمه بحبه ، وإيثاره لمرضاته ، بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك ، فعدمه ألم شيء له وأشدّه عليه ، وإنما تغيب الروح عن شهود هذا العذاب والألم لاشتغالها بغيره ، واستغراقها في ذلك الغير ، فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم الفوات بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها .

وهذه منزلة السكران المستغرق في سكره الذى احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده ، وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرتة ، حتى إذا صحا ، وكشف عنه غطاء السكر ، وانتبه من رقدة الخمر ، فهو أعلم بحاله حينئذ .

وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاناة طلائع الآخرة ، والإشراف على مفارقة الدنيا ، والانتقال منها إلى الله ، بل الألم والحسرة والعذاب هنا أشد بأضعاف مضاعفة ، فإن المصاب فى الدنيا يرجو جبر مصيبتة بالعوض ، و يعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له ، فكيف بمن

مصيبته بمالا عوض عنه ، ولا بدل منه ، ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعها ؟
فلو قضى الله سبحانه عليه بالموت من هذه الحسرة والألم ، لكان
العبد جديراً به ، فإن الموت ليعود أعظم أمنيته وأكبر حسراته ، وهذا لو كان
الألم على مجرد الفوات ، فكيف وهناك من العذاب على الروح والبدن
بأمور أخرى وجودية ما لا يقدر قدره ؟!

فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين ، اللذين
لا تحملهما الجبال الراوسى .

فاعرض الآن على نفسك أعظم محبوب لك فى الدنيا ، بحيث لا
تطيب لك الحياة إلا معه فأصبحت وقد أخذ منك ، وحيل بينك وبينه
أحوج ما كنت إليه ، كيف يكون حالك ؟ هذا ومنه كل عوض ، فكيف
بمن لا عوض عنه ؟ كما قيل :

من كل شيء إذا ضيعته عوض وما من الله إن ضيعته عوض

وفى أثر إلهى : ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت
برزقك فلا تتعب ، ابن آدم ، اطلبنى تجدنى ، فإن وجدتني وجدت كل
شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء .



فصل

المحبة المحمودة والمحبة المذمومة

* ولما كانت المحبة جنساً تحته أنواع متفاوتة فى القدر والوصف ، كان أغلب ما يذكر فيها فى حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعها ، وما لا تصلح إلا له وحده ، مثل العبادة والإنابة ، ونحوها ، فإن العبادة لا تصلح إلا له وحده ، وكذلك الإنابة ، وقد تذكر المحبة باسمها المطلق ، كقوله تعالى :

﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ (المائدة : ٥٤) .

وقوله تعالى :

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ (البقرة : ١٦٥) .

* وأعظم أنواع المحبة المذمومة : المحبة مع الله التى يسوى الحب فيها بين محبته لله ومحبته للناس الذى اتخذه من دونه .

* وأعظم أنواعها المحمودة : محبة الله وحده ، ومحبة ما أحب ، وهذه المحبة هى أصل السعادة ورأسها التى لا ينجو أحد من العذاب إلا بها ، والمحبة المذمومة الشركية هى أصل الشقاوة ورأسها التى لا يبقى فى العذاب إلا أهلها ، فأهل المحبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يدخلون النار ، ومن دخلها منهم بذنوبه فإنه لا يبقى فيها منهم أحد .

ومدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها ، والنهى عن المحبة الأخرى ولوازمها ، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين ، وذكر قصص النوعين ، وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ومعبود كل منها ، وإخباره عن فعله بالنوعين ، وعن حال النوعين فى الدور الثلاثة : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، والقرآن جاء فى شأن النوعين .

* وأصل دعوة جميع الرسل - عليهم السلام - من أولهم إلى آخرهم : إنما هي عبادة الله وحده لا شريك له ، المتضمنة لكمال حبه وكمال الخضوع والذل له ، والإجلال والتعظيم ، ولوازم ذلك من الطاعة والتقوى .

وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث أنس ، عن النبي ﷺ أنه قال :
«والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» (٢٣٦).

وفى «صحيح البخارى» أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى ، فقال : «لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك» ، قال : والذى بعثك بالحق لأنت أحب إلى من نفسى ، قال : «الآن يا عمر» (٢٣٧).

فإذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله ﷺ ووجوب تقديمها على محبة نفس الإنسان وولده ووالده والناس أجمعين ، فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى ووجوب تقديمها على محبة ما سواه ؟

[٢٣٦] والذى نفسى بيده لا يؤمن...

صحيح.

رواه البخارى (١٢/١) ، ومسلم (٦٧/١) ، والنسائى (١١٤/٨) ، وابن ماجه (٦٧) من طريق : شعبة ، عن قتادة ، عن أنس به .

[٢٣٧] لا يا عمر..

صحيح.

رواه الإمام أحمد (٣٣٦/٤ و ٢٩٣/٥) ، والبخارى (١٤٩/٤) من حديث عبد الله ابن هشام - رضى الله عنه - .

ومحبة الرب سبحانه تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها وإفراده سبحانه بها ؛ فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون أحب إلى العبد من ولده ووالده ، بل من سمعه وبصره ونفسه التي هي بين جنبيه ، فيكون إلهه الحق ومعبوده أحب إليه من ذلك كله ، والشئ قد يحب من وجه دون وجه ، وقد يحب بغيره وليس شئ يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ، ولا تصلح الألوهية إلا له .

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (الأنبياء : ٢٢) .
* والتأله : هو المحبة والطاعة والخضوع .



فصل

الحب أصل الحركة

* وكل حركة في العالم العلوى والسفلى فأصلها المحبة ، فهي علتها الفاعلية والغائية ، وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع : حركة اختيارية إرادية ، وحركة طبيعية ، وحركة قسرية .

والحركة الطبيعية أصلها السكون ، وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعي ، فهو يتحرك للعود إليه ، وخروجه عن مركزه ومستقره إنما هو بتحريك القاصر المحرك له ، فله حركة قسرية تتحرك بتحريك محركه وقاسره ، وحركة طبيعية بذاتها يطلب بها العود إلى مركزه ، وكلا حركتيه تابعة للقاصر المحرك ، فهو أصل الحركتين ، والحركة الاختيارية الإرادية هي أصل الحركتين الآخرين ، وهي تابعة للإرادة والمحبة .

والدليل على انحصار الحركات في هذه الثلاث : أن المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهي الإرادية ، وإن لم يكن له شعور بها ، فيما أن

تكون على وفق طبعه أو لا ، فالأولى هى الطبيعية ، والثانية القسرية .

إذا ثبت هذا فما فى السموات والأرض وما بينهما من حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنة فى بطون أمهاتها ، فإنما هى بواسطة الملائكة المدبرات أمراً ، والمقسمات أمراً ، كما دل على ذلك نصوص من القرآن والسنة فى غير موضع ، والإيمان بذلك من تمام الإيمان بالملائكة ، فإن الله وكل بالرحم ملائكة ، وبالقطر ملائكة ، وبالنبات ملائكة ، وبالرياح ملائكة ، وبالأفلاك والشمس والقمر والنجوم ، ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة ، كاتبين عن يمينه وشماله ، وحافظين من بين يديه ومن خلفه ، ووكل ملائكة بقبض روحه وتجهيزها إلى مستقرها فى الجنة والنار ، ووكل ملائكة بمساءلته وامتحانه فى قبره وعذابه هناك أو نعيمه ، وملائكة تسوقه إلى المحشر إذا قام من قبره ، وملائكة بتعذيبه فى النار ، أو بتنعيمه فى الجنة ، ووكل بالجبال ملائكة ، وبالسحاب ملائكة تسوقه حيث أمرت به ، وبالقطر ملائكة تنزل بأمر الله بقدر معلوم كما شاء الله ، ووكل ملائكة بغرس الجنة وعمل آلتها وفرشها والقيام عليها ، وملائكة بالنار كذلك .

فأعظم جند الله : الملائكة ، ولفظ « الملك » يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره ، وليس لهم من الأمر شيء ، بل الأمر كله لله ، وهم يدبرون الأمر ، ويقسمونه بأمر الله وإذنه ، قال تعالى إخباراً عنهم :

﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً ﴾ (مریم : ٦٤) .

وقال تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ (النجم : ٢٦) .

وأقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لأمره في الخليفة كما
قال تعالى : ﴿ والصافات صفاً . فالزاجرات زجراً . فالتاليات ذكراً ﴾
(الصافات : ١ - ٣) .

وقال تعالى :

﴿ والمرسلات عرفاً . فالعاصفات عصفاً . والناشرات نشرأ .
فالفارقات فرقاً . فالملقىات ذكراً . عذراً أو نذراً ﴾ (المرسلات : ١ - ٦) .
وقال تعالى : ﴿ والنازعات غرقاً . والناشطات نشطاً . والسابحات
سبحاً . فالسابقات سبقاً . فالمدبرات أمراً ﴾ (النازعات : ١ - ٥) .
وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الإقسام به في كتاب :

« التبيان في أقسام القرآن » .

* وإذا عرفت ذلك : فجميع تلك المحبات والحركات والإرادات
والأفعال : هي عبادة منهم لرب الأرض والسموات ، وجميع الحركات
الطبيعية والقسرية تابعة لها ، فلو لا الحب ما دارت الأفلاك ، ولا تحركت
الكواكب النيرات ، ولا هبت الرياح المسخرات ، ولا مرت السحب
الحاملات ، ولا تحركت الأجنة في بطون الأمهات ، ولا انصدع عن الحب
أنواع النبات ، ولا اضطربت أمواج البحار الزاخرات ، ولا تحركت
المدبرات والمقسمات ، ولا سبحت بحمد فاطرها الأرضون والسموات ،
وما فيها من أنواع المخلوقات ، فسبحان من :

﴿ تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا
يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾
(الإسراء : ٤٤) .



فصل

الحب لله وحده

* فإذا عرف ذلك: فكل حى له إرادة ومحبة وعمل بحسبه، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة، ولا صلاح للموجودات إلا بأن تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده ، كما لا وجود لها إلا بإبداعه وحده .

ولهذا قال تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾

(الأنبياء : ٢٢).

ولم يقل سبحانه : « لما وجدنا » أو « لكانتا معدومتين » ، ولا قال : « لعدمتا » ، إذ هو سبحانه قادر أن يقيهما على وجه الفساد ، لكن لا يمكن أن يكونا على وجه الصلاح والاستقامة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودهما، ومعبود ما حوتاه وسكن فيهما ، فلو كان فى العالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد ، فإن كل إله يطلب مغالبة الآخر ، والعلو عليه ، وتفرده دونه بإلهيته ، إذ الشراكة نقص فى كمال الإلهية ، والإله لا يرضى لنفسه أن يكون إلهاً ناقصاً ، فإن قهر أحدهما الآخر ، كان هو الإله وحده ، والمقهور ليس بإله، وإن لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه، ولم يكن تام الإلهية فيجب أن يكون فوقهما إله قاهر لهما حاكم عليهما ، وإلا ذهب كل منهما بما خلق ، وطلب كل منهما العلو على الآخر، وفى ذلك فساد أمر السموات والأرض ومن فيهما ، كما هو المعهود من فساد البلد إذا كان فيه ملكان متكافئان، وفساد الزوجة إذا كان لها بعلان ، والشول إذا كان فيه فحلان.

* وأصل فساد العالم: إنما هو من اختلاف الملوك والخلفاء، ولهذا لم يطمع أعداء الإسلام فيه في زمن من الأزمنة إلا في زمن تعدد ملوك المسلمين واختلافهم، وانفراد كل منهم ببلاد، وطلب بعضهم العلو على بعض .

فصلاح السموات والأرض واستقامتهما، وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام من أظهر الأدلة على أنه: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير ، وأن كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى ، قال الله تعالى :

﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾ (المؤمنون : ٩١ و٩٢).

وقال تعالى : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يستل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ (الأنبياء : ٢١ - ٢٣).

وقال تعالى : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لا بتغوا إلى ذى العرش سيلاً ﴾ (الإسراء : ٤٢).

فقليل: لا بتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى : ﴿ ولعلا بعضهم على بعض ﴾ .

* قال شيخنا - رضى الله عنه - : والصحيح أن المعنى : لا بتغوا إليه سيلاً بالتقرب إليه وطاعته ، فكيف تعبدونهم من دونه ؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون ، لكانوا عبيداً له ، قال : ويدل على هذا وجوه :

منها : قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ (الإسراء : ٥٧) .

أى هؤلاء الذين تعبدونهم من دونى هم عبادى كما أنتم عبادى ، ترجون رحمتى وتخافون عذابى ، فلماذا تعبدونهم من دونى ؟

الثانى: أنه سبحانه لم يقل: « لا بتغوا عليه سيلاً » ، بل قال: ﴿ لا بتغوا إليه سيلاً ﴾ وهذا اللفظ إنما يستعمل فى التقرب ، كقوله تعالى :

﴿ اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ (المائدة : ٣٥) .

وأما فى المغالبة فإنما يستعمل بعلى ، كقوله :

﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ﴾ (النساء : ٣٤) .

والثالث : أنهم لم يقولوا: إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه ، وهو سبحانه قد قال : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون ﴾ وهم إنما كانوا يقولون : إن آلهتهم تبتغى التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه ، فقالوا : لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له ، فلماذا تعبدون عبيده من دونه ؟!



فصل

آثار المحبة

* والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام ، سواء كانت محمودة أو مذمومة ، نافعة أو ضارة ، من الوجد والذوق والحلاوة والشوق والأنس ، والاتصال بالمحبوب والقرب منه ، والانفصال عنه والبعد منه ، والصد والهجران ، والفرح والسرور ، والبكاء والحزن ، وغير ذلك من أحكامها ولوازمها .

* والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة: التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته ، وهذه المحبة هي عنوان السعادة.

* والضارة : هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته ، وهي عنوان الشقاوة .

ومعلوم أن الحى العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه ، وإنما يصدر ذلك عن جهل وظلم ، فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها ، وذلك من ظلم الإنسان لنفسه ، إما بأن تكون جاهلة بحال محبوبها بأن تهوى الشيء وتجبه غير عالة بما فى محبته من المضرة، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم ، وإما عالة بما فى محبته من الضرر، لكن تؤثر هواها على علمها، وقد تتركب محبتها من أمرين :

* اعتقاد فاسد: وهو مدموم ، وهذا حال من اتبع الظن ، وما تهوى الأنفس ، فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل أو اعتقاد فاسد.

* أو هوى غالب ، أو ما تركب من ذلك فأعان بعضه بعضاً، فتنفق شبهة وشهوة ، شبهة يشتبه بها الحق بالباطل، وتزين له أمر المحبوب، وشهوة تدعوه إلى حصوله فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والإيمان والغلبة لأقواهما.

وإذا عرف هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه ، فالمحبة النافعة المحمودة التي هي عنوان سعادة العبد توابعها كلها نافعة له، فحكمها حكم متبوعها ، فإن بكى نفعه ، وإن حزن نفعه ، وإن فرح نفعه ، وإن انقبض نفعه ، وإن انبسط نفعه ، فهو يتقلب فى منازل المحبة وأحكامها فى مزيد وربح وقوة .

* والمحبة الضارة المذمومة: توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها، مبعدة له من ربه ، كيفما تقلب في آثارها، ونزل في منازلها، فهو في خسارة وبعد .

وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة ومعصية ، فكل ما تولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبها وقربة، وكل ما تولد عن المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد ، قال تعالى :

﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظنون موطناً يغيب الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ (التوبة : ١٢٠ و ١٢١) .

فأخبر سبحانه في الآية الأولى : أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح .

وأخبر في الثانية : أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسهم، والفرق بينهما: أن الأول ليس من فعلهم ، وإنما تولد عنه ، فكتب لهم به عمل صالح ، والثاني نفس أعمالهم فكتب لهم .

فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ليعلم ماله وما عليه .

سيعلم يوم العرض أى بضاعة أضاع وعند الوزن ما كان حصلاً



فصل

المحبة أصل كل دين

* وكما أن المحبة والإرادة أصل كل فعل كما تقدم ، فهي أصل كل دين ، سواء أكان حقاً أو باطلاً ، فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة والمحبة والإرادة أصل ذلك كله ، والدين هو الطاعة والعبادة والخلق ، فهو الطاعة اللازمة الدائمة التي صارت خلقاً وعادة ، ولهذا فسر الخلق بالدين في قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) .

وقال الإمام أحمد : عن ابن عينة :

قال ابن عباس : لعلى دين عظيم .

وسئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت :

كان خلقه القرآن (٢٣٨) .

والدين فيه معنى الإذلال والقهر ، وفيه معنى الذل والخضوع والطاعة ، فلذلك يكون من الأعلى إلى الأسفل ، كما يقال : دنته ، فدان ، أى قهرته ، فذل .

[٢٣٨] كان خلقه القرآن .

حسن .

رواه الإمام أحمد (١٨٨/٦) ، والنسائي في «تفسيره» (٤٢٧/١) ، وأبو الشيخ

في «أخلاق النبي ﷺ» (ص: ٢٢) من طريق : عبد الرحمن بن مهدي ، عن معاوية بن

صالح ، عن أبي الزاهرية ، عن جبير بن نفير ، عن عائشة - رضی الله عنها - به .

وسنده حسن .

قال الشاعر :

هو دان الرباب إذ كرهوا الد
ين فأضحوا بعزة وصيال

ويكون من الأدنى إلى الأعلى كما يقال : دنت الله ، ودنت لله ،
وفلان لا يدين الله ديناً ، ولا يدين الله بدين ، فدان الله : أى أطاع الله
وأحبه وخافه ، ودان لله : تخشع له وخضع وذل وانقاد .

والدين الباطن لا بد فيه من الحب والخضوع كالعبادة سواء ، بخلاف
الدين الظاهر ، فإنه لا يستلزم الحب ، وإن كان فيه انقياد وذل فى الظاهر .

وسمى الله سبحانه يوم القيامة : « يوم الدين » فإنه اليوم الذي يدين
فيه الناس بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وذلك يتضمن جزاءهم
وحسابهم ، فلذلك فسروه بيوم الجزاء ويوم الحساب .

وقال تعالى : ﴿ فلولاً إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم

(الواقعة : ٨٦ - ٨٧) .

صادقين ﴿

أى : هلا تردون الروح إلى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين
ولا مجزيين ، وهذه الآية تحتاج إلى تفسير ، فإنها سيقى للاحتجاج عليهم
فى إنكارهم البعث والحساب ، ولابد أن يكون الدليل مستلزماً لمدلولة ،
بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول لما بينهما من التلازم ؛ فكل ملزوم دليل
على لازمه ، ولا يجب العكس .

* ووجه الاستدلال : أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا
بربهم ، وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته ، فإما أن يقرؤا بأن لهم رباً قاهراً
متصرفاً فيهم ، كما سمييتهم إذا شاء ، ويحييهم إذا شاء ، ويأمرهم
وينهاهم ، ويشيب محسنهم ، ويعاقب مسيئهم ، وإما أن لا يقرؤا رب هذا

شأنه، فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور ، والدين الأمرى والجزائى ، وإن أنكروه كفروا به ، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم ، ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد ، فهلا يقدرّون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم ، وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم؟

وهذا خطاب للحاضرين عند المحتضر ، وهم يعاينون موته ، أى : فهلا تردّون الروح إلى مكانها إذا كان لكم قدرة وتصرف ، ولستم بمربوبين ولا بمقهورين لقاهر قادر ، تمضى عليكم أحكامه ، وتنفذ أوامره ، وهذا غاية التعجيز لهم ، إذ بين عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها ، ولو اجتمع على ذلك الثقلان ، فيألفها من آية دالة على ربوبيته سبحانه ووحدانيته ، وتصرفه فى عباده ، ونفوذ أحكامه فيهم ، وجريانها عليهم .

□ الدين دينان .

والدين دينان : دين شرعى أمرى ، ودين حسابى جزائى ، وكلاهما لله وحده .

فالدين كله لله أمراً أو جزاءً ، والمحبة أصل كل واحد من الدينين ، فإن ما شرعه سبحانه وتعالى وأمر به فإنه يحبه ويرضاه ، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه ، لمنافاته لما يحبه ويرضاه ، فهو يحب ضده ، فعاد دينه الأمرى كله إلى محبته ورضاه .

ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبته ورضاه ، كما قال النبى ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً » (٢٣٩) فهذا الدين قائم بالمحبة ، وبسببها شرع ، ولأجلها شرع ، [٢٣٩] ذاق طعم الإيمان ..

صحيح .

رواه الإمام أحمد (٢٠٨/١) ، ومسلم (٦٢/١) ، والترمذى (٢٦٢٣) من حديث العباس بن عبد المطلب - رضى الله عنه - .

وعليها أسس ، وكذلك دينه الجزائي فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه ،
والمسيء بإساءته ، وكل من الأمرين محبوب للرب ، فإنهما عدله وفضله ،
وكلاهما من صفات كماله ، وهو سبحانه يحب صفاته وأسماءه ، ويحب
من يحبها وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم ، الذى هو عليه
سبحانه ، فهو على صراط مستقيم ، فى أمره ونهيه وثوابه وعقابه ، كما قال
تعالى إخباراً عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام إذ قال لقومه :

﴿إِنِّى أَشْهَدُ اللّٰهَ وَأَشْهَدُواْ أَنِّىْ بَرِءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ
فَكِيدُونِىْ جَمِيعًا ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ إِنِّىْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّٰهِ رَبِّىْ وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ
دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَّبِّىْ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (هود: ٥٤-٥٦) .

ولما علم نبي الله هود عليه السلام أن ربه على صراط مستقيم: فى
خلقه وأمره ونهيه وثوابه وعقابه ، وقضائه وقدره ، ومنعه وعطائه ، وعافيته
وبلائه ، وتوفيقه وخذلانه ، لا يخرج فى ذلك عن موجب كماله المقدس ،
الذى تقتضيه أسماؤه وصفاته ، من العدل والحكمة والرحمة والإحسان
والفضل ، ووضع الثواب موضعه ، والعقوبة فى موضعها اللائق بها ،
ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال ، كل ذلك فى
أماكنه ومحاله اللائقة به ، بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء ،
أوجب له ذلك العلم والعرفان ، إذ نادى على رءوس الملأ من قومه بجنان
ثابت ، وقلب غير خائف ، بل متجرد لله : ﴿إِنِّىْ أَشْهَدُ اللّٰهَ وَأَشْهَدُواْ أَنِّىْ
بَرِءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِىْ جَمِيعًا ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ إِنِّىْ تَوَكَّلْتُ
عَلَى اللّٰهِ رَبِّىْ وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَّبِّىْ عَلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ﴾ (هود : ٥٤ - ٥٦) .

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه ، وذلل كل شيء

لعظمته، فقال : ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾ فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره، وهو في قهره وقبضته وتحت قهره وسلطانه دونه ؟ وهل هذا إلا من أجهل الجهل وأقبح الظلم ؟

ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم في كل ما يقضيه ويقدره، فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه ، فلا أخاف ما دونه، فإن ناصيته بيده ، ولا أخاف جوره وظلمه فإنه على صراط مستقيم ، فهو سبحانه ماض في عبده حكمه، وعدل فيه قضاؤه ، له الملك وله الحمد ، ولا يخرج في تصرفه في عبادته عن العدل والفضل ، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعدله وحكمته ، وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا .

وفي الحديث الصحيح : « ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري ، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي ، إلا أذهب الله همه وغمه ، وأبدله مكانه فرجاً » ، قالوا : يا رسول الله ألا نتعلمهن ؟ قال : « بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن » (*) .

وهذا يتناول حكم الرب الكوني والأمرى وقضائه الذي يكون باختيار العبد وغير اختياره وكلا الحكمين ماض في عبده، وكلا القضاءين عدل فيه: فهذا الحديث مشتق من هذه الآية بينهما أقرب نسب .



[*] ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن..

سبق تخريجه برقم (٣٣).

فصل

عشق الصور

* ونختم الجواب بفنصل متعلق بعشق الصور ، ومافيه من المفسد العاجلة والآجلة ، وإن كانت أضعاف ما ذكره ذاكر ، فإنه يفسد القلب بالذات ، وإذا فسد القلب فسدت الإرادات والأقوال والأعمال ، وفسد ثغر التوحيد كما تقدم ، وكما سنقرره أيضاً إن شاء الله تعالى .

والله سبحانه وتعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس ، وهم: اللوطية والنساء ، فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف ، وما راودته وكادته به ، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه؛ مع أن الذي ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله ، فإن واقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع ، وكان الداعي ها هنا في غاية القوة ، وذلك من وجوه .

أحدها : ما ركبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة ، كما يميل العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام ، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء ، وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً ، بل يحمد كما في «كتاب الزهد» للإمام أحمد: من حديث يوسف بن عطية الصفار، عن ثابت البناني، عن أنس، عن النبي ﷺ: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن» (٢٤٠)

[٢٤٠] حبب إلي من دنياكم..

منكر جداً بهذا اللفظ.

فإن فيه يوسف بن عطية الصفار ، وهو وإه ، قال ابن معين : « ليس بشيء » ، وقال البخاري : « منكر الحديث » ، وقال الحاكم : « روى عن ثابت أحاديث مناكير » ، وقال ابن حبان : « يقلب الأخبار ، ويلزق المتون الموضوعة بالأسانيد الصحيحة ، لا يجوز الاحتجاج به » .

الثانى : أن يوسف عليه السلام كان شاباً ، وشهوة الشاب وحدته أقوى .

الثالث : أنه كان عزباً ليس له زوجة ولا سرية تكسر قوة الشهوة .

الرابع : أنه كان فى بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له فى وطنه بين أهله ومعارفه .

الخامس : أن المرأة كانت ذات منصب وجمال ، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها .

السادس : أنها غير ممتنعة ولا أبية ، فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته فى المرأة إباؤها وامتناعها ، لما يجد فى نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحباً ، كما قال الشاعر :

وزادنى كلفاً فى الحب أن منعت أحب شىء إلى الإنسان ما منعا

فطباع النفس مختلفة ، فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ، ويضمحل عند إباؤها وامتناعها ، وأخبرنى بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع امرأته أو سريته وإباؤها ، بحيث لا يعاودها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه كلما منع ، ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل له من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره ، واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها .

السابع : أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد ، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها ، بل كانت هى الراغبة الذليلة ، وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن : أنه فى دارها وتحت سلطانها وقهرها ، بحيث يخشى إن لم

يطاوعها من أذاها له ، فاجتمع داعى الرغبة والرغبة .

التاسع : أنه لا يخشى أن تنم عليه هى ولا أحد من جهتها ، فإنها هى الطالبة الراغبة وقد غلقت الأبواب وغيت الرقباء .

العاشر : أنه كان فى الظاهر مملوكاً لها فى الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه ، وكان الأنس سابقاً على الطلب ، وهو من أقوى الدواعى ، كما قيل لا امرأة شريفة من أشراف العرب : ما حملك على الزنى ؟ قالت : قرب الوساد وطول السرار ، تعنى قرب وساد الرجل من وسادتى ، وطول السرار بيننا .

الحادى عشر : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتتيال ، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن فقال :

﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾

(يوسف : ٣٣) .

الثانى عشر : أنها توعدته بالسجن والصغار ، وهذا نوع إكراه ، إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعى الشهوة ، وداعى السلامة من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر : أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلاً منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف : ﴿ أعرض عن هذا ﴾ ، وللمرأة : ﴿ استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع ، وهذا لم يظهر منه غيرة .

ومع هذه الدواعى كلها فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى .

﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ (يوسف : ٣٣) .
وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه ، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين ، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه .

وفى هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الألف فائدة ،
لعلنا إن وفق الله أن نفردها فى مصنف مستقل .



فصل

عشق اللوطية

* والطائفة الثانية ، الذين حكى الله عنهم العشق : هم اللوطية ، كما
قال تعالى :

﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون
واتقوا الله ولا تخزون قالوا أولم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتى إن
كنتم فاعلين لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾ (الحجر: ٦٧-٧٢) .
فهذه الأمة عشقت ، فحكاه سبحانه عن طائفتين ، عشق كل منهما ما
حرم عليه من الصور ولم ييال بما فى عشقه من الضرر .

وهذا داء أعياء الأطباء دواؤه ، وعز عليهم شفاؤه ، وهو لعمر الله الداء
العضال ، والسم القتال ، الذى ما علق بقلب إلا وعز على الورى خلاصه من
إساره ، ولا اشتعلت ناره فى مهجة ، إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره
* وهو أقسام : تارة يكون كفراً : كمن اتخذ معشوقه نداً ، يحبه .
كما يحب الله ، فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله فى قلبه ؟ فهذا

عشق لا يغفر لصاحبه ، فإنه من أعظم الشرك ، والله لا يغفر أن يشرك به ، وإنما يغفر بالتوبة الماحية ما دون ذلك .

*** وعلامة العشق الشركى الكفرى:** أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على رضاء ربه، وإذا تعارض عنده حق معشوقه وحظه، وحق ربه وطاعته ، قدم حق معشوقه على حق ربه ، وآثر رضاه على رضاه، وبذل له أنفس ما يقدر عليه وبذل لربه - إن بذل - أردأ ما عنده ، واستفرغ وسعه في مرضاة معشوقه وطاعته ، والتقرب إليه ، وجعل لربه - إن أطاعه - الفضلة التى تفضل عن معشوقه من ساعاته .

فتأمل حال أكثر عشاق الصور تجدها مطابقة لذلك ، ثم ضع حالهم فى كفة ، وتوحيدهم وإيمانهم فى كفة ، ثم زن وزناً يرضى الله به ورسوله ويطابق العدل ، وربما صرح العاشق منهم بأن وصل معشوقه أحب إليه من توحيده ربه ، كما قال العاشق الخبيث :

يترشفن من فمى رشقات **هن أحلى فيه من التوحيد**

وكما صرح الخبيث الآخر أن وصله أشهى إليه من رحمة ربه، وقد

مر .

ولا ريب أن هذا العشق من أعظم الشرك ، وكثير منهم يصرح بأنه لم يبق فى قلبه موضع لغير معشوقه ألبتة ، بل قد ملك عليه قلبه كله فصار عبداً محضاً من كل وجه لمعشوقه ، فقد رضى هذا من عبودية الخالق جل جلاله بعبودية مخلوق مثله ، فإن العبودية هى كمال الحب والخضوع ، وهذا قد استفرغ قوة حبه وخضوعه وذله لمعشوقه فقد أعطاه حقيقة العبودية .

ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة ، فإن تلك ذنب كبير لفاعله حكم أمثاله، ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك ، وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول : لأن أبتلى بالفاحشة مع تلك الصورة أحب إلى من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبى ، ويشغله عن الله .

فصل

دواء العشق

* ودواء هذا الداء القتال : أن يعرف أن ما ابتلى به من هذا الداء المضاد للتوحيد ، إنما هو من جهله ، وغفلة قلبه عن الله تعالى ، فعليه أن يعرف توحيد ربه وسننه وآياته أولاً ، ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكرة فيه ، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه ، وأن يراجع بقلبه إليه ، وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله ، وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ (يوسف : ٢٤) .

وأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق ، والفحشاء من الفعل بإخلاصه ، فإن القلب إذا أخلص ، وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور ، فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ ، كما قال :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها ، وإعدام المفاسد وتقليلها ، فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه مصلحة ومفسدة ، وجب عليه أمران : أمر علمي ، وأمر عملي ، فالعلمي معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة ، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إثارة الأصلح له .

■ أضرار العشق .

* ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية ، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة ، وذلك من وجوه :

أحدها : الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالى وذكره ، فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما الآخر ، ويكون السلطان والغلبة له .

الثاني : عذاب قلبه به ، فإن من أحب شيئاً غير الله عذب به ولا بد ، كما قيل :

فما في الأرض أشقى من محب	وإن وجد الهوى حلوا المذاق
تراه باكياً في كل حين	مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم	ويكي إن دنوا حذر الفراق
فتسخن عينه عند الفراق	وتسخن عينه عند التلاق

والعشق ، وإن استعذبه صاحبه ، فهو من أعظم عذاب القلب .
الثالث : أن قلبه أسير في قبضة غيره يسومه الهوان ، ولكن لسكرته لا يشعر بمصابه ، فقلبه كعصفورة في كف طفل يسومها حياض الردى ، والطفل يلهو ويلعب ، كما قال بعض هؤلاء :

ملكك فؤادى بالقطيعة والجفا	وأنت خلى البال تلهو وتلعب
فعيش العاشق عيش الأسير الموثق ، وعيش الخلى عيش المسيب المطلق	

* * *

طليق برأى العين وهو أسير	عليل على قطب الهلاك يدور
وميت يرى في صورة الحى غادياً	وليس له حتى النشور نشور
أخو غمرات ضاع فيهن قلبه	فليس له حتى الممات حضور

الرابع : أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه ، فليس شيء أضيع

لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور ، أما مصالح الدين فإنها منوطة بلم
شعث القلب وإقباله على الله ، وعشق الصور أعظم شىء تشعيثاً وتشتيتاً له .
وأما مصالح الدنيا فهي تابعة فى الحقيقة لمصالح الدين ، فمن انفرطت
عليه مصالح دينه وضاعت عليه ، فمصالح دنياه أضيع وأضيع .

الخامس : أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار
فى يابس الخطب ، وسبب ذلك : أن القلب كلما قرب من العشق وقوى
اتصاله به بعد من الله ، فأبعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور ، وإذا
بعد القلب من الله طرقت الآفات ، وتولاه الشيطان من كل ناحية واستولى
عليه ، لم يدع أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله ، فما الظن بقلب تمكن منه
عدوه ، وأحرص الخلق على غيه وفساده ، وبعد منه وليه ، ومن لا سعادة
ولا فلاح ولا سرور إلا بقربه وولايته ؟

السادس : أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوى سلطانه ، أفسد
الذهن وأحدث الوسواس ، وربما ألحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت
عقولهم فلا ينتفعون بها .

وأخبار العشاق فى ذلك موجودة فى مواضعها ، بل بعضها مشاهد
بالعيان ، وأشرف ما فى الإنسان عقله ، وبه يتميز عن سائر الحيوانات ، فإذا
عدم عقله التحق بالحيوان البهيم ، بل ربما كان حال الحيوان أصلح من
حاله ، وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه إلا ذلك ؟ وربما زاد جنونه
على جنون غيره كما قيل :

قالوا : جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون فى الحين

السابع : أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها ، إما إفساداً معنوياً أو صورياً ، أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب ، فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان ، فيرى القبيح حسناً منه ومن معشوقه ، كما في «المسند» مرفوعاً : «حبك الشيء يعمى ويصم» (٢٤١) فهو يعمى عين القلب عن رؤية مساوئ المحبوب وعيوبه ، فلا ترى العين ذلك ، ويصم أذنه عن الإصغاء إلى العذل فيه ، فلا تسمع الأذن ذلك ، والرغبات تستر العيوب فالراغب في الشيء لا يرى عيوبه ، حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه ، فشدة الرغبة غشاوة على العين ، تمنع من رؤية الشيء على ما هو به ، كما قيل :

هويتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

والداخل في الشيء لا يرى عيوبه ، والخارج منه الذي لم يدخل فيه لا يرى عيوبه ، ولا يرى عيوبه إلا من دخل فيه ثم خرج منه ، ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيراً من الذين ولدوا في الإسلام .

[٢٤١] حبك الشيء يعمى ويصم.

منكر.

رواه الإمام أحمد (٥/١٩٤ و ٦/٤٥٠) ، وأبو داود (٥١٣٠) ، وابن عدى في «الكامل» (٤٧٢/٢) من طريق : أبي بكر بن أبي مریم ، عن خالد بن محمد الثقفي ، عن بلال بن أبي الدرداء ، عن أبي الدرداء مرفوعاً به .

قلت : وهذا سند منكر ، تفرد به أبو بكر بن أبي مریم ، وهو ضعيف .

وانظر تفصيل الكلام عليه في كتابنا : «النقد الصريح لأجوبة الحافظ ابن حجر عن أحاديث المصاييح» (ص : ٧٠) .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنما تنتقض عرى الإسلام عروة عروة إذا ولد فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية .

وأما فساد الحواس ظاهراً ، فإنه يمرض البدن وينهكه ، وربما أدى إلى تلفه ، كما هو المعروف من أخبار من قتلهم العشق ، وقد رفع إلى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انتحل حتى عاد جلدأ على عظم ، فقال : ما شأن هذا ؟ قالوا : به العشق ، فجعل ابن عباس يستعيز بالله من العشق عامة يومه .

الثامن : أن العشق كما تقدم هو الإفراط فى المحبة ، بحيث يستولى المعشوق على قلب العاشق ، حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه ، بحيث لا يغيب عن خاطره وذنه ، فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوة الحيوانية والنفسانية ، فتتعطل تلك القوة ، فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يعز دواؤه ويتعذر ، فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده ، ويختل جميع ذلك ، فتعجز البشر عن صلاحه ، كما قيل :

الحب أول ما يكون لجابة يأتي بها وتسوقه الأقدار
حتى إذا خاض الفتى لجح الهوى جاءت أمور لا تطاق كبار
والعشق مبادئه سهلة حلوة ، وأوسطه هم وشغل قلب وسقم ، وآخره عطب وقتل ، إن لم تتداركه عناية من الله تعالى ، كما قيل :

وعش خالياً فالحب أوله عنى وأوسطه سقم ، وآخره قتل
وقال الآخر :

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة فلما تمكن منها غرق
والذنب له ، فهو الجانى على نفسه ، وقد قعد تحت المثل السائر :
«يداك أوكنا ، وفوك نفخ» .

فصل

مقامات العشق

* والعاشق له ثلاثة مقامات : مقام ابتداء ، ومقام توسط ، ومقام انتهاء .

فأما مقام ابتدائه قالوا : يجب عليه فيه مدافعته بكل ما يقدر عليه إذا كان الوصول إلى معشوقه متعذراً قدرأً وشرعاً ، فإن عجز عن ذلك وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه - وهذا مقام التوسط والانتهاء - فعليه كتمان ذلك ، وأن لا يفشيئه إلى الخلق ، ولا يشمت بمحبوبه ويهتكه بين الناس ، فيجمع بين الشرك والظلم ، فإن الظلم فى هذا الباب من أعظم أنواع الظلم ، وربما كان أعظم ضرراً على المعشوق وأهله من ظلمه فى ماله، فإنه يعرض المعشوق بهتكه فى عشقه إلى وقوع الناس فيه وانقسامهم إلى مصدق ومكذب، وأكثر الناس يصدق فى هذا الباب بأدنى شبهة، وإذا قيل: فلان فعل بفلان أو بفلانة ، كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعون .

وخبر العاشق المتهتك عند الناس فى هذا الباب يفيد القطع اليقيني ، بل إذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذباً وافترأً على غيره جزموا بصدقه جزماً لا يحتمل النقيض ، بل لو جمعهما مكان واحد اتفاقاً ، لجزموا أن ذلك عن وعد واتفاق بينهما ، وجزمهم فى هذا الباب على الظنون والتخيل والشبه والأوهام والأخبار الكاذبة، كجزمهم بالحسيات المشاهدة ، وبذلك وقع أهل الإفك فى الطيبة المطيبة حببية رسول الله ﷺ المبرأة من فوق سبع سماوات ، بشبهة مجيء صفوان بن المعطل بها وحده خلف العسكر حتى هلك من هلك ، ولولا أن تولى الله سبحانه وتعالى براءتها والذب عنها وتكذيب قاذفها ، لكان أمراً آخر .

* والمقصود : أن في إظهار المبتلى عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه وأذاه ما هو عدوان عليه وعلى أهله ، وتعريض لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه ، فإن استعان عليه بمن يستميله إليه ، إما برغبة أو رهبة تعدى الظلم وانتشر ، وصار ذلك الوسطة ديوثاً ظالماً ، وإذا كان النبي ﷺ قد لعن الرائيث - وهو الوسطة بين الراشي والمرثى في إيصال الرشوة - فما ظنك بالديوث الوسطة بين العاشق والمعشوق في الوصل ، فيتساعد العاشق والديوث على ظلم المعشوق وظلم غيره ممن يتوقف حصول غرضه على ظلمه في نفس أو مال أو عرض ؟ فإنه كثيراً ما يتوقف المطلوب فيه على قتل نفس يكون حياتها مانعة من غرضه ، وكم من قتيل ظل دمه بهذا السبب من زوج وسيد وقريب ، وكم خببت امرأة على بعلمها ، وجارية وعبد على سيدهما ، وقد لعن رسول الله ﷺ من فعل ذلك وتبرأ منه ، وهو من أكبر الكبائر .

وإذا كان النبي ﷺ قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه ، أو أن يستام على سوم أخيه ، فكيف بمن يسعى في التفريق بين رجل وبين امرأته وأمته حتى يتصل بهما ؟

وعشاق الصور ومساعدوهم من الديايشة لا يرون ذلك ذنباً ، فإن طلب العاشق وصل معشوقه ومشاركة الزوج والسيد ، ففي ذلك من إثم ظلم الغير ما لعله لا يقصر عن إثم الفاحشة ، إن لم يرب عليها ، ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة ، فإن التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق له المطالبة به يوم القيامة ، فإن من ظلم الوالد إفساد ولده وفلذة كبده ومن هو أعز عليه من نفسه ، فظلم الزوج بإفساد حبيبته ، والجنابة على فراشه ، أعظم من ظلمه بأخذ ماله كله ، ولهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه أخذ ماله ، ولا يعدل ذلك عنده إلا سفك دمه ، فيا له من ظلم أعظم إثمًا من فعل الفاحشة ، فإن كان ذلك حقًا لغاز في سبيل الله وقف له الجاني

الفاعل يوم القيامة ، وقيل له : « خذ من حسناته ما شئت » كما أخبر بذلك
النبي ﷺ .

ثم قال النبي ﷺ : « فما ظنكم ؟ » (٢٤٢) أى فما تظنون يبقى له من
حسناته ؟ فإن انضاف إلى ذلك أن يكون المظلوم جاراً ، أو ذا رحم محرم ،
تعدد الظلم فصار ظلماً مؤكداً لقطيعة الرحم وإيذاء الجار ولا يدخل الجنة
قاطع رحم ولا من لا يأمن جاره بوائقه .

فإن استعان العاشق على وصال معشوقه بشياطين من الجن - إما
بسحر أو استخدام أو نحو ذلك - ضم إلى الشرك والظلم كفر السحر ، فإن
لم يفعله هو ورضى به كان راضياً بالكفر غير كاره لحصول مقصده ، وهذا
ليس يبيعد من الكفر .

* والمقصود: أن التعاون فى هذا الباب ، تعاون على الإثم والعدوان .

وأما ما يقترن بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدى ضرره
فأمر لا يخفى ، فإنه إذا حصل له مقصوده من المعشوق فللمعشوق أغراض
آخر يريد من العاشق إعانته عليها ، فلا يجد من إعانته بدأ ، فيبقى كل
منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان ، فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من
يتصل به من أهله وأقاربه وسيدته وزوجه ، والعاشق يعين المعشوق على ظلم
من يكون غرض المعشوق متوقفاً على ظلمه ، فكل منهما يعين الآخر على

[٢٤٢] فما ظنكم .

صحيح .

رواه مسلم (١٥٠٨/٣) ، وأبو داود (٢٤٩٦) ، والنسائي (٥١/٦) من طريق : قعنب ،
عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان بن بريدة ، عن أبيه مرفوعاً : « حرمة نساء المجاهدين على
القاعدين كحرمة أمهاتهم ، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين فى أهله
إلا نصب له يوم القيامة ، فقيل له : هذا قد خلفك فى أهلك ، فخذ من حسناته ما شئت » ،
فالتفت إلينا رسول الله ﷺ ، فقال : « ما ظنكم ؟ » .

أغراضه التى فيها ظلم الناس ، فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما فى القبح لتعاونهما بذلك على الظلم ، كما جرت به العادة بين العشاق والمعشوقين ، من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه من ظلم وعدوان وبغى ، حتى ربما يسعى له فى منصب لا يليق به ولا يصلح لمثله ، وفى تحصيل مال من غير حله ، وفى استغلاله على غيره ، فإذا اختصم معشوقه وغيره أو تشاكيا لم يكن إلا فى جانب المعشوق ظالماً كان أو مظلوماً ، هذا إلى ما ينضم إلى ذاك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم ، والتوصل بها إلى معشوقه بسرقة أو غصب أو خيانة أو يمين كاذبة أو قطع طريق ونحو ذلك ، وربما أدى ذلك إلى قتل النفس التى حرم الله لياخذ ماله ليتوصل به إلى معشوقه .

* فكل هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ من عشق الصور وربما حمل على الكفر الصريح ، وقد تنصر جماعة ممن نشأوا فى الإسلام بسبب العشق ، كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصر امرأة جميلة على سطح ، ففتن بها ونزل ودخل عليها وسألها نفسها ، فقالت : هى نصرانية ، فإن دخلت فى دينى تزوجت بك ، ففعل ، فرقى فى ذلك اليوم على درجة عندهم فسقط منها فمات ، ذكر هذا عبد الحق فى كتاب العاقبة له .

وإذا أراد النصرارى أن ينصروا الأسير أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه فى نفسها ، حتى إذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها إن دخل فى دينها فهناك :

﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ (إبراهيم : ٢٧) .

وفى العشق من ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه بمعاونته على الفاحشة وظلمه لنفسه ، ما فيه ، وكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه ، وظلمهما متعدد إلى الغير ، كما تقدم ، وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك ، فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها .

والمعشوق إذا لم يتق الله فإنه يعرض العاشق للتلف وذلك ظلم منه ، بأن يطمعه فى نفسه ، ويتزين له ويستميله بكل طريق حتى يستخرج منه ماله ونفعه ولا يمكنه من نفسه ، لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه ، فهو يسومه سوء العذاب ، والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفى نفسه منه ، ولا سيما إن جاد بالوصال لغيره ، فكم للعشق من قتل من الجانبين ! وكم أزال من نعمة ، وأفقر من غنى ، وأسقط من مرتبة ، وشتت من شمل ! وكم أفسد من أهل للرجل وولده ! فإن المرأة إذا رأت بعلمها عاشقاً لغيرها اتخذت هى معشوقاً لنفسها ، فيصير الرجل متردداً بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة ، فمن الناس من يؤثر هذا ، ومنهم من يؤثر هذا .

* **فعلى العاقل :** أن لا يحكم على نفسه عشق الصور ، لئلا يؤديه ذلك إلى هذه المفاسد أو أكثرها أو بعضها ، فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه المغرور بها ، فإذا هلكت فهو الذى أهلكها ، فلولا تكرراره النظر إلى وجه معشوقه وطمعه فى وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه ، فإن أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظر أو سماع ، فإن لم يقارنه طمع فى الوصال وقارنه الإيأس من ذلك لم يحدث له العشق ، فإن اقترن به الطمع ، فصرفه عن فكره ، ولم يشتغل قلبه به ، لم يحدث له ذلك ، فإن أطال مع ذلك الفكر فى محاسن المعشوق وقارنه خوف ما هو أكبر عنده من لذة وصاله ، إما خوف دينى كدخول النار وغضب الجبار واحتقاب الأوزار وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر ، لم يحدث له ذلك العشق ، فإن فاته هذا الخوف فقارنه خوف دنيوى ، كخوف إتلاف نفسه أو ماله أو

ذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس، وسقوطه من عين من يعز عليه ،
وغلب هذا الخوف لداعى العشق دفعه ، وكذلك إذا خاف من فوات
محبوب هو أحب إليه وأنفع من ذلك المعشوق، وقدم محبته على محبة
ذلك المعشوق ، اندفع عنه العشق ، فإن انتفى ذلك كله وغلبت محبة
المعشوق لذلك ، انجذب إليه القلب بكليته ، ومالت إليه النفس كل الميل .

* فإن قيل : قد ذكرتم آفات العشق ومضاره ومفاسده ، فهلا ذكرتم
منافعه وفوائده التى من جملتها : رقة الطبع ، وترويح النفس ، وخفتها ،
وزوال ثقلها ، ورياضتها ، وحملها على مكارم الأخلاق ، من الشجاعة
والكرم والمروءة ورقة الحاشية ولطف الجانب ؟ .

وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازى : إن ابنك قد عشق فلانة ، فقال :
الحمد لله الذى صيره إلى طبع آدمى .

وقال بعضهم : العشق دواء أفدة الكرام .

وقال غيره : العشق لا يصلح إلا لذى مروءة ظاهرة ، وخليقة طاهرة ،
أو لذى لسان فاضل وإحسان كامل ، أو لذى أدب بارع ، وحسن ناصع .

وقال آخر : العشق يشجع جنان الجبان ، ويصفى ذهن الغبى ،
ويسخى كف البخيل ، ويذل عزة الملوك ، ويسكن نوافر الأخلاق ،
وهو أنيس من لا أنيس له ، وجليس من لا جليس له .

وقال آخر : العشق يزيل الأثقال ، ويلطف الروح ، ويصفى كدر
القلب ، ويوجب الارتياح لأفعال الكرام ، كما قال الشاعر :

سيهلك فى الدنيا شفيق عليكم	إذا غاله من جانب الحب غائله
كريم يميت السر ، حتى كأنه	إذا استفهموه عن حديثك جاهله
يود بأن يمسى سقيماً لعلها	إذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويهتز للمعروف فى طلب العلا	لتحمد يوماً عند ليلي شمائله

فالعشق يحمل على مكارم الأخلاق .

وقال بعض العلماء الحكماء : العشق يروض النفس ، ويهذب الأخلاق ، وإظهاره طبيعي ، وإضماره تكليفي .

وقال آخر : من لم يهيج نفسه بالصوت الشجي والوجه البهي ، فهو فاسد المزاج ، يحتاج إلى علاج ، وأنشدوا في ذلك :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فما لك في طيب الحياة نصيب
وقال آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فأنت وعير في الفلاة سواء
وقال آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فقم فاعتلف تبناً فأنت حمار
وقال بعض العشاق أولو العفة والصيانة : عفوا تشرفوا ، واعشقوا تظفروا .

وقيل لبعض العشاق : ما كنت تصنع لو ظفرت بمن تهوى ؟ فقال :
كنت أمتع طرفي بوجهه ، وأروح قلبي بذكره وحديثه ، وأستر منه ما لا
يحب كشفه ، ولا أصير بقبيح الفعل إلى ما ينقض عهده ثم أنشد :

أخلو به فأعف عنه تكرماً خوف الديانة لست من عشاقه
كالماء في يد صائم يلتذه ظمأً فيصبر عن لذيق مذاقه

وقال أبو إسحاق بن إبراهيم : أرواح العشاق عطرة لطيفة ، وأبدانهم رقيقة خفيفة ، نزهتهم المؤانسة ، وكلامهم يحيى موات القلوب ، ويزيد في العقول ، ولولا العشق والهوى لبطل نعيم الدنيا .

وقال آخر : العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان ، إن تركته ضرك ،
وإن أكثرته منه قتلك ، وفي ذلك قيل :

خليلى إن الحب فيه لذاعة
وفيه شقاء دائم وكروب
على ذاك ما عيش يطيب بغيره
ولا عيش إلا بالحبيب يطيب
ولا خير فى الدنيا بغير صباة
ولا فى نعيم ليس فيه حبيب

وذكر الخرائطى عن أبى غسان قال : مر أبو بكر الصديق - رضى الله
عنه - بجارية وهى تقول :

وهويته من قبل قطع تئامى
متمائلاً مثل القضيب الناعر
فسألها : أحره أنت أم مملوكة ؟ قالت : بل مملوكة ، فقال : من
هواك ؟ فتلكأت فأقسم عليها فقالت :

وأنا التى لعب الهوى بفؤادها
قتلت بحب محمد بن القاسم

فاشتراها من مولاها ، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن
أبى طالب فقال : هؤلاء فتن الرجال ، وكم والله قد مات بهن كريم ،
وعطب بهن سليم .

وجاءت جارية إلى عثمان بن عفان - رضى الله عنه - تستعدى على
رجل من الأنصار ، فقال لها عثمان : ما قصتك ؟ قالت : كلفت يا أمير
المؤمنين بابن أخيه ، فما أنفك أراعيه ، فقال عثمان : إما أن تهيبها لابن
أخيكَ ، أو أعطيك ثمنها من مالى ، فقال : أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له .

* ونحن لا ننكر فساد العشق الذى متعلقه فعل الفاحشة بالمعشوق ،
ولمّا الكلام فى العشق العفيف ، من الرجل الظريف ، الذى يأبى له دينه

وعفته ، ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله ، وما بينه وبين معشوقه بالحرام ، وهذا عشق السلف الكرام والأئمة الأعلام ، هذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره ، ولم ينكر عليه ، وعد ظالماً من لأمه ، ومن شعره :

كتمت الهوى حتى أضربك الكتم	ولامك أقوام ولومهم ظلم
فم عليك الكاشحون ، وقبلهم	عليك الهوى قد نم ، لو ينفع الكتم
فأصبحت كالهندي إذ مات حسرة	على إثر هند أو كمن شفه سقم
تجنبت إتيان الحبيب تائماً	ألا إن هجران الحبيب هو الإثم
فذق هجرها ، قد كنت تزعم أنه	رشاد ، ألا يا ربما كذب الزعم

وهذا عمر بن عبد العزيز ، وعشقه مشهور لجارية فاطمة بنت عبد الملك وكانت جارية بارعة الجمال ، وكان معجباً بها ، وكان يطلبها من امرأته ، ويحرص على أن تهبها له ، فتأبى ، ولم تزل الجارية في نفس عمر ، فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية فأصلحت ، وكانت مثلاً في حسنها وجمالها ، ثم دخلت على عمر ، وقالت : يا أمير المؤمنين إنك كنت معجباً بجاريتي فلانة ، وسألتها فأبيت عليك ، والآن قد طابت نفسي لك بها ، فلما قالت له ذلك استبان الفرح في وجهه وقال : عجلي عليَّ بها ، فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجباً ، وقال لها : ألقى ثيابك ففعلت ، ثم قال لها : على رسلك ، أخبريني لمن كنت ؟ ومن أين صرت لفاطمة ؟ فقالت : أغرم الحجاج عاملاً له بالكوفة مالاً ، وكنت في رقيق ذلك العامل فأخذني ، وبعث بي إلى عبد الملك ، فوهبني لفاطمة ، قال : وما فعل ذلك العامل ؟ قالت : هلك ، قال : وهل ترك ولدًا ؟ قالت : نعم ، قال : فما حالهم ؟

قالت : سيئة ، فقال : شدى عليك ثيابك واذهبى إلى مكانك ، ثم كتب إلى عامله على العراق : أن ابعث إلى فلان بن فلان على البريد ، فلما قدم قال له : ارفع إلى جميع ما أغرمه الحجاج لأبيك ، فلم يرفع إليه شيئاً إلا دفعه إليه ، ثم أمر بالجارية فدفعته إليه ، ثم قال له : إياك وإياها ، فلعل أباك قد ألم بها ، فقال الغلام : هى لك يا أمير المؤمنين ، قال : لا حاجة لى بها ، قال : فابتعها منى ، قال : لست إذاً ممن نهى النفس عن الهوى ، فلما عزم الفتى على الانصراف بها ، قالت : أين وجدك بى يا أمير المؤمنين ؟ قال : على حاله ، ولقد زاد ، ولم تزل الجارية فى نفس عمر ، حتى مات رحمه الله .

وهذا أبو بكر محمد بن داود الظاهرى العالم المشهور فى فنون العلم : من الفقه ، والحديث ، والتفسير ، والأدب وله قول فى الفقه ، وهو من أكابر العلماء وعشقه مشهور .

قال نفطويه : دخلت عليه فى مرضه الذى مات فيه ، فقلت : كيف تجدك ؟ فقال : حب من تعلم أورثنى ما ترى فقلت : وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ فقال : الاستمتاع على وجهين : أحدهما : النظر المباح ، والآخر : اللذة المحظورة ، فأما النظر المباح فهو الذى أورثنى ما ترى ، وأما اللذة المحظورة فيمنعنى منها ما حدثنى أبى ، وحدثنا سويد بن سعد ، حدثنا على بن مسهر عن أبى يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه :

« من عشق وكنم ، وعف وصبر ، غفر الله له وأدخله الجنة » (*) .

(*) من عشق وكنم وعف ..

موضوع .

وسوف يأتى الكلام عليه قريباً .

ثم أنشد :

انظر إلى السحر يجرى فى لوحظه وانظر إلى شعرات فوق عارضه
وانظر إلى دمع فى طرفه الساجى كأنهن نمال دب فى عاج
ثم أنشد :

ما لهم أنكروا سواداً بخديه ولا ينكرون ورد الفصون ؟
إن يكن عيب خده برد الشعر فعيب العيون شعر الجفون

فقلت له : نفيت القياس فى الفقه وأثبتته فى الشعر ؟ فقال : غلبة
الوجد وملكة النفس دعت إليه ، ثم مات من ليلته ، وبسبب معشوقه صنف
كتاب الزهرة .

ومن كلامه فيه : من يئس ممن يهواه ولم يمِت من وقته سلاه ، وذلك
أن أول روعات اليأس تأتى القلب وهو غير مستعد لها ، فأما الثانية فتأتى
القلب وقد وطأته لها الروعة الأولى .

والتقى هو وأبو العباس بن سريج فى مجلس أبى الحسن على بن
عيسى الوزير ، فتناظرا فى مسألة من الإيلاء ، فقال له ابن سريج : أنت بأن
تقول : من دامت لحظاته كثرت حسراته ، أحذق منك بالكلام على الفقه ،
فقال : لئن كان ذلك فإنى أقول :

أنزه فى روض المحاسن مقلتى وأمنع نفسى أن تنال محرما
وأحمل من ثقل الهوى مالى أنه يصب على الصخر الأصم تهديما
وينطق طرفى عن مترجم خاطري فلولا اختلاسى وده لتكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم فلست أرى وداً صحيحاً مسلماً

فقال له أبو العباس بن سريج : بم تفخر على ؟ ولو شئت لقلت :

ومطاعم كالشهد في نعماته قد بت أمنعه لذيد سناته
بصباة وبحسنه وحديثه وأنزه اللحظات عن وجناته
حتى إذا ما الصبح لاح عموده ولى بخاتم ربه وبراته

فقال أبو بكر : يحفظ عليه الوزير ما أقر به حتى يقيم شاهدين على أنه ولى بخاتم ربه وبراءته ، فقال ابن سريج : يلزمنى فى هذا ما يلزمك فى قولك :

أنزه فى روض المحاسن مقلتى وأمنع نفسى أن تنال محرما
فضحك الوزير ، وقال : لقد جمعتما لطفاً وظرفاً وذكر ذلك أبو بكر الخطيب فى تاريخه وجاءته يوماً فتياً مضمونها :

يا ابن داود ، يا فقيه العراق أفتنا فى قواتل الأحداق
هل عليها بما أتت من جناح أم حلال لها دم العشاق ؟

فكتب الجواب بخطه تحت البيتين ، فقال :

عندى جواب مسائل العشاق فاسمعه من قرح الحشا مشتاق
لما سألت عن الهوى هيجتنى وأرقت دمعاً لم يكن بمراق
إن كان معشوقاً يعذب عاشقاً كان المعذب أنعم العشاق

قال صاحب كتاب «منازل الأحياب» شهاب الدين محمد بن سليمان بن فهد صاحب كتاب «الإنشاء» : رقلت فى جواب البيتين على قافيتهما مجيباً :

قل لمن جاء سائلاً عن لحاظ هن يلعبن في دم العشاق
ما على السيف في الورى من جناح إن ثنى الحد عن دم مهراق
وسيوف اللحاظ أولى بأن تصفح عما جنت على العشاق
إنما كل من قتلن شهيد ولهذا يفنى ضناً وهو باق

ونظير ذلك فتوى وردت على الشيخ أبى الخطاب محفوظ بن أحمد
الكلوذاني شيخ الحنابلة فى وقته رحمه الله :

قل للإمام أبى الخطاب مسألة جاءت إليك وما خلق سواك لها
ماذا على رجل رام الصلاة فمذ لاحت لحاظه ذات الجمال لها

فأجاب تحت السؤال :
قل للأديب الذى وافى بمسألة سرت فؤادى لما أن أصخت لها
إن التى فتنته عن عبادته خريدة ذات حسن فانثى ولها
إن تاب ثم قضى عنه عبادته فرحمة الله تغشى من عصى ولها

وقال عبد الله بن معمر القيسى : حججت سنة ، ثم دخلت ذات ليلة
مسجد المدينة لزيارة قبر رسول الله ﷺ فبينما أنا جالس بين القبر والمنبر ، إذ
سمعت أُنينا ، فأصغيت إليه ، فإذا هو يقول :

أشجاك نوح حمائم الصدر فأهجن منك بلابل الصدر
أم عز نومك ذكر غانية أهدت إليك وساوس الفكر
يا ليلة طالت على دنف يشكو السهاد وقلة الصبر
أسلمت من تهوى لحر جوى متوقد كتوقد الجمر
فالبدر يشهد أننى كلف مغرم بحب شبيهة البدر
ما كنت أحسبني أهيم بها حتى بليت وكنت لا أدرى

ثم انقطع الصوت ، فلم أدر من أين جاء ، وإذا به قد أعاد البكاء ،
والأنين ، ثم أنشد :

أشجاك من ريا خيال زائر	والليل مسود الذوائب عاكر
واغتيال مهجتك الهوى برسيه	واهتاج مقلتك الخيال الزائر
ناديت : ريا والظلام كأنه	يم تلاطم فيه موج زاخر
والبدر يسرى فى السماء كأنه	ملك ترجل والنجوم عساكر
وترى به الجوزاء ترقص فى الدجى	رقص الحبيب علاه سكر ظاهر
ياليل طلت على محب ماله	إلا الصباح مساعد ومؤازر
فأجابنى : مت حتف أنفك واعلمن	أن الهوى لهو الهوان الحاضر

قال : وكنت ذهبت عند ابتدائه بالآيات فلم ينتبه إلا وأنا عنده ،
فرأيت شاباً مقتبلاً شبابه ، قد خرق الدمع فى خده خرقين ، فسلمت عليه ،
فقال : اجلس من أنت ؟ قلت : عبد الله بن معمر القيسى ، قال : ألك
حاجة ؟ قلت : نعم ، كنت جالساً فى الروضة فما راعنى إلا صوتك
فبنفسي أفديك ، فما الذى تجد ؟ فقال : أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن
الجموح الأنصارى ، غدوت يوماً إلى مسجد الأحزاب فصليت فيه ، ثم
اعتزلت غير بعيد ، فإذا أنا بنسوة أقبلن يتهادين مثل القطا وإذا فى وسطهن
جارية بديعة الجمال ، كاملة الملاحه ، فوقفت على فقالت :

يا عتبة : ما تقول فى وصل من تطلب ووصلك ؟ ثم تركتنى وذهبت
فلم أسمع لها خبراً ، ولا قفوت لها أثراً ، وأنا حيران أنتقل من مكان إلى
آخر ، ثم صرخ وأكب مغشياً عليه ، ثم أفاق ، كأنما صبغت وجنتاه بورس ،
ثم أنشد :

أراكم بقلبي من بلاد بعيدة فياهل تروني بالفؤاد على بعدى
فؤادى وطرفى يأسفان عليكم وعندكم روحى وذكركم عندى
ولست ألد العيش حتى أراكم ولو كنت فى الفردوس فى جنة الخلد
فقلت : يا ابن أخى ، تب إلى ربك واستغفره من ذنبك ، فبين يديك
هول المطلع ، فقال : ما أنا بسال حتى يؤوب القارطان ، ولم أزل معه إلى
أن طلع الصبح ، فقلت : قم بنا إلى مسجد الأحزاب ، فلعل الله أن يكشف
كربتك ، فقال : أرجو ذلك إن شاء الله ببركة طاعتك ، فذهبنا حتى أتينا
مسجد الأحزاب فسمعتة يقول :
يا للرجال ليوم الأربعاء ، أما
ما أن يزال غزال منه يقتلنى
يخبر الناس أن الأجر همته
لو كان ينفى ثوابا ما أتى صلفاً
ينفك يحدث لى بعد النهى طربا
يأتى إلى مسجد الأحزاب منتقبا
وما أتى طالباً للخير محتسبا
مضمخاً بفتيت المسك مختضباً

ثم جلسنا حتى صلينا الظهر ، وإذا بالنسوة قد أقبلن وليست الجارية
فيهن ، فوقفن عليه ، وقلن له : يا عتبة ما ظنك بطالبة واصلك وكاسفة
بالك؟ قال : وما بالها؟ قلن : أخذها أبوها وارتحل بها إلى أرض السماوة ،
فسألتهن عن الجارية ، فقلن : هى ريا ابنة الغطريف السلمى ، فرفع عتبة
رأسه إليهن وقال :

خيلى ، ريا قد أجد بكورها وسارت إلى أرض السماوة غيرها
خيلى ، إنى قد عشيت من البكى فهل عند غيرى مقلة أستعيها ؟
فقلت له : إنى قد وردت بمال جزيل أريد به أهل السתר ، ووالله
لأبذلنه أمامك حتى تبلغ رضاك وفوق الرضى ، فقم بنا إلى مسجد

الأنصار، فقمنا وسرنا حتى أشرفنا على ملأ منهم ، فسلمت فأحسنوا الرد
فقلت : أيها الملأ ، ما تقولون فى عتبة وأبيه ؟ قالوا : من سادات العرب ،
قلت : فإنه قد رمى بداهية من الهوى ، وما أريد منكم إلا المساعدة إلى
الساواة ، فقالوا : سمعاً وطاعة ، فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا
على منازل بنى سليم ، فأعلم الغطريف بنا ، فخرج مبادراً فاستقبلنا ،
وقال : حييتم يا كرام ، فقلنا : وأنت فحياك الله ، إنا لك أضياف ، فقال :
نزلتم أكرم منزل ، ثم نادى : يا معشر العبيد ، أنزلوا القوم ، ففرشت
الأنطاع والنمارق ، وذبحت الذبائح فقلنا : لسنا بذائقى طعامك حتى
تقضى حاجتنا ، فقال : وما حاجتكم ؟ قلنا : نخطب عقيلتك الكريمة لعبة
ابن الحباب بن المنذر ، فقال : إن التى تخطبونها أمرها إلى نفسها ، وأنا
أدخل أخبرها ، ثم دخل مغضباً على ابنته ، فقالت : يا أبت مالى أرى
الغضب فى وجهك ؟ فقال : قد ورد الأنصار يخطبونك منى ، فقالت :
سادات كرام ، استغفر لهم النبى ﷺ فلمن الخطبة منهم ؟ فقال : لعبة بن
الحباب ، قالت : والله لقد سمعت عن عتبة هذا : إنه يفى بما وعد ، ويدرك
إذا قصد ، فقال : أقسمت لا أزوجنك به أبداً ، ولقد نمت إلى بعض حديثك
معه ، فقالت : ما كان ذلك ، ولكن إذ أقسمت ، فإن الأنصار لا يردون
رداً قبيحاً، حسن لهم الرد ، فقال : بأى شىء ؟ قالت : أغلظ لهم المهر ،
فإنهم يرجعون ولا يجيبون ، فقال : ما أحسن ما قلت .

ثم خرج مبادراً ، فقال : إن فتاة الحى قد أجابت ، ولكن أريد لها
مهر مثلها ، فمن القائم به ؟ فقال عبد الله بن معمر : أنا فقل ما شئت ،
فقال : ألف مثقال من الذهب ، ومائة ثوب من الأبراد ، وخمسة أكرشة
عنبر ، فقال عبد الله : لك ذلك كله . فهل أجبت ، قال :

أجل ، قال عبد الله : فأنفذت نفرًا إلى المدينة ، فأتوا بجميع ما طلب ، ثم صنعت الوليمة ، وأقمنا على ذلك أياماً ، ثم قال : خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين ، ثم حملها في هودج وجهازها بثلاثين راحلة من المتاع والتحف ، فودعناه وسرنا حتى إذا بقى بينا وبين المدينة مرحلة واحدة ، خرجت علينا خيل تريد الغارة أحسبها من سليم ، فحمل عليها عتبة بن الحباب فقتل منهم رجالاً ، وجرح آخرين ، ثم رجع وبه طعنة تفور دماً ، فسقط إلى الأرض ، واثنتي بخده ، فطردت عنا الخيل وقد قضى عتبة نحبه ، فقلنا : واعتبناه ، فسمعتنا الجارية ، فألقت نفسها من البعير وجعلت تصيح بحرقه وأنشدت :

تصبرت لا أنى صبرت وإنما أعلل نفسي أنها بك لاحقه
فلو أنصفت روحى لكنت إلى الردى أمامك من دون البرية سابقه
فما أحد بعدى وبعديك منصف خليلاً ، ولا نفس لنفس موافقه

ثم شهقت وقضت نحبها ، فاحتفروا لهما قبراً واحداً ، ودفناهما فيه ، ثم رجعت إلى المدينة ، فأقمت سبع سنين ، ثم ذهبت إلى الحجاز ، ووردت المدينة ، فقلت : والله لآتين قبر عتبة أزوره ، فأتيت القبر ، فإذا عليه شجرة عليها عصائب حمر وصرفر ، فقلت ، لأرباب المنزل : ما يقال لهذه الشجرة؟ قالوا : شجرة العروسين .

* ولو لم يكن في العشق من الرخصة المخالفة للتشديد إلا الحديث الوارد بالحسن من الأسانيد ، وهو حديث سويد بن سعيد عن علي بن مسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس يرفعه :

« من عشق وعف وكم ، فمات فهو شهيد » (٢٤٣) .

ورواه سويد أيضاً عن ابن مسهر ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة مرفوعاً .

[٢٤٣] من عشق وعف ..

موضوع .

ورد هذا الحديث من رواية ابن عباس ، وعائشة - رضى الله عنها - .

فأما حديث ابن عباس : فورد عنه من طريقين :

الأول : مارواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٥/١٥٦ و ٦-٥٠/١٠-٢٩٨/١٣-١٨٤) ،
وجعفر السراج في « مصارع العشاق » كما في « المقاصد الحسنة » (ص : ٦٥٨) من طرق
عن : سويد بن سعيد ، عن علي بن مسهر ، عن أبي يحيى القتات ، عن مجاهد ، عن ابن
عباس به .

والآفة في هذا الحديث من سويد بن سعيد ، وقد كان يُلَقَّن فيتلقن .

قال السخاوى في « المقاصد الحسنة » :

« هو مما أنكره ابن معين وغيره على سويد ، حتى أن الحاكم لما رواه في تاريخه قال :
يقال إن يحيى لما ذكر له هذا الحديث ، قال : لو كان لى رمح غزوت سويداً .

وأبو يحيى القتات وإن كان لين الحديث إلا أن الآفة ليست منه .

والثانى : ما رواه الزبير بن بكار : حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون ، عن
عبد العزيز بن أبي حازم ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد به مرفوعاً .

أخرجه الديلمى في « مسنده » وقال السخاوى : « وهو سند صحيح » .

وكلام ابن القيم في هذا الكتاب يرد هذا الحكم .

فبعد الملك بن الماجشون ضعيف الحديث ، كان لا يعقل الحديث ، ولا يدرى ما هو ،
ومن كان فى مثل حاله جائز عليه التلقين ، وكذلك فقد أعل ابن حجر هذا الطريق بعله
أخرى ، فقال فى « التلخيص الحبير » :

ورواه الخطيب عن الأزهرى ، عن المعافى بن زكريا ، عن قطبة بن
المفضل ، عن أحمد بن مسروق عنه .

ورواه الزبير بن بكار عن عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون عن
عبد العزيز بن أبي حازم عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد عن ابن عباس .
وهذا سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين ﷺ نظر إلى زينب
بنت جحش رضى الله عنها فقال : « سبحان مقلب القلوب » وكانت تحت
زيد بن حارثة مولاه ، فلما هم بطلاقها قال له : « اتق الله وأمسك عليك

= « هذه الطريقة غلط فيها بعض الرواة ، أدخل إسناداً فى إسناد » .

قلت : وقد رواه ابن الجوزى فى « العلل المتناهية » (٢ / ٧٧١) من طريق :
الخرائطى ، حدثنا يعقوب بن عيسى من ولد عبد الرحمن بن عوف ، عن ابن أبي نجيح ،
عن مجاهد ، عن ابن عباس به .

وفيه يعقوب بن عيسى ، قال ابن الجوزى : « قال أحمد بن حنبل : يعقوب ليس بشيء » .
وأما حديث عائشة - رضى الله عنها - :

فأخرجه الخطيب (١٢ / ٤٧٩) من طريق : قطبة بن المفضل ، حدثنا أحمد بن محمد بن
مسروق الطوسى ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا على بن مسهر ، عن هشام بن عروة ،
عن أبيه ، عن عائشة به .

وقال : « رواه غير واحد عن سويد ، عن على بن مسهر ، عن أبي يحيى القتات ، عن
مجاهد ، عن ابن عباس ، وهو المحفوظ » .

قلت : وهو كما قال ، وقطبة هذا ترجمه فى « تاريخه » وأورد له هذا الخبر ، ولم يذكر
فيه جرحاً ولا تعديلاً .

وفى الجملة فالحديث قد حكم بوضعه جماعة من أهل العلم ، منهم المصنف كما يظهر
من كلامه هنا ، وفى « المنار المنيف » ، وفى « زاد المعاد » .

زوجك» (٢٤٤) فلما طلقها زوجها الله سبحانه من رسول الله ﷺ من فوق سبع سموات ، فكان هو وليها وولى تزويجها من رسوله ﷺ وعقد نكاحها من فوق عرشه ، وأنزل على رسوله : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ . (الأحزاب : ٣٧) .

وهذا داود نبى الله عليه السلام لما كان تحتة تسع وتسعون امرأة ، ثم أحب تلك المرأة فترجها وكمل بها المائة .

وقال الزهرى : أول حب كان فى الإسلام ، حب النبى ﷺ عائشة رضى الله عنها ، وكان مسروق يسميها : حبيبة رسول الله ﷺ .

وقال أبو قيس مولى عبد الله بن عمرو : أرسلنى عبد الله بن عمرو إلى أم سلمة أسألها : أكان النبى ﷺ يقبل أهله وهو صائم ؟ فقالت : لا ، فقال : إن عائشة رضى الله عنها قالت : إن النبى ﷺ كان يقبلها وهو صائم ، ثم قالت أم سلمة رضى الله عنها : إن النبى ﷺ كان إذا رأى عائشة لا يتمالك عنها حباً ، أما أنا فلا (٢٤٥) .

[٢٤٤] اتق الله وأمسك عليك زوجك

صحيح .

رواه البخارى (٢٨١/٤) ، والبيهقى فى « الأسماء والصفات » (٨٨٠) من طريق :

حماد بن زيد ، عن ثابت البنانى ، عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - به .

[٢٤٥] إن النبى ﷺ كان إذا رأى ..

صحيح .

رواه النسائى فى « الكبرى » (تحفة : ٤٤/١٣) عن يوسف بن حماد ، عن سفيان بن

حبيب ، عن موسى بن عُلَيُّ بن رباح ، عن أبيه ، عن أبي قيس به .

وسنده صحيح ، والله أعلم .

وذكر سعيد بن إبراهيم عن عامر بن سعد عن أبيه ، قال : كان إبراهيم الخليل عليه السلام يزور هاجر في كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها ، وقلة صبره عنها .

وذكر الخرائطي أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما اشترى جارية رومية ، فكان يحبها حباً شديداً ، ف وقعت ذات يوم عن بغلة له ، فجعل يمسح التراب عن وجهها ويقبلها ، وكانت تكثر من أن تقول له : يا بطرون أنت قالون ، تعنى : يا مولاي أنت جيد ، ثم إنها هربت منه فوجد عليها وجداً شديداً ، وقال :

قد كنت أحسبني قالون فأنصرفت فاليوم أعلم أنى غير قالون

* قال أبو محمد بن حزم : وقد أحب من الأئمة الراشدين والخلفاء المهديين كثير ، وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين رأيت امرأة فعشقتها ، فقال : ذلك ما لا تملك .

*** فالجواب ، وبالله التوفيق :**

أن الكلام فى هذا الباب لا بد فيه من التمييز بين الواقع والجائز ، والنافع والضار ، ولا يحكم عليه بالذم والإنكار ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة ، وإنما يبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلقه ، وإلا فالعشق من حيث هو لا يحمد ولا يذم ، ونحن نذكر النافع من الحب والضار ، والجائز والحرام .

□ المحبة النافعة .

اعلم أن أنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته ، وفطرت الخليفة على تأليهه ، وبها قامت

الأرض والسموات، وعليها فطرت المخلوقات ، وهي سر شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذى تأله القلوب بالحبّة والإجلال والتعظيم ، والذل له والخضوع والتعبد، والعبادة لا تصلح إلا له وحده، والعبادة هى كمال الحب مع كمال الخضوع والذل ، والشرك فى هذه العبودية من أظلم الظلم الذى لا يغفره الله ، والله تعالى يحب لذاته من جميع الوجوه ، وما سواه فإنما يحب تبعاً لمحبهته .

وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة ، ودعوة جميع رسله ، وفطرته التى فطر عباده عليها ، وما ركب فيهم من العقول ، وما أسبغ عليهم من النعم، فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها ، فكيف بمن كان كل الإحسان منه ، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له ، كما قال تعالى :

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾

(النحل : ٥٣) .

وما تعرف به إلى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العلاء، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته .

* والحبّة لها داعيان : الجمال ، والجلال ، والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك ، فإنه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له ، والإجلال كله منه ، فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه ، قال تعالى :

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحييكم الله ﴾

(آل عمران : ٣١) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف

يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴿ (المائدة : ٥٤ - ٥٦) .

* فالولاية أصلها الحب ، فلا موالاة إلا بحب ، كما أن العداوة أصلها البغض ، والله ولى الذين آمنوا وهم أولياؤه ، فهم يوالونه بمحبتهم له ، وهو مواليهم بمحبته لهم ، فالله يوالى عبده بحسب محبته له .

ولهذا أنكر الله سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء ، بخلاف من والى أولياءه ، فإنه لم يتخذهم أولياء من دونه ، بل موالاته لهم من تمام موالاته .

وقد أنكر على من سوى بينه وبين غيره فى المحبة ، وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دونه أنداداً يحبهم كحب الله ، قال تعالى :

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ (البقرة : ١٦٥) .

وأخبر عمن سوى بينه وبين الأنداد فى الحب ، أنهم يقولون فى النار لمعبودهم : ﴿ تالله إن كنا لفى ضلال مبين ﴾ إذ نسويكم برب العالمين ﴿ (الشعراء : ٩٧ و٩٨) .

وبهذا التوحيد فى الحب أرسل الله سبحانه جميع رسله ، وأنزل جميع كتبه ، وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم ، ولأجله خلقت السموات والأرض والجنة والنار ، فجعل الجنة لأهله والنار للمشركين به فيه .

وقد أقسم النبي ﷺ أنه : « لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » ، فكيف بمحبة الرب جل جلاله ؟ .
وقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لا، حتى أكون أحب إليك من نفسك » أي: لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية (*) .

وإذا كان النبي ﷺ أولى بنا من أنفسنا فى المحبة ولوازمها أفليس الرب جل جلاله وتقدسست أسماؤه أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم ، وكل ما منه إلى عبده المؤمن يدعوه إلى محبته ، مما يحب العبد ويكره ، فعطاؤه ومنعه ، ومعافاته وابتلاؤه ، وقبضه وبسطه ، وعدله وفضله وإماتته وإحياءه ، ولطفه وبره ورحمته وإحسانه وستره وعفوه ، وحلمه وصبره على عبده ، وإجابته لدعائه ، وكشف كربه وإغاثة لهفته ، وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه ، بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه ، كل ذلك داع للقلوب إلى تأليهه ومحبته ، بل تمكينه عبده من معصيته وإعانتة عليها ، وستره حتى يقضى وطره منها ، وكلاءته وحراسته له ، وهو يقضى وطره من معصيته ، يعينه ويستعين عليها بنعمه من أقوى الدواعى إلى محبته ، فلو أن مخلوقاً فعل بمخلوق أدنى شىء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته ، فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس ، مع إساءته؟! فخيرهِ إليه نازل، وشرهِ إليه صاعد ، يتحجب إليه بنعمه وهو غنى عنه، والعبد يتبغض إليه بالمعاصى وهو فقير إليه ، فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصدّه عن معصيته ، ولا معصية العبد ولؤمه يقطع إحسان ربه عنه .

(*) سبق تخريج هذا الخبر والذي قبله .

* فالألم اللؤم : تخلف القلوب عن محبة من هذا شأنه ، وتعلقها بمحبة سواه .

وأيضاً فكل من تحبه من الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك، والله سبحانه وتعالى يريدك لك ، كما في الأثر الإلهي : عبدى كل يريدك لنفسه ، وأنا أريدك لك .

فكيف لا يستحيى العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة وهو معرض عنه مشغول بحب غيره ، قد استغرق قلبه بمحبة سواه ؟ .

وأيضاً ، فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك ، ولا بد له من نوع من انواع الربح ، والرب تعالى انما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه ، فالدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بواحدة وهى أسرع شىء محواً .

وأيضاً ، فهو سبحانه خلقتك لنفسه ، وخلق كل شىء لك فى الدنيا والآخرة ، فمن أولى منه باستفراغ الوسع فى محبته وبذل الجهد فى مرضاته ؟ .

وأيضاً ، فمطالبك - بل مطالب الخلق كلهم جميعاً - لديه ، وهو أجود الأجودين وأكرم الأكرمين ، أعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله ، يشكر القليل من العمل وينميه ، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه ، يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلظه كثرة المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، بل يحب الملحين فى الدعاء ، ويحب أن يسأل ، ويغضب إذا لم يسأل ، يستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه ، ويستره حيث لا يستر نفسه ، ويرحمه حيث لا يرحم

نفسه ، دعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى ، فأرسل
رسله في طلبه ، وبعث إليه معهم عهده ، ثم نزل إليه سبحانه بنفسه وقال :
« من يسألني فأعطيه ، من يستغفروني فأغفر له ؟ » (٢٤٦)

كما قيل : أدعوك وللوصل تأبى ، أبعث رسولي في الطلب ، أنزل
إليك بنفسى ألقاك في النوم .

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب
بالسيئات إلا هو ، ولا يجيب الدعوات ، ويقيل العثرات ويغفر الخطيئات ،
ويستر العورات ، ويكشف الكربات ، ويغيث اللهفان ، وينيل الطلبات
سواه ؟

فهو أحق من ذكر ، وأحق من شكر ، وأحق من عبد ، وأحق من
حمد ، وأنصر من ابتغى ، وأرأف من ملك ، وأجود من سئل ، وأوسع من
أعطى ، وأرحم من استرحم ، وأكرم من قصد ، وأعز من التجئ إليه ،
[٢٤٦] من يسألني فأعطيه ..

صحيح .

رواه الإمام مالك (٢١٤/١) عن الزهري ، عن أبي عبد الله الأغر ، وعن أبي سلمة ،
عن أبي هريرة مرفوعاً :

« ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر ،
فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفروني فأغفر له » .

ورواه من طريق مالك : البخاري (٢٩٦/٤) ، ومسلم (٥٢١/١) ، وأبو داود
(١٣١٥) ، والترمذي (٣٤٩٨) .

ورواه النسائي في « اليوم والليلة » (٤٨٣) ، وابن ماجه (٣٦٦) من طريق : إبراهيم بن
سعد ، عن الزهري بالإسناد السابق .

وأكفى من توكل العبد عليه ، أرحم بعبده من الوالدة بولدها ، وأشد فرحاً بتوبة التائب من الفاقد لراحلته عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها .

وهو الملك لا شريك له ، والفرد فلانده ، كل شىء هالك إلا وجهه ، لن يطاع إلا بإذنه ، ولن يعصى إلا بعلمه ، يطاع فيشكر ، وبتوقيقه ونعمته أطيع ، ويعصى فيغفر ، ويعفو وحقه أضيع ، فهو أقرب شهيد ، وأجل حفيظ ، وأوفى بالعهد ، وأعدل قائم بالقسط ، حال دون النفوس ، وأخذ بالنواصي ، وكتب الآثار ، ونسخ الآجال ، فالقلوب له مفضية ، والسر عنده علانية ، والغيب لديه مكشوف ، وكل أحد إليه ملهوف ، وعنت الوجوه لنور وجهه ، وعجزت العقول عن إدراك كنهه ، ودلت الفطر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه ، أشرقت لنور وجهه الظلمات ، واستنارت له الأرض والسموات ، وصلحت عليه جميع المخلوقات ، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه :

ما اعتاض باذل حبه لسواه من عوض ولو ملك الوجود بأسره



فصل

كمال اللذة فى كمال المحبوب وكمال المحبة

* وهنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به ، وهو : أن كمال اللذة والفرح والسرور ، ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين : أحدهما : كمال المحبوب فى نفسه وجماله ، وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه .

والأمر الثاني : كمال محبته ، واستفراغ الوسع فى حبه ، وإيثار قلبه والوصول إليه على كل شىء .

وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته ، فكلما كانت المحبة أقوى ، كانت لذة المحبة أكمل ، فلذة من اشتد ظمؤه بإدراك الماء الزلال ، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهى ، ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته .

وإذا عرف هذا ، فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب فى نفسه، بل هو مقصود كل حى وعاقل ، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهى تدم إذا أعقبت ألماً أعظم منها، أو منعت لذة خيراً منها وأجل ، فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات ، وفوتت أعظم اللذات والمسرات ؟ وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما ، وهى لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها ، كما قال تعالى :

﴿ بل تؤثر الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾

(الأعلى : ١٦ و ١٧) .

وقال السحرة لفرعون لما آمنوا : ﴿ فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ (طه : ٧٢ و ٧٣) .

* والله سبحانه وتعالى خلق الخلق لينيلهم هذه اللذة الدائمة فى دار الخلد ، وأما الدنيا فمنقطعة، ولذاتها لا تصفو أبداً ولا تدوم، بخلاف الآخرة، فإن لذاتها دائمة ، ونعيمها خالص من كل كدر وألم ، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين مع الخلود أبداً ، ولا تعلم نفس ما أخفى الله

لعباده فيها من قرة أعين ، بل فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهذا المعنى الذى قصده الناصح لقومه بقوله :

﴿ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد * يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ (غافر : ٣٨ و ٣٩) .

فأخبرهم أن الدنيا متاع يستمتع بها إلى غيرها ، وأن الآخرة هي المستقر .

وإذا عرف أن لذات الدنيا ونعيمها متاع ووسيلة إلى لذات الآخرة ، ولذلك خلقت الدنيا ولذاتها ، فكل لذة أعانت على لذة الآخرة ، وأوصلت إليها لم يذم تناولها ، بل يحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة .
■ رؤية الله في الآخرة .

إذا عرف هذا فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها : هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله ، وسماع كلامه منه ، والقرب منه كما ثبت فى الصحيح فى حديث الرؤية : « فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه » (٢٤٧) وفى حديث آخر : « إنه إذا تجلى لهم ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم » (٢٤٨) .

[٢٤٧] فوالله ما أعطاهم شيئاً..

صحيح .

رواه مسلم (١/١٦٣) ، والترمذى (٢٥٥٢) ، والنسائى فى « الكبرى » (تحفة : ١٩٨/٤) ، وابن ماجه (١٨٧) من طريق : حماد بن زيد ، عن ثابت البنانى ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن صهيب به .

[٢٤٨] إنه إذا تجلى لهم ورأوه..

لم أقف عليه مرفوعاً ، ولكن رواه الآجرى فى « التصديق بالنظر إلى الله فى الآخرة » (٢) بسند تالف من قول الحسن البصري .

وفى «النسائي» و«مسند الإمام أحمد»: عن عمار بن ياسر رضى الله عنه عن النبي ﷺ فى دعائه: « وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك » (٢٤٩).

وفى كتاب « السنة » لعبد الله بن الإمام أحمد ، مرفوعاً :
« كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن ، إذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك » (٢٥٠).

* وإذا عرف هذا ، فأعظم الأسباب التى تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق ، وهو لذة معرفته سبحانه ، ولذة محبته ، فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالى ، ونسبة لذاتها الفانية إليه ، كتفلة فى بحر ، فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك ، فأطيب ما فى الدنيا معرفته ومحبته ، وألذ ما فى الجنة رؤيته ومشاهدته ، فمحبته ومعرفته قرّة العيون ، ولذة الأرواح ، وبهجة القلوب ، ونعيم الدنيا وسرورها ، بل لذات الدنيا القاطعة عن ذلك تنقلب آلاماً وعذاباً ، ويبقى صاحبها فى المعيشة الضنك ، فليست الحياة الطيبة إلا بالله .

[٢٤٩] وأسألك لذة النظر إلى وجهك..

صحيح.

رواه النسائي (٥٤/٣) : أخبرنا يحيى بن حبيب بن عربى ، قال : حدثنا حماد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبيه ، عن عمار بن ياسر به ضمن دعاء طويل . وسنده صحيح ، فحماد هو ابن زيد ، وسماعه من عطاء قديم والله أعلم . وله طريق آخر عند النسائي .

[٢٥٠] كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن...

لم أقف عليه فى « السنة » ، وهو عند الديلمي من حديث أبي هريرة .

وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب ، وقد تقدم ذلك ، وكان غيره يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيف .

وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التى هى عذاب على قلب المحب ، يقول فى حاله :

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى فلا خير فىمن لا يحب ويعشق
ويقول الآخر :

أف للدنيا إذا ما لم يكن صاحب الدنيا محباً أو حبيباً
ويقول آخر :

ولا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها وأنت وحيد مفرد غير عاشق
ويقول الآخر :

اسكن إلى سكن تلذ بحبه ذهب الزمان وأنت مفرد
ويقول الآخر :

تشكى المحبون الصبابة لىتنى تحملت ما يلقون من بينهم وحدي
فكانت لقلبي لذة الحب كلها فلم يلقتها قبلى محب ولا بعدى

فكيف بالمحبة التى هى حياة القلوب وغذاء الأرواح ، وليس لقلب لذة ولا نعيم ، ولا فلاح ، ولا حياة إلا بها ؟ وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها ، والأذن إذا فقدت سمعها ، والأنف إذا فقدت شمها ، واللسان إذا فقد نطقه ، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح، وهذا الأمر لا

يصدق به إلا من فيه حياة ، وما لجرح بميت إيلام.

* والمقصود : أن أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذة في الآخرة ، ولذات الدنيا ثلاثة أنواع :

فأعظمها وأكملها : ما أوصل إلى لذة الآخرة ، ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتم ثواب ، ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجه الله من أكله وشربه ولباسه ونكاحه وشفاء غيظه بقهر عدو الله وعدوه ، فكيف بلذة إيمانه ، ومعرفته بالله ، ومحبته له ، وشوقه إلى لقائه ، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم ؟.

النوع الثاني : لذة تمتع لذة الآخرة وتعقب آلاماً أعظم منها ، كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثاناً مودة بينهم في الحياة الدنيا، يحبونهم كحب الله، ويستمتعون ببعضهم ببعض ، كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم :

﴿ ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم * وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾ (الأنعام : ١٢٨ و ١٢٩).

ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغى في الأرض والعلو بغير الحق .

وهذه اللذات في الحقيقة إنما هي استدراج من الله لهم ليزيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات ، بمنزلة من قدم لغيره طعاماً لذيقاً مسموماً يستدرجه به إلى هلاكه ، قال تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ (الأعراف : ١٨٢-١٨٣).

قال بعض السلف فى تفسيرها : كلما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة :
﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع
داير القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ (الأنعام : ٤٤ و ٤٥).
وقال تعالى فى أصحاب هذه اللذة :

﴿أيحسبون أننا نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات
بل لا يشعرون﴾ (المؤمنون : ٥٥ و ٥٦).
وقال فى حقهم :

﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى
الحياة الدنيا وتزهر أنفسهم وهم كافرون﴾. (التوبة : ٥٥).
وهذه اللذة تنقلب آخر آلاماً من أعظم الآلام ، كما قيل :

مآرب كانت فى الحياة لأهلها عذاباً فصارت فى المعاد عذاباً
النوع الثالث : لذة لا تعقب لذة فى دار القرار ولا ألماً ، ولا تمنع أصل
لذة دار القرار ، وإن منعت كمالها ، وهذه اللذة المباحة التى لا يستعان بها
على لذة الآخرة ، فهذه زمانها يسير ، ليس لتمتع النفس بها قدر ، ولا بد أن
تشغل عما هو خير وأنفع منها .

وهذا القسم هو الذى عناه النبى ﷺ بقوله : «كل لهو يلهو به
الرجل فهو باطل ، إلا رمية بقوسه ، وتأدييه فرسه ، وملاعبته امرأته
فإنهن من الحق» (٢٥١) .

فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق ، وما لم يعن عليها فهو
باطل . □ □ □

[٢٥١] كل لهو يلهو به الرجل..

ضعيف وهو مخرج فى كتاب «تحريم النرد» للأجرى بتحقيقنا.

فصل

الحب الذى لا ينكر ولا يذم

* فهذا الحب لا ينكر ولا يذم ، بل هو أحمد أنواع الحب ، وكذلك حب رسول الله ﷺ ، وإنما نعنى المحبة الخاصة ، والتي تشغل قلب المحب وفكره وذكره بمحبوبه ، وإلا فكل مسلم فى قلبه محبة لله ورسوله ، لا يدخل فى الإسلام إلا بها ، والناس متفاوتون فى درجات هذه المحبة تفاوتاً لا يحصيه إلا الله ، فبين محبة الخليلين ومحبة غيرهما ما بينهما ، فهذه المحبة هى التى تلتطف وتخفف أثقال التكاليف ، وتسخر البخيل ، وتشجع الجبان ، وتصفى الذهن ، وتروض النفس ، وتطيب الحياة على الحقيقة ، لا محبة الصور المحرمة ، وإذا بليت السرائر يوم اللقاء ، وكانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد كما قيل :

سيبقى لكم فى مضمرة القلب والحشى سريرة حب يوم تبلى السرائر
وهذه المحبة هى التى تنور الوجه وتشرح الصدر وتحى القلب ، وكذلك محبة كلام الله ، فإنه من علامة محبة الله ، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله ، فانظر محبة القرآن من قلبك ، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهى والغناء المطرب بسماعهم ، فإن من المعلوم أن من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحب شئ إليه ، كما قيل :

إن كنت تزعم حبنى فلم هجرت كتابى ؟

أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابى

وقال عثمان بن عفان - رضى الله عنه - : لو طهرت قلوبنا لما شبعنا من كلام الله .

وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه !؟

وقال النبي ﷺ يوماً لعبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: «اقرأ عليّ» فقال: أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ فقال : «إني أحب أن أسمعك من غيري» فاستفتح فقرأ سورة النساء حتى إذا بلغ قوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ (النساء : ٤١) .

قال : «حسبك» فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله ﷺ تذر فان من البكاء (٢٥٢) .

وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون : يا أبا موسى ذكرنا بربنا ، فيقرأ ، وهم يستمعون ، فلمحبي القرآن من الوجد والذوق ، واللذة والحلاوة والسرور أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني ، فإذا رأيت الرجل ، ذوقه ، ووجده وطربه وتشوقه إلى سماع الآيات دون سماع الآيات ، وسماع الألحان دون سماع القرآن ، كما قيل :

تقرأ عليك الختمه وأنت جامد كالخجر ويبت من الشعر ينشد ثقل كالسكران
فهذا أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه ، وتعلقه بمحبة سماع الشيطان ، والمغرور يعتقد أنه على شيء .

ففي محبة الله وكلامه ورسوله ﷺ أضعاف أضعاف ما أورد السائل من فوائد العشق ومنافعه ، بل لا حب على الحقيقة أنفع منه ، وكل حب سوى ذلك باطل إن لم يعن عليه ويسوق المحبة إليه .

[٢٥٢] اقرأ عليّ..

صحيح.

رواه البخارى (٢٣٥/٣) ، ومسلم (٥٥١/١) ، وأبو داود (٣٦٦٨) ، والترمذى (٣٠٢٥) ، والنسائى فى «الكبرى» (تحفة : ٩٠/٧) من طريق : عبيدة بن عمرو السلماني ، عن ابن مسعود به .

فصل

محبة الزوجات

* وأما محبة الزوجات : فلا لوم على المحب فيها، بل هي من كماله، وقد امتن الله سبحانه بها على عباده ، فقال :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (الروم : ٢١).

فجعل المرأة سكناً للرجل يسكن قلبه إليها، وجعل بينهما خالص الحب وهو المودة المقترنة بالرحمة، وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن :

﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ (النساء ٢٦ - ٢٨).

ذكر سفيان الثوري في «تفسيره» : عن ابن طاوس، عن أبيه :

كان إذا نظر إلى النساء لم يصبر .

وفي «الصحيح» من حديث جابر، عن النبي ﷺ : أنه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها ، وقال « إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله ، فإن ذلك يرد ما في نفسه » (٢٥٣)

[٢٥٣] إن المرأة تقبل في صورة شيطان..

صحيح.

رواه مسلم (١٠٢١/٢) ، وأبو داود (٢١٥١) ، والترمذي (١١٥٨) ، والنسائي

في «عشرة النساء» (٢٣٥) من طريق هشام بن أبي عبد الله ، عن أبي الزبير ، عن جابر به .

ففى هذا الحديث عدة فوائد :

* منها : الإرشاد إلى التسلى عن المطلوب بجنسه ، كما يقوم الطعام مقام الطعام ، والثوب مقام الثوب .

* ومنها : الأمر بمداواة الإعجاب بالمرأة المورث لشهوتها بأنفع الأدوية ، وهو قضاء وطره من أهله ، وذلك ينقض شهوته لها ، وهذا كما أرشد المتحايين إلى النكاح ، كما فى «سنن ابن ماجة» مرفوعاً :
« لم ير للمتحيين مثل النكاح » (٢٥٤) .

[٢٥٤] لم ير للمتحيين مثل النكاح.

ضعيف.

رواه ابن ماجة (١٨٤٧) ، والحاكم (١٦٠/٢) ، والبيهقى (٧٨/٧) من طريق :
محمد بن مسلم الطائفى ، حدثنا إبراهيم بن ميسرة ، عن طاوس ، عن ابن عباس -رضى الله عنه - به .

قال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، لأن سفيان بن عيينة ، ومعر بن راشد أوقفاه عن إبراهيم بن ميسرة على ابن عباس » .

قلت : وهذا وهم من الحاكم ، فإنما رواه سفيان ومعر ، عن إبراهيم ، عن طاوس ، عن النبى عليه السلام مرسلأ ، لا موقوفأ .

فأما رواية معمر : فأخرجها عبد الرزاق (١٥١/٦) عنه بالإسناد السابق .

وأما رواية سفيان بن عيينة : فأخرجها سعيد بن منصور فى « السنن » (٤٩٢) عن سفيان به .

وتابعهم ابن جريج عند البيهقى فى « الكبرى » (٧٨/٧) .

ومحمد بن مسلم الطائفى صدوق يخطئ ، وروايته هذه منكرة ، والأصح رواية الجماعة .

فنكاح المعشوقة هو دواء العشق الذي جعله الله دواءً شرعاً ، وقد تداوى به داود عليه السلام ، ولم يرتكب نبي الله محرماً ، وإنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبتة لها ، وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته ولا يليق بنا المزيد على هذا .

* وأما قصة زينب بنت جحش : فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه ، وكان يستشير النبي ﷺ في فراقها ، وهو يأمره بإمسакها ، فعلم رسول الله ﷺ أنه مفارقها ولا بد ، فأخفى في نفسه أنه يتزوجها إذا فارقها زيد ، وخشى مقالة الناس : إن رسول الله ﷺ تزوج زوجة ابنه ، فإنه كان قد تبنى زيدا قبل النبوة ، والرب تعالى يريد أن يشرع شرعاً عاماً فيه مصالح عباده ، فلما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله إليها يخطبها لنفسه ، فجاء زيد واستدير الباب بظهره ، وعظمت في صدره لما ذكرها رسول الله ﷺ ، فناداها من وراء الباب : يا زينب إن رسول الله ﷺ يخطبك ، فقالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي ، وقامت إلى محرابها فصلت ، فتولى الله عز وجل نكاحها من رسوله ﷺ بنفسه ، وعقد النكاح له فوق عرشه وجاء الوحي بذلك :

﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ﴾ (الأحزاب : ٣٧).

فقام رسول الله ﷺ لوقته فدخل عليها فكانت تفخر على نساء النبي ﷺ بذلك وتقول : أنتن زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات .

فهذه قصة رسول الله ﷺ مع زينب (٢٥٥)

[٢٥٥] زواج النبي عليه السلام من زينب - رضى الله عنها - .

صحيح .

رواه مسلم (١٠٤٨/٢) ، والنسائي في « تفسيره » (٤٣٠) من طريق : سليمان بن المغيرة ، عن ثابت البناني ، عن أنس به ، وليس فيه ذكر الصلاة .

ولا ريب أن النبي ﷺ كان قد حجب إليه النساء ، كما في «الصحيح»
عن أنس عنه ﷺ : « حجب إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرّة
عيني في الصلاة » (٢٥٦) هذا لفظ الحديث ، لا ما يرويه بعضهم : « حجب

[٢٥٦] حجب إلى من دنياكم النساء..

ضعيف.

وقد روى موصولاً ومرسلاً.

فأما الموصول فمن حديث ثابت البناني ، عن أنس - رضي الله عنه -.

وله عنه ثلاثة طرق:

الأول : من رواية سلام أبي المنذر ، عن ثابت به.

أخرجه الإمام أحمد (٣/١٢٨ و ١٩٩ و ٢٨٥) ، والنسائي (٧/٦١) ، وفي «عشرة
النساء» (١) ، والعقيلي (٢/١٦٠).

قلت : وهذا سند لين ، فإن سلام هذا فيه كلام لا يرتقى بحديثه إلى درجة الاحتجاج ،
وقد أورد له العقيلي هذا الحديث ضمن مناكيره.

الثاني : من رواية سيار بن حاتم ، عن جعفر ، عن ثابت به.

رواه النسائي (٧/٦١) وفي «عشرة النساء» (٢) ، الحاكم (٢/١٦٠) وصححه على
شرط مسلم.

وليس كما قال : فسيار بن حاتم ليس على شرط مسلم ، ثم إنه ضعيف صاحب مناكير ،
وروايته عن جعفر ضعيفة وقد أشار العقيلي إلى ضعف هذه الرواية فقال بعد أن روى
الحديث من الطريق الأول:

« فيه رواية من غير هذا الوجه فيها لين أيضاً ».

الثالث : من رواية سلام بن أبي خبزة ، عن ثابت البناني ، وعلى بن زيد ، عن أنس.

أخرجه ابن عدي (٣/١١٥٠).

وسلام بن أبي خبزة تالف ، قال ابن المديني : « يضع الحديث » ، وقال النسائي : « متروك ».

وأما المرسل : فأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٤/٣٢١) عن ابن التيمي ، عن أبيه ،

وعن ليث ، قال : قال رسول الله ﷺ .. فذكره.

قلت : وفيه ابن البيهاني وهو وإي خصوصاً في روايته عن أبيه.

إلى من دنياكم ثلاث ».

زاد الإمام أحمد في «كتاب الزهد» في هذا الحديث :

« أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن »(*)

وقد حسده أعداء الله اليهود على ذلك، فقالوا : ما هم إلا النكاح ،
فرد الله سبحانه عن رسول الله ﷺ ، وناصح عنه ، فقال :

﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل
إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً ﴾ (النساء: ٥٤).

وهذا خليل الله إبراهيم كان عنده سارة أجمل نساء العالمين ، وأحب
هاجر وتسرى بها .

وهذا داود عليه السلام كان عنده تسعة وتسعون امرأة ، فأحب تلك
المرأة وتزوجها فأكمل المائة .

وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف في الليلة على تسعين
امراًة.

وسئل رسول الله ﷺ عن أحب الناس إليه ، فقال : «عائشة» (٢٥٧)
—رضى الله عنها — .

(*) سبق تخريجه بهذا اللفظ.

[٢٥٧] عائشة.

صحيح.

رواه أحمد (٢٠٣/٤) ، والبخارى (٢٩٠/٢) ، ومسلم (١٨٥٦/٤) ، والترمذى
(٣٨٨٥) ، والنسائى في «الكبرى» (تحفة : ١٥٤/٨) من طريق : خالد الحذاء ، عن أبى
عثمان النهدي ، عن عمرو بن العاص به.

وقال عن خديجة : « إني رزقت حبها » (٢٥٨).

فمحنة النساء من كمال الإنسان ، قال ابن عباس :
خير هذه الأمة أكثرها نساء.

وذكر الإمام أحمد أن عبد الله بن عمر وقع في سهمه يوم جلولاء
جارية كأن عنقها إبريق من فضة ، قال عبد الله : فما صبرت أن قبلتها
والناس ينظرون ، وبهذا احتج الإمام أحمد على جواز الاستمتاع من المسبية
قبل الاستبراء بغير الوطء ، بخلاف الأمة المشتراة .

والفرق بينهما أن انفساخ الملك لا يتوهم في المسبية بخلاف المشتراة ،
فقد ينفسخ فيها الملك ، فيكون مستمتعاً بأمة غيره .

وقد شفع النبي ﷺ لعاشق أن تواصله معشوقته بأن تتزوج به فأبت ،
وذلك في قصة مغيث وبريرة لما رآه النبي ﷺ يمشى خلفها ودموعه تجري
على خديه ، فقال لها رسول الله ﷺ : « لو راجعته » ، فقالت : أتأمرني
يا رسول الله ؟ فقال : « لا إنما أشفع » ، فقالت : لا حاجة لي به ، فقال
لعمه : « يا عباس ألا تعجب من حب مغيث وبريرة ، ومن بغضها له » (٢٥٩)
ولم ينكر عليه حبها ، وإن كانت قد بانث منه .

[٢٥٨] إني رزقت حبها.

صحيح.

رواه مسلم (١٨٨٨/٤) من طريق : حفص بن غياث ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ،
عن عائشة بهذه الزيادة ، وأصل الحديث عند البخاري والترمذي .

[٢٥٩] لو راجعته ..

صحيح.

رواه البخاري (٢٧٤/٣) ، وأبو داود (٢٢٣١) ، والنسائي (٢٤٥/٨) ، وابن ماجه
(٢٠٧٥) من طريق : خالد بن مهران الحذاء ، عن عكرمة ، عن ابن عباس - رضي الله
عنهما - به .

وكان النبي ﷺ يسوى بين نسائه فى القسم ويقول :

« اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك » (٢٦٠)

يعنى فى الحب، وقد قال تعالى :

﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ (النساء: ١٢٩).

يعنى فى الحب والجماع .

ولم يزل الخلفاء الراشدون والرحماء من الناس يشفعون للعشاق إلى معشوقهم الجائز وصلهن ، كما تقدم من فعل أبي بكر وعثمان .

وكذلك على - رضى الله عنه - :

أتى بغيلا من العرب وجد فى دار قوم بالليل ، فقال له : ما قصتك ؟
قال : لست بسارق ، ولكنى أصدقك :

[٢٦٠] اللهم هذا قسمى فيما أملك ..

ضعيف .

رواه أبو داود (٢١٣٤) ، والترمذى (١١٤٠) ، والنسائى (٦٤/٧) ، وفى « عشرة النساء » (٥) ، وابن ماجه (١٩٧١) من طريق : حماد بن سلمة ، عن أيوب ، عن أبي قلابه ، عن عبد الله بن يزيد ، عن عائشة به .

قال الترمذى : « حديث عائشة هكذا رواه غير واحد عن حماد بن سلمة ، عن أيوب ، عن أبي قلابه ، عن عبد الله بن يزيد ، عن عائشة .. ، ورواه حماد بن زيد وغير واحد ، عن أيوب ، عن أبي قلابه مرسلاً ، وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة » .

قلت : فرواية حماد بن سلمة شاذة ، والأصح فى هذا الحديث الإرسال ، والله أعلم .

تعلقت في دار الرياحي خودة يذل لها من حسن منظرها البدر
لها في بنات الروم حسن ومنصب إذا افتخرت بالحسن خافتها الفخر
فلما طرقت الدار من حر مهجتي أبيت فيها من توقدها الجمر
تبادر أهل الدار بي ثم صيحوا هو اللص محتوماً له القتل والأسر
فلما سمع على بن أبي طالب رضى الله عنه شعره رق له ، وقال
للمهلب بن رباح : اسمح له بها ، فقال : يا أمير المؤمنين : سله من هو ؟
فقال : النهاس بن عينة : فقال : خذها فهي لك .
واشترى معاوية جارية فأعجب بها إعجاباً شديداً ، فسمعها يوماً
تنشد أبياتاً منها :

وفارقت كالغصن يهتز في الثرى طريرا وسيماً بعد ماطر شاربه
فسألها ، فأخبرته أنها تحب سيدها ، فردها إليه ، وفي قلبه منها .
وذكر الرمخشري في ربيعة أن زبيدة قرأت في طريق مكة على
حائط :

أما في عباد الله أو في إمائه كريم يجلى الهم عن ذاهب العقل
له مقلة أما الأماقي قريحة وأما الحشا فالنار منه على رجل
فندرت أن تحتال لقائلهما إن عرفته حتى تجمع بينه وبين من يحبه ،
فبينما هي بالمزدلفة ، إذ سمعت من ينشدهما فطلبتة ، فزعم أنه قالهما في ابنة
عم له نذر أهلها أن لا يزوجوها منه ، فوجهت إلى الحى ، وما زالت تبذل
لهم المال حتى زوجوها منه ، وإذا المرأة أعشقت له منه لها ، فكانت تعده من
أعظم حسناتها ، وتقول : ما أنا بشيء أسر منى من جمعى بين ذلك الفتى
والفتاة .

قال الخرائطي : وكان لسليمان بن عبد الملك غلام وجارية يتحابان ،
فكتب الغلام إليها يوماً :

ولقد رأيته في المنام كأنما عاطيتني من ريق فيك البارد
وكان كفك في يدي وكأننا بتنا جميعاً في فراش واحد
فطفقت يومى كله متراقداً لأراك في نومي ، ولست براقد
فأجابته الجارية :

خيراً رأيته وكل ما أبصرته ستناله مني برغم الحاسد
إنني لأرجو أن تكون معانقي فتبيت مني فوق ثدى ناهد
وأراك بين خلاخلي ودماجلي وأراك فوق ترائبي ومجاسدي
فبلغ سليمان ذلك فأنكحها الغلام وأحسن حالهما على فرط غيرته .

وقال جامع بن برخية: سألت سعيد بن المسيب مفتي المدينة : هل في حب
دهمنا من وزر ؟ فقال سعيد : إنما تلام على ما تستطيع من الأمر ، فقال
سعيد : والله ما سألتني أحد عن هذا ، ولو سألتني ما كنت أجيب إلا به .

■ أقسام عشق النساء .

* فعشق النساء ثلاثة أقسام :

قسم : وهو قربة وطاعة وهو عشق امرأته وجاريته ، وهذا العشق
عشق نافع، فإنه أدعى إلى المقاصد التي شرع الله لها النكاح ، وأكف
للبصر والقلب عن التطلع إلى غير أهله ، ولهذا يحمد هذا العاشق عند
الله، وعند الناس.

وعشق : هو مقت من الله وبعد من رحمته ، وهو أضر شيء على
العبد في دينه ودنياه وهو عشق المردان ، فما ابتلى به إلا من سقط من عين

الله ، وطرده عن بابه وأبعد قلبه عنه ، وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله ، كما قال بعض السلف : إذا سقط العبد من عين الله ، ابتلاه بمحبة المردان ، وهذه المحبة هي التي جلبت على قوم لوط ما جلبت ، فما أتوا إلا من هذا العشق ، قال الله تعالى :

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر : ٧٢].

* ودواء هذا الداء : الاستغاثة بمقلب القلوب ، وصدق اللجأ إليه ، والاشتغال بذكره ، والتعويض بحبه وقربه ، والتفكير في الألم الذي يعقبه هذا العشق ، واللذة التي تفوته به ، فيترتب عليه فوات أعظم محبوب ، وحصول أعظم مكروه ، فإذا أقدمت نفسه على هذا وأثرته ، فليكبر على نفسه تكبير الجنابة ، وليعلم أن البلاء قد أحاط به .

والقسم الثالث : العشق المباح ، وهو الواقع من غير قصد ، كعشق من وصفت له امرأة جميلة ، أو رآها فجأة من غير قصد ، فتعلق قلبه بها ، ولم يحدث له ذلك العشق معصية ، فهذا لا يملك ولا يعاقب عليه ، والأنفع له مدافعتة والاشتغال عنه بما هو أنفع له منه ، ويجب الكتم والعفة والصبر فيه على البلوى ، فيشبه الله على ذلك ويعوضه على صبره لله وعفته ، وتركه طاعة هواه ، وإيثار مرضاة الله وما عنده .



فصل

اقسام الناس فى العشق

* والناس فى العشق ثلاثة أقسام :

* منهم : من يعشق الجمال المطلق ، وقلبه يهيم فى كل واد ، له فى كل صورة جميلة مراد .

* ومنهم : من يعشق الجمال المقيد ، سواء طمع فى وصاله أو لا .

* ومنهم : من لا يعشق إلا من يطمع فى وصاله .

وبين هذه الأنواع الثلاثة تفاوت فى القوة والضعف ، فعاشق الجمال المطلق ، يهيم قلبه فى كل واد ، وله فى صورة كل جميلة مراد :

فيوماً بحزورى ويوماً بالعقيق وبالعذيب يوماً ، ويوماً بالخليصاء
وتارة ينتحى نجداً وآونة شعب العقيق وطوراً قصر تيماء
فهذا عشقه أوسع ولكنه غير ثابت ، كثير التنقل .

يهيم بهذا ثم يعشق غيره ويسلاهم من وقته حين يصبح

وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه ، وأدوم محبة له ، ومحبه أقوى من محبة الأول ، لاجتماعهما فى واحد ، ولكن يضعفهما عدم الطمع فى الوصال ، وعاشق الجمال الذى يطمع فى وصاله أعقل العشاق وأعرفهم وحيه أقوى ، لأن الطمع يمدده ويقويه .



فصل

الكلام على حديث : « من عشق فعف »

* وأما حديث : « من عشق فعف » :

فهذا يرويه سويد بن سعيد ، وقد أنكره حفاظ الإسلام عليه .

قال ابن عدى فى « كامله » : « هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد » ، وكذا ذكر البيهقى وابن طاهر فى الذخيرة والتذكرة ، وأبو الفرج بن الجوزى وعده فى الموضوعات ، وأنكره أبو عبد الله الحاكم على تساهله ، وقال : أنا أتعجب منه

قلت : والصواب فى الحديث أنه من كلام ابن عباس رضى الله عنهما موقوفاً عليه ، فغلط سويد فى رفعه .

قال محمد بن خلف بن المرزبان : حدثنا أبو بكر الأزرق عن سويد به ، فعاتبه على ذلك فأسقط ذكر النبى ﷺ وكان بعد ذلك يسأل عنه فلا يرفعه ، ولا يشبه هذا كلام النبوة .

وأما رواية الخطيب له عن الزهرى : حدثنا المعافى بن زكريا ، حدثنا قطبة بن الفضل ، حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق ، حدثنا سويد ، عن ابن مسهر ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة مرفوعاً ، فمن أبين الخطأ ولا يحمل هشام عن أبيه عن عائشة ، مثل هذا عند من شم أدنى رائحة من الحديث ، ونحن نشهد الله أن عائشة ما حدثت بهذا عن رسول الله ﷺ قط ، ولا حدث به عروة عنها ، ولا حدث به هشام قط .

وأما حديث ابن الماجشون عن عبد العزيز بن أبى حازم عن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً ، فكذب على ابن الماجشون ، فإنه لم

يحدث بهذا ولا حدث به عنه الزبير بن بكار ، وإنما هذا من تركيب بعض
الوضاعين ، ويا سبحان الله ! كيف يتحمل هذا الإسناد مثل هذا المتن ؟
فقبح الله الوضاعين .

وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزى من حديث محمد بن جعفر بن
سهل ، حدثنا يعقوب بن عيسى ، عن ولد عبد الرحمن بن عوف عن ابن أبي
نجيح عن مجاهد مرفوعاً .

وهذا غلط قبيح ، فإن محمد بن جعفر هذا هو الخرائطى ، ووفاته
سنة سبع وعشرين وثلاث مئة ، فمحال أن يدرك شيخه يعقوب ابن أبي
نجيح ، لا سيما وقد رواه فى كتاب الاعتدال عن يعقوب هذا عن الزبير عن
عبد الملك عن عبد العزيز عن ابن أبي نجيح ، والخرائطى هذا مشهور
بالضعف فى الرواية ، وذكره أبو الفرج فى كتاب الضعفاء .

وكلام حفاظ الإسلام فى إنكار هذا الحديث هو الميزان ، وإليهم
يرجع فى هذا الشأن ، ولا صححه ولا حسنه أحد يعول فى علم الحديث
عليه ، ويرجع فى التصحيح إليه ، ولا من عادته التسامح والتساهل ، فإنه لم
يصف نفسه له ، ويكفى أن ابن طاهر الذى يتساهل فى أحاديث التصوف ،
ويروى منها الغث والسمين ، قد أنكره ، وشهد ببطلانه .

نعم ابن عباس لا ينكر ذلك عنه

وقد ذكر أبو محمد بن حزم عنه : أنه سئل عن الميت عشقاً ، فقال :

قتيل الهوى لا عقل ولا قود .

ورفع إليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ ، فقال : ما شأنه ؟ قالوا :

العشق ، فجعل عامة يومه يستعيد من العشق ، وقد تقدم ذلك .

فهذا نفس ما روى عنه ذلك .

ومما يوضح ذلك : أن النبي ﷺ عد الشهداء في الصحيح ، فذكر
المقتول في الجهاد ، والمبطون ، والحرق ، والنفساء يقتلها ولدها ، والغرق ،
وصاحب ذات الجنب ، ولم يذكر منهم من يقتله العشق .

وحسب قتيل العشق أن يصح له هذا الأثر عن ابن عباس رضي الله
عنهما ، على أنه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله ، ويعف لله ، ويكتم لله ،
لكن العاشق إذا صبر وعف وكنم مع قدرته على معشوقه ، وآثر محبة الله
وخوفه ورضاه ، هذا من أحق من دخل تحت قوله تعالى :

﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي
المأوى ﴾ (النازعات : ٤٠ و ٤١) .

وتحت قوله تعالى :

﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ (الرحمن : ٤٦) .

فنسأله الله العظيم . رب العرش العظيم .

أن يجعلنا ممن أثر حبه على هواه .

وابتغى بظلمة قربه ورضاه .



الفهارس

❖ فهرس الأحاديث والآثار المخرجة.

❖ فهرس الموضوعات والأبواب.

فهرس الأحاديث والآثار المخرجة وأرقامها

٢٤٤.....	اتق الله وأمسك عليك زوجك.....
١٥٢.....	اجتنبوا السبع الموبقات.....
٦.....	ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة.....
٢٢٤.....	اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له.....
٥٢ و ٥١.....	استعينوا بالله من عذاب القبر.....
٢٧.....	اسم الله الأعظم في ثلاث سور.....
٢٣.....	اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين.....
١٦٠.....	اشتد غضب الله على قوم اتخذوا.....
٢٥٢.....	اقرأ علي.....
٢١٩.....	اللهم إني أسألك بعلمك الغيب.....
٢٦٠.....	اللهم هذا قسمي فيما أملك.....
١٦٢.....	اللهم لا تجعل قبري وثناً.....
٢٠٣ و ١١٨.....	أتعجبون من غيرة سعد.....
١٦٥.....	أجعلتني لله نداً؟!.....
٣٧.....	أذنب عبد ذنباً.....
٢١٧.....	إذا أتت المرأة المرأة.....
٢٠١.....	إذا أصبح العبد.....
١٠٣.....	إذا خفيت الخطيئة لم تضر إلا صاحبها.....
٧٩.....	إذا رأيت الله يعطي العبد في الدنيا على معاصيه ما يحب.....
٦٥.....	إذا صار أهل الجنة في الجنة.....
٩٧ و ٩٦.....	إذا ضمن الناس بالدينار والدرهم.....
٩٣.....	إذا ظهر الزنا والربا.....
٨٧.....	إذا ظهرت المعاصي في أمتي.....

(ص:١١٠).....	إذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع.....
١٣٧.....	إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلاً.....
٢٣٣.....	إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا.....
٥٩.....	إذا وضعت الجنّاة واحتملها الرجال.....
١٦٨.....	أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة.....
٨.....	أصاب بني إسرائيل بلاء.....
٤٥.....	أف لك.....
٢٤.....	أظفوا بيّاذ الجلال والإكرام.....
١١٢.....	أما بعد ، يا معشر قريش.....
١٥٣ و ١٤٢.....	أن تجعل لله نداً وهو خلقك.....
٣٥.....	أنا الله لا إله إلا أنا.....
١٥٥.....	أنا أغنى الشركاء عن الشرك.....
٣٨.....	أنا عند حسن ظنّ عبدي بي.....
٢٢٢.....	أنا مع عبدي ما ذكرني.....
٢٥٥.....	أنتن زوجكن أهاليكن وزوجني الله.....
٢٠٩.....	أنه وجد في بعض ضواح العرب رجلاً ينكح.....
٦٤.....	إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده.....
١٧٠.....	إن أخنع الأسماء عند الله.....
٢٢٨.....	إن الله اتخذني خليلاً.....
١٢٨.....	إن الله جعل الروح والفرح في الرضى.....
٩٨.....	إن الله عز وجل إذا أراد بالعباد نقمة.....
٣.....	إن الله لم ينزل داء إلا.....
١٦.....	إن الله يحب الملحين في الدعاء.....
٨٠.....	إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب.....
٢٠٤.....	إن الله يغفار.....

٧٣.....	إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة.....
١٢٧.....	إن روح القدس نفث في روعي.....
١٤٠.....	إن السكينة تنطق على لسان عمر.....
١٣٤.....	إن الشيطان قد قعد لابن آدم.....
١٩٣ و ١٣٢.....	إن العبد ليتكلم بالكلمة.....
١٣٥.....	إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم.....
٤٢.....	إن قوماً ألهمهم أمانى المغفرة.....
١٣٩.....	إن للملك بقلب ابن آدم لمة.....
١٢٣.....	إن مما أدرك الناس من كلام النبوة.....
١٩٤.....	إن من أحدكم ليتكلم.....
١٥٧.....	إن من شرار الناس.....
١٢١.....	إن من الغيرة ما يحبها الله.....
١٥٨.....	إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد.....
٩٥.....	إن من كان قبلكم كان إذا عمل العامل.....
١٦١.....	إن من كان قبلكم كان إذا مات فيهم الرجل الصالح.....
٣٩.....	إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل.....
١١١.....	إن المؤمن إذا أذنب ذنباً.....
١١٥.....	إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل.....
٢٥٣.....	إن المرأة تقبل في صورة شيطان.....
٦٣.....	إن المصورين يعذبون يوم القيامة.....
١٠٢.....	إن الناس إذا رأوا الظالم.....
٢٤٥.....	إن النبي ﷺ كان يقبلها.....
١٢٥.....	إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة.....
١٠٩.....	إنكم لتعملون أعمالاً.....
١٣٦.....	إنما تطفأ النار بالماء.....

٢٤٨.....	إنه إذا تجلى لهم ورأوه.....
٢١٨.....	إنه لا يذل من واليت.....
٢٣٠.....	إني أبرأ إلى كل خليل.....
٥٦.....	إني أرى ما لا ترون.....
٢٥٨.....	إني رزقت حبها.....
٢٣٢.....	إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد.....
٢٣٥.....	إني لست كهيتكم.....
١٧٧.....	أول ما ينتن من الإنسان بطنه.....
١٩١.....	ألا أخبرك بملاك ذلك.....
٢٩.....	ألا أخبركم بشيء.....
(ص: ٢٤٦).....	ألا أنبئكم بأكبر الكبائر.....
١٠٨ و ٧١.....	إياكم ومحقرات الذنوب.....
١٣١ و ١١٤.....	بعثت بالسيف بين يدي الساعة.....
٢١٣.....	بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل نكح.....
٦٠.....	تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل.....
٢٢٥.....	ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة.....
٢٥٦ و ٢٤٠.....	حُبب إلي من دنياكم.....
٢٤١.....	حبك الشيء يعمي ويصم.....
١٢٢.....	الحياء خير كله.....
١١٧.....	خلق الله آدم وطوله في السماء ستون ذراعاً.....
٧٨.....	دخل رجل الجنة في ذباب.....
٢٨.....	دعوة ذي النون.....
١٠.....	الدعاء سلاح المؤمن.....
١٢.....	الدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل.....
١٣٠ و ١٢٩.....	الدنيا ملعونة.....

٢٣٩.....	ذاق طعم الإيمان.....
١٨٤.....	رأيت في الجاهلية قرداً زنى بقردة.....
١٨٠.....	سباب المسلم فسوق.....
٨٥.....	سبقك بها عكاشة.....
١٠٤.....	سيظهر شرار أمتي.....
١٥٤.....	الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل.....
١٢٦.....	الشیطان ذئب الإنسان.....
١٥١.....	الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة.....
٢٥٧.....	عائشة.....
١١٠.....	عذبت امرأة في هرة.....
١٦٦.....	عرف الحق لأهله.....
٥٣.....	علام اجتمع هؤلاء.....
١٨٧.....	غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم.....
٢٤٢ و ١٤٤.....	فما ظنكم.....
٢٤٧.....	فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم.....
١٩٠.....	الفم والفرج.....
١٦٩.....	قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق.....
١٩٢.....	قال رجل والله لا يغفر الله لفلان.....
٤.....	قتلوه قتلهم الله.....
١٩٩.....	قل آمنت بالله ثم استقم.....
١٤٦.....	القلوب أربعة.....
٢٣٨.....	كان خلقه القرآن.....
٣٤.....	كان رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار يكنى أبا معلق.....
١٤١.....	كان الملك ينافح عنك.....
٢٥٠.....	كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن إذا سمعوه.....

١١٣.....	كل أمتي معافى.....
٢٠٠.....	كل كلام ابن آدم عليه لا له.....
٢٥١.....	كل لهو يلهو به الرجل.....
٥٥.....	كل مسكر حرام.....
٦١.....	كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن.....
٤١.....	الكيس من دان نفسه.....
١٨٣.....	لزوال الدنيا أهون عند الله.....
١٥٩.....	لعن الله زوارات القبور.....
٢١٢.....	لعن الله من عمل عمل قوم لوط.....
١٥٦.....	لعن الله اليهود والنصارى.....
٥٨.....	لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره.....
٢٢.....	لقد دعا الله باسمه العظيم.....
٢١.....	لقد سأل الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطى.....
٢.....	لكل داء دواء.....
٢٥٤.....	لم ير للمتحابين مثل النكاح.....
٤٧.....	لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار.....
٨٦.....	لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم.....
٢٥٩.....	لو راجعته.....
٢٢٩.....	لو كنت متخذاً خليلاً.....
١٤٧.....	ليس الشديد بالصرعة.....
٨٢.....	ليس الخبير كالمعين.....
١٤٨.....	ليس المسكين بالطواف.....
٣٣.....	ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن.....
١.....	ما أنزل الله من داء.....
١٧٦.....	ما أعظمك وأعظم حرمتك.....

٢٣٤.....	ما بين بيتي ومنبري روضة.....
٢٢٧.....	ما تحاب رجلان في الله.....
٢٢١.....	ما تقرب إليَّ عبدي.....
٨١.....	ما الدنيا في الآخرة.....
١٠٠.....	ما طفف قوم كيلاً.....
٢٢٣.....	ما ظنك باثنين الله ثالثهما.....
٩٤.....	ما ظهرت الفاحشة في قوم.....
٤٠.....	ما فعلت.....
٤٩.....	ما لي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط.....
١٠٦.....	ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي.....
١٧.....	ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا.....
٤٦.....	مررت ليلة أسري بي على قوم تُقرض شفاههم.....
٢١٦.....	من أتى بهيمة.....
٢٢٠.....	من أحب لقاء الله.....
(ص: ٣٦٩).....	من أحب لله.....
٧٥.....	من أخذ شبراً من الأرض.....
٦٦.....	من اشترى ثوباً بعشرة دراهم فيها.....
٢١٥.....	من تخطى حرم المؤمنين.....
٦٧.....	من ترك الصلاة سكراناً.....
٦٢.....	من تعظم في نفسه.....
١٦٤.....	من حلف بغير الله فقد أشرك.....
٨٣.....	من خاف أدلج.....
٦٨.....	من شرب الخمر مرة.....
١٧٢.....	من صام رمضان وأتبعه بست من شوال.....
١٧١.....	من صلى العشاء في جماعة.....

٢٤٣.....	من عشق وعف وكرم.....
٣٦.....	من قال في يوم سبحان الله وبحمده.....
١٨٢.....	من قتل معاهداً.....
١٧٣.....	من قرأ قل هو الله أحد.....
٧٤.....	من كان عنده لأخيه مظلمة.....
١٩٦.....	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً.....
١٤.....	من لم يسأل الله غضب عليه.....
٦٩.....	من مات مدمناً للخمر.....
٢١١.....	من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط.....
٢١٤.....	من وقع على ذات محرم فاقتلوه.....
٢٤٦ و ١٣٣.....	من يسألني فأعطيه.....
٢٠٧.....	من أشراط الساعة أن يرفع العلم.....
١٩٨.....	من حسن إسلام المرء.....
١٧٩.....	من ورطات الأمور.....
٧٦.....	ناركم هذه التي يوقد بنو آدم.....
١٨٦.....	النظرة سهم مسموم.....
٣٠.....	هل أدلكم على اسم الله الأعظم.....
١١٦.....	هل رأى منكم البارحة رؤيا.....
٤٣.....	والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك.....
٢٤٩.....	وأسألك لذة النظر إلى وجهك.....
٩٩.....	والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة.....
٢٣٦.....	والذي نفسي بيده لا يؤمن.....
١٩٥.....	وما يدريك.....
٥.....	وما يدريك أنها رقية.....
١٤٥.....	ونعوذ بالله من شرور أنفسنا.....

٢٠٥ و ١٢٠.....	لا أحد أغير من الله
٣٢.....	لا إله إلا الله الحليم الكريم.....
٣١.....	لا إله إلا الله العظيم الحليم.....
١٨٥.....	لا تتبع النظرة النظرة.....
١٣٨.....	لا تخف ولا تحزن.....
١٨١.....	لا ترجعوا بعدي كفاراً.....
٨٨.....	لا تزال هذه الأمة تحت يد الله.....
٧٧.....	لا تشرك بالله شيئاً.....
١٥.....	لا تعجزوا في الدعاء.....
١٧٤.....	لا تقتل نفس ظلماً.....
٨٤.....	لا يا ابنة الصديق.....
٢٣٧.....	لا يا عمر.....
٢٣١.....	لا يبدل القول لدي.....
٢٢٦.....	لا يجد حلاوة الإيمان.....
٢٠٢.....	لا يحل دم امرئ مسلم.....
١٤٣.....	لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره.....
٢٠٨.....	لا يدخل الجنة ولد زنا.....
١٣.....	لا يرد القدر إلا الدعاء.....
٢٠.....	لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل.....
١٧٨.....	لا يزال المؤمن في فسحة من دينه.....
١٩.....	لا يزال يستجاب للعبد.....
١٢٤.....	لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن.....
١٨٩.....	لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه.....
١١.....	لا يغني حذر من قدر.....
١٦٣.....	لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد.....

٢٠٧ و ١١٩...	يا أمة محمد ما أحد أغير من الله.....
٥٤.....	يا أيها الناس أتدرون ما مثلي ومثلكم.....
٧.....	يا أيها الناس إن الله طيب.....
١٠١.....	يا أيها الناس إن الله عز وجل يقول لكم مروا بالمعروف.....
٢٥.....	يا حي يا قيوم.....
٢٦.....	يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث.....
٤٨.....	يا مقلب القلوب والأبصار.....
١٠٥.....	يأتي زمان يذوب فيه قلب المؤمن.....
١٠٧ و ٤٤.....	يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار.....
١٧٥.....	يجئ المقتول بالقاتل يوم القيامة.....
٩٢.....	يخرج في آخر الزمان قوم.....
١٨.....	يستجاب لأحدكم ما لم يعجل.....
٧٢.....	يضرب الجسر على جهنم.....
٥٧.....	يضغط المؤمن فيه ضغطة.....
٧٠.....	يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات.....
٩.....	يكفي من الدعاء مع البر.....
١٦٧.....	يقول الله عز وجل : العظمة إزاري.....
٢١٠.....	ينظر أعلى بناء في القرية.....
٥٠.....	يؤتى بأنعم أهل الدنيا.....
٩٠.....	يوشك أن تتداعى عليكم الأمم.....

فهرس الموضوعات

١٥.....	المقدمة.....
١٥.....	سؤال الفتوى
١٥.....	جواب الفتوى.....
١٥.....	لكل داء دواء.....
١٧.....	دواء العي السؤال.....
١٩.....	القرآن شفاء.....
٢١.....	الدعاء يدفع المكروه.....
٢١.....	دعاء الغافل.....
٢٤.....	فصل: الدعاء من أنفع الأدوية.....
٢٧.....	فصل: الإلحاح في الدعاء
٢٩.....	فصل: من آفات الدعاء.....
٣١.....	فصل: أوقات الإجابة.....
٤١.....	فصل: ظروف الدعاء
٤٢.....	فصل: شروط الدعاء المستجاب.....
٤٢.....	فصل: الدعاء والقدر.....
٥٠.....	فصل: مغالطة النفس حول الأسباب.....
٦٢.....	فصل: الذين اعتمدوا على عفو الله فضيعوا أمره ونهيه.....
٨.....	فصل: الاغترار بالدنيا.....
٩٢.....	فصل: الفرق بين حسن الظن والغرور.....
٩٤.....	فصل: الرجاء والأمانى.....
٩٩.....	فصل: ضرر الذنوب في القلب كضرر السموم في الأبدان.....

١٢٤.....	فصل: من آثار المعاصي.....
١٢٨.....	فصل: توالد المعاصي.....
١٢٩.....	فصل: المعصية تضعف إرادة الخير.....
١٢٩.....	فصل: إلف المعصية.....
١٣١.....	فصل: هوان العاصي على ربه.....
١٣٢.....	فصل: شؤم الذنوب.....
١٣٣.....	فصل: المعصية تورث الذل.....
١٣٤.....	فصل: المعاصي تفسد العقل.....
١٣٤.....	فصل: الذنوب تطبع على القلب.....
١٣٥.....	فصل: الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ.....
١٣٧.....	فصل: حرمان العاصي دعوة رسول الله ﷺ.....
١٣٨.....	فصل: ما رآه النبي ﷺ من عقوبات العصاة.....
١٤١.....	فصل: الذنوب تحدث الفساد في الأرض.....
١٤٤.....	فصل: الذنوب تطفئ الغيرة.....
١٤٨.....	فصل: المعاصي تذهب الحياء.....
١٥٠.....	فصل: المعاصي تضعف في القلب تعظيم الرب.....
١٥١.....	فصل: المعاصي تُنسي الله.....
١٥٣.....	فصل: المعاصي تخرج صاحبها من دائرة الإحسان.....
١٥٣.....	فصل: العاصي يفوته ثواب المؤمنين.....
١٥٦.....	فصل: المعاصي تضعف القلب.....
١٥٧.....	فصل: المعاصي تزيل النعم.....
١٥٨.....	فصل: المعاصي من أسباب الخوف في القلوب.....

١٦٠.....	فصل: المعاصي تمرض القلب.....
١٦٢.....	فصل: المعاصي تعمي البصيرة.....
١٦٣.....	فصل: المعاصي تصغر النفوس.....
١٦٤.....	فصل: المعاصي أسير شيطانه.....
١٦٦.....	فصل: المعاصي تسقط الكرامة.....
١٦٧.....	فصل: المعصية مجلبة للذنوب.....
١٦٨.....	فصل: المعصية تؤثر في العقل.....
١٧٠.....	فصل: المعاصي توجب القطيعة بين العبد وربه.....
١٧٢.....	فصل: المعاصي تحقق البركة.....
١٧٩.....	فصل: المعصية تجعل صاحبها من السفلة.....
١٨٤.....	فصل: المعاصي تجرئ على الإنسان أعداؤه.....
١٨٥.....	فصل: المعاصي تضعف العبد أمام نفسه.....
١٨٩.....	فصل: المعاصي تعمي القلوب.....
١٩٣.....	فصل: المعاصي عدو لدود.....
١٩٨.....	فصل: ثغر العين.....
١٩٩.....	فصل: ثغر الأذن.....
٢٠١.....	فصل: ثغر اللسان.....
٢٠٧.....	فصل: المعصية تنسي العبد نفسه.....
٢١٢.....	فصل: المعاصي تزيل النعم.....
٢١٣.....	فصل: المعصية تباعد بين العبد والمَلِك.....
٢١٩.....	فصل: المعاصي مجلبة الهلاك.....
٢٢٠.....	فصل: العقوبات الشرعية على المعاصي.....

٢٢٢.....	فصل:عقوبات الذنوب شرعية وقدرية.....
٢٢٥.....	فصل:القطع لإفساد الأموال.....
٢٢٧.....	فصل: العقوبات القدرية.....
٢٢٨.....	فصل:العقوبات القدرية على الأبدان.....
٢٨٢.....	فصل:بعض عقوبات المعاصي.....
٢٤٣.....	فصل: أصل الذنوب.....
٢٤٣.....	فصل: الذنوب الملكية.....
٢٤٤.....	فصل:الذنوب الشيطانية.....
٢٤٤.....	فصل:الذنوب السبعية.....
٢٤٥.....	فصل:الذنوب البهيمية.....
٢٤٥.....	فصل:الذنوب كبائر وصغائر.....
٢٥٠.....	فصل:الحق في المسألة.....
٢٥٢.....	فصل:شرك الوساطة.....
٢٥٥.....	فصل:شرك من جعل مع الله إلهاً آخر.....
٢٥٦.....	فصل:الشرك في العبادة.....
٢٦١.....	فصل:الشرك في الأفعال والأقوال والإرادات والنيات.....
٢٦٦.....	فصل:الشرك في اللفظ.....
٢٦٨.....	فصل:الشرك في الإرادات والنيات.....
٢٦٩.....	فصل:حقيقة الشرك.....
٢٧٣.....	فصل:سوء الظن بالله.....
٢٨١.....	فصل:الشرك والكبر.....
٢٨٢.....	فصل:القول على الله بغير علم.....

٢٨٤.....	فصل: الظلم والعدوان.....
٢٨٨.....	فصل: جريمة القتل.....
٢٩٧.....	فصل: جريمة الزنا.....
٣٠٠.....	فصل: مداخل المعاصي.....
٣٠٤.....	فصل: الخطرة.....
٣١٠.....	فصل: اللفظة.....
٣٢٠.....	فصل: الخطوة.....
٣٣٠.....	فصل عقوبة اللواط.....
٣٤١.....	فصل: عقوبة اللواط وعقوبة الزنا.....
٣٤٦.....	فصل: واطئ البهيمة.....
٣٤٧.....	فصل: اللواط والسحاق.....
٣٤٨.....	فصل: دواء اللواط.....
٣٥٥.....	فصل: توحيد المحبوب.....
٣٥٦.....	فصل: خاصية التعبد.....
٣٦٥.....	فصل: آخر مراتب الحب.....
٣٧٠.....	فصل: أنواع المحبة.....
٣٧١.....	فصل: كمال المحبة.....
٣٧٣.....	فصل: المحبة والخلة.....
٣٧٤.....	فصل: إثارة الأعلى.....
٣٧٥.....	فصل: إثارة الأنفع.....
٣٧٧.....	فصل: أقسام المحبوب.....
٣٧٩.....	فصل: الحب أصل كل عمل.....

٣٨٧.....	فصل: المحبة المحموددة والمحبة المذمومة.....
٣٨٩.....	فصل: الحب أصل الحركة.....
٣٩٢.....	فصل: الحب لله وحده.....
٣٩٤.....	فصل: آثار المحبة.....
٣٩٧.....	فصل: المحبة أصل كل دين.....
٤٠٢.....	فصل: عشق الصور.....
٤٠٥.....	فصل: عشق اللوطية.....
٤٠٧.....	فصل: دواء العشق.....
٤١٢.....	فصل: مقامات العشق.....
٤٣٨.....	فصل: كمال اللذة في كمال المحبوب.....
٤٤٠.....	رؤية الله في الآخرة.....
٤٤٥.....	فصل: الحب الذي لا ينكر ولا يذم.....
٤٤٧.....	فصل: محبة الزوجات.....
٤٥٥.....	أقسام عشق النساء.....
٤٥٧.....	فصل: أقسام الناس في العشق.....
٤٥٨.....	فصل: الكلام على حديث : « من عشق فعف... ».....
٤٦٠.....	آخر الكتاب.....
٤٦١.....	الفهارس العلمية.....
٤٦٢.....	فهرس الأحاديث والآثار المخرجة.....
٤٧٢.....	فهرس الموضوعات.....